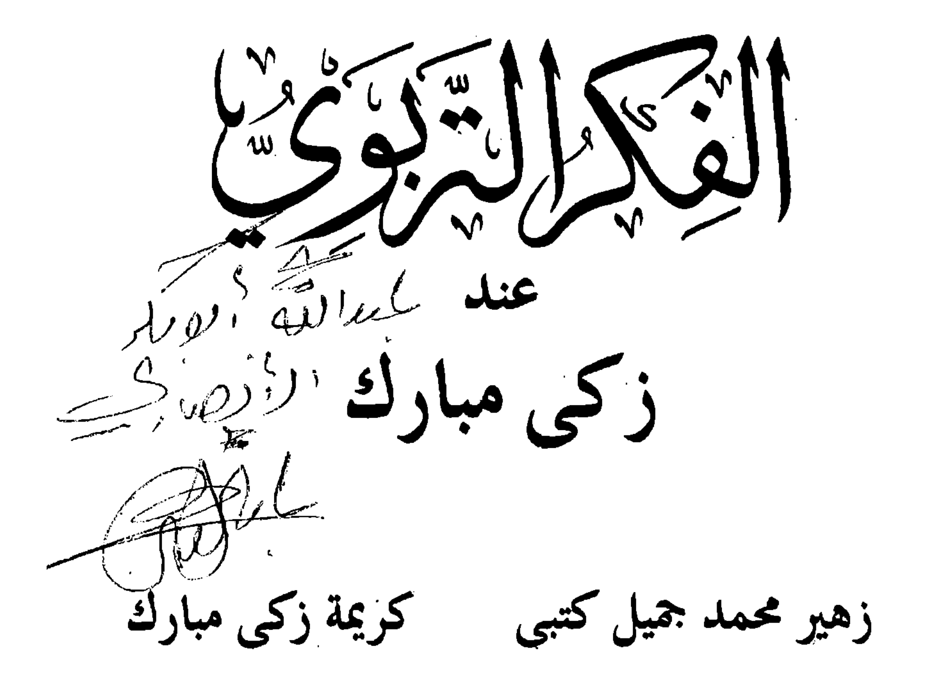
الكتاب العاشر
٢٠١٧/٨/٢٦

الفِكْر التربوي

عِنْدَ زكي مبارك

زهير محمد جميل كتبي
كريمه زكي مبارك



الفكر التربوي

عند

زكي مبارك

زهير محمد جميل كتبي كريمة زكي مبارك

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

صمم الغِلاف

زهير محمد جميل كتبي

المملكة العربية السعودية ، مكة المكرمة ، ص . ب (٩٠٦٨)

هاتف / ٥٣٦٦٦١١

بسم الله الرحمن الرحيم

« يجب أن نغير الطريقة المتبعة فى مدارسنا وهى طريقة التحفيظ ، ونتبع الطريقة المثلى فى التربية وهى طريقة التفهيم ، وطريقة التفهيم هى أن يفهم التلميذ فهمًا صحيحا ما يعرض فى الدرس من مختلف الأفكار والآراء .

عند ذلك يهتاج شوقه إلى مناقشة ما يسمع وتثور فيه رغبة التفوق ، فيناقش ويجادل ، ويضمر فى نفسه فكرة التغلب على الباحثين من رجال العلوم والآداب والفنون .

زكى مبارك
١٩٤٥



مقــدمة

بقلم / زهير محمد جميل كتبى

الأديب والكاتب الصحفى السعودى المعروف

●● سنحت الفرصة لى بالتعرف على الأستاذة الفاضلة الكاتبـة الأديبة المصرية الكبيرة ، لأول مرة فى اتحاد الكتاب المصريين بالزمالك ، ودار لقاء أدبى شائق وممتع معها . وأعجبت بفكرها الذى يحمل فكر والدها الرجل الكبير الدكتور زكى مبارك ، وهكذا استمر الحديث . وتكررت اللقاءات الأدبية معها وتناولنا الحديث فيها عـن (أدب ، وفكر) الدكتور زكى مبارك . وعرفت من الأستاذة كريمة أن هناك جمعية أدبية باسم الدكتور زكى مبارك ، تجمع بين عضويتها كبار الأدباء والكتاب والمفكرين والشعراء المصريين . وقلت لها : إن هذا المشروع الأدبى أفضل خدمة وتقدير تقدم لرجل خدم الأدب العربى ، وأعجبت بهذه الخطوة الرائدة والتى أرجو من كل الدول العربية تنفيذ مثلها للرجال الكبار الذين خدموا الأدب العربى . وطلبت منها الانضمام لعضوية هذه الجمعية الأدبية ، وإذا بها ترحب بى أجمل ترحيب ، وبعد أيام من لقائنا بعثت لى بطاقة العضوية فى جمعية زكى مبارك الأدبية .

●● وقامت الأستاذة كريمة بإهدائى بعض مؤلفات والدها الدكتور زكى مبارك وقرأت معظمها ووجدت نفسى أمام عملاق من عمالقة الأدب والفكر العربى ، نعتز به لأنه يستحق ذلك لقيمته الكبيرة والعظيمة فى نفوسنا .

وطرحت علىّ الأستاذة الفاضلة كريمة فكرة تأليف كتاب مشترك عن (أدب وفكر) الدكتور زكى مبارك .

●● ومن هنا انطلقنا ، وقررنا أن يكون موضوع الكتاب : [الفكر التربوى عند زكى مبارك] ، فكانت النواة هى قراءة معظم ما قاله وما كتبه الأستاذ الدكتور زكى مبارك وصورنا الكثير من المقالات فى الهيئة المصرية العامة للكتاب، ثم دخلنا مرحلة التحليل والتفسير والتنظيم.

عُرف الأستاذ الدكتور زكى مبارك بالجرأة فى اقتحام الكثير من الموضوعات الحياتية المهمة التى ترتبط بالإنسان والمجتمع ، وغالبًا ما يتناول ذات الجوانب الأكثر أهمية وخطورة . وكل آرائه جديدة مبتكرة ولها صفة التأثير والتأثر .

●● وعندما نقرأ هذه المقالات واللمحات والأفكار التربوية نجد أنها قد تجاوزت حدود الموضوع لندرك أنها عالجت الكثير من المسائل والأمور ، ونشعر كأنما هذا الرجل الكبير يريد أن يقول لنا : إننا فى حياتنا الحاضرة جزء من ذلك الماضى العريق الأصيل .

ويعالج زكى مبارك الموضوعات التربوية بفكر صحى عقلى سليم وجسم سليم . ونجده يتطلع إلى المستقبل البعيد برؤية ثاقبة وبصيرة نافذة وطموح أفضل ، متصل بذلك الماضى الشامخ .

وهذا التطلع أكد لى أنه يتعامل بسلوك فكرى عميق يدل على أنه يبقى ماضى الآباء والأجداد ولكن بمعطيات الحاضر المتعددة المتطورة . وهذه عظمة فكر وأدب زكى مبارك ذى السمو فى المستوى والترق فى التلقي ، ويشعر المتلقى بالأحكام والأفضلية الجاذبة .

●● وعندما طرحنا هذا المشروع الأدبى كان هدفنا استفادة الجميع وخاصة تلك الشريحة من المجتمع التى يهمها معاودة قراءة هذا الفكر التربوى السليم . ولكى يستفيد منه طلاب الجامعات والمؤسسات التربوية وطلبة البحث العلمى .

ونحن نكشف هنا عن إمكانات جديدة للرجل الكبير زكى مبارك لم يسبق أن نالت حظًا من العناية والتقدير ، وهذا نوع من التجديد المتلاحق . خاصة أن مقالات زكى مبارك تعالج أخطر القضايا التربوية والاجتماعية والفكرية والثقافية والأدبية والسياسية بأسلوب مبدع متجدد رصين قوى جذاب شائق يمتص شحنات كبيرة من طاقات الفكر البشرى . وهذا الأسلوب السلس القوى يعطى القارئ طلاوة وحلاوة .

●● هذه القدرات والإمكانات فى شخصية زكى مبارك جعلته يستطيع بالقدرة الفنية والجهد العلمى المنظم التثبت من كل جوانب الموضوع والإلمام بأبعاده بصورة فائقة تدل على قوة صبره فى البحث والتنقيب الأدبى والفكرى والعلمى . ولذلك يتحكم فى صياغة أفكاره بطريقة قوية . وقد يشعر القارئ أنه يهزل فى طرح بعض آرائه وأفكاره ولكن فى الحقيقة هو جاد كل الجد صريح عذب فى فكره . لذلك أستطيع أن أجزم أن زكى مبارك صاحب مدرسة فكرية تربوية عظيمة ، استمد

قوته من عقيدة التوحيد وشريعة الإسلام .

لذلك سيجد القارئ أن فكره التربوى به حكمة الفكر والوجدان وفلسفة الفلاسفة الحكماء الصلحاء الفضلاء ، تنم عن مدى الثقافة الدينية الواسعة التى يتمتع بها الدكتور زكى مبارك .

صاحب فكر واع ناضج يخلق الفلسفة ، يعطى باستمرار منتظم دون أن يشعر القارئ بخلل فى الأداء والكفاءة والكفاية . مؤدب فى اختيار الألفاظ اللائقة للنفس الإنسانية بحيث يعرضها بكل صور الرضا ولا يجعل الغضب يسيطر عليه أثناء توزيع أدوار الفكر . قوى فى دحض الأباطيل والافتراءات ولا يحب نشرها ، ويصور الصدق بأجمل صوره . ما أجمل هذه الأفكار التربوية !

ولنقرأ معًا هذه العبارات التى صاغها زكى مبارك حين قال : « أنا أؤمن بأن الأدب العربى أدب أصيل ، وأعتقد أنه من الواجب أن ندعو جميع أبناء العروبة إلى الاعتزاز بذلك الأدب الأصيل ، لأنه يستحق ذلك لقيمته الذاتية ، ولأن الإيمان بأصالته يزيد فى قوتنا المعنوية ، ويرفع أنفسنا حين ننظر فنرى أن أسلافنا كانوا من المبتكرين فى عالم الفكر والبيان » .

●● يقول الدكتور زكى مبارك : « والمزية الأساسية فى القرآن هى تخليص العقلية الإنسانية من أوهام الأحبار والرهبان ، ودعوة المسلمين إلى اغتنام المنافع الدنيوية والأخروية ، وأظهر الأدلة على ذلك هو النص على ما فى الحج من شهود المنافع » .

هكذا يسير زكى مبارك فى فكره الإسلامى ليصوغ الفكرة من النصوص الإسلامية .

ويقول الأستاذ سلامة موسى فى مقال نشره بمجلة اللطائف عن الجهود الأدبية لجماعة من أدباء مصر ، هم : طه حسين ، والعقاد ، والزيات ، وزكى مبارك .

وهو يرى أن هؤلاء الأدباء « لهم هموم ثقافية لا يمكن أن تحرك قراءنا وتحيلهم إلى مكافحين يجاهدون أو يجتهدون لخدمة الأمة ، لأنهم فى حقيقتهم وشعورهم متفرجون مستمتعون لأنهم يعالجون العاديّات العربية التى تدرس للذة والاستمتاع وليس للمغزى والكفاح » .

وعندما نقلب صفحات مؤلفات وكتب ونقرأ مقالات وفكر زكى مبارك نجد أنه حمل الكثير من هموم المجتمع وآهات الناس وآلام المرضى فعالجها خير علاج . وكان علاجه يشكل حيزا كبيرًا من الثقافات المتنوعة .

●● ولكن الأستاذ الدكتور زكى مبارك لم يصنف فكره التربوى تصنيفا مستقلا ويمنحه أسماء مستقلة إنما وجد ضمن فعالياته الفكرية والأدبية .

وقد سجّل الأستاذ سلامة موسى فى « المجلة الجديدة » أنه كان يجدُر بالدكتور زكى مبارك أن يجمع مقالاته التعليمية فى كتاب خاص لتكون نبراسًا يهتدى به المعلمون » .

☐ نعم : إن فكره التربوى نبراس يهتدى به المعلمون والتربويون والمختصون فى التربية والتعليم . عندما نقرأ الفصل (٤٦) من كتاب زكى مبارك [ليلى المريضة فى العراق] نجد الكثير من التوجيهات التربوية العميقة . نجد فيها الدفاع عن اللغة العربية ، وأهميتها الكبرى فى التدريس

والمحافظة عليها ، وتعليمها للأجيال من الأبناء .

ويتحدث هذا الرجل الكبير فى كتابه : [اللغة والدين والتقاليد] حيث يقول : « وما أحب أن تضيع هذه الفرصة بدون أن أذكر سعادة مدير الجامعة المصرية بمسألة خطيرة تمس الاستقلال وتلك هى مسألة الرسائل التى تقدم لنيل الدرجات الجامعية .

إن الرسائل التى تقدم لامتحان الدبلوم والدكتوراه يجب دائمًا أن تكونَ باللغة القومية ، ففى جامعة باريس مثلا لا تقبل الرسالة الأساسية بغير اللغة الفرنسية ، ولو كانت فى موضوع يتصل بإحدى اللغات الأجنبية » .

●● والدكتور زكى دائم الدعوة إلى أن يكون الفكر التربوى يتمشى مع واقع الإنسان ، حسب توجهات عقيدته ، ويساير ظروف الأمة ويدعم سياستها وتخطيطها ، بما يكفل لها تحقيق التقدم والرقى . ويدعو إلى الاهتمام بالمهن والقدرات الفنية التى يحتاجها المجتمع . وعندما نحلل بعض تلك المقالات التعليمية نجد أن من المطالب التى ينادى بها زكى مبارك :

● مستوى مرتفع من الاستعداد للتحصيل الأكاديمى .

● مستوى مرتفع من تدريس اللغة العربية .

● مستوى مرتفع من تحصيل اللغة العربية .

● مستوى مرتفع من الاستعداد العلمى .

● مستوى جيد من التفكير الإنتاجى .

● مستوى مرتفع من القدرة على الصبر .

● أن يساهم التعليم بنصيب وافر وفعال فى بناء الحضارة الإنسانية ورفاهية البشرية .

● إن صحة وقوة القراءة هى الموضوع الأساسى فى العملية التعليمية .

● توفير أكبر قدر من المعلومات للطلاب والطالبات وبالذات التلاميذ فى المراحل الدنيا من التعليم .

● إعداد الطالب إعدادا جسميا ليكون قوى البنية لكى يستطيع المقاومة ، وبذل الجهد أثناء تحصيل العلم .

● مراعاة المناحى النفسية للطالب .

● مساعدة الطالب فى كل ما يحتاجه وعدم تضجر المعلم والمدرس والأستاذ الجامعى أثناء ذلك .

● مراعاة الفروق الفردية عند الطلاب .

● عدم الاعتماد على طريقة الحفظ .

● إعطاء الطالب الفرصة من أجل خلق الإبداع والابتكار وتنمية ذلك فى شخصيته .

● دراسة نواحى التأخر الدراسى عند بعض الطلاب ووضع اليد على مواطن الضعف لمعالجته بطريقة سلوكية وعلمية .

● الإلمام وبسرعة بنواحى عدم تكيف الطلبة مع بعض المدرسين .

● إعطاء الطالب الفرصة الكاملة للمناقشة والجدال العلمى والأدبى ، ولكن يجب أن يضبط بسلوكيات أدبية فاضلة حتى لا تجرح كرامة المدرس .

- الإخلاص فى تقديم كل ما هو مفيد ثقافيا للطالب .
- إعطاء الطالب جرعات منشطة لكل علم من العلوم والفنون والثقافة .
- إدراك مستويات فهم الشباب .
- يجب أن تكون العلاقة بين المدرس والطالب علاقة محبة واحترام وتقدير ، ولا يسمح فى التجاوز فى ذلك .
- لا بد من توفير أكبر قدر من الوسائل التعليمية التى تساعد على نمو العملية التعليمية لتوصيل المعلومة للطالب بأسرع وقت وأقل جهد .
- قتل الشعور بالقلق والخوف الذى يسود بين المدرس والطالب .
- توطيد العلاقة بين المدرسة والبيت .
- لا بد للمدرسة أن تعرف مستوى الأسرة الاقتصادى لكل طالب من طلابها .
- لا بد للمدرسة أن تعرف مستوى الأسرة الثقافى .
- لا بد من استخدام بعض عناصر القسوة أثناء العملية التربوية من أجل إيجاد رهبة للقيمة العلمية .
- لا بد للمدرسة من معرفة أسباب اضطراب النمو الجسمى وضعف البنية عند بعض الطلاب . وعلى الحكومة معالجة المريض منهم .
- ضرورة فصل الطلاب الأصحاء عن ذوى العاهات الجسمية .
- تدريس التلاميذ يبدأ من المحسوسات إلى المجردات .
- تدريب الطلاب على عملية البحث العلمى .
- تدريب الطلاب على كتابة المقالات ، والخطب .

● لا بد من تشجيع الطلاب على التعبير عن أخطائهم بطريقتهم الخاصة .

● معاقبة الطلاب الذين يتأخرون عن الحضور إلى المدرسة .

● الاهتمام بالنواحى الاجتماعية للطلاب .

● لا بد أن يكون مستوى التوجيه التربوى على مستوى رفيع .

● ضرورة إعادة النظر وبصورة دائمة فى المناهج وتطويرها بصورة أكثر فعالية تراعى احتياجات كل مرحلة من مراحل التعليم العام والعالى .

● الارتقاء بمستوى طرق التدريس فهى أهم أداة من أدوات العملية التعليمية .

● على إدارة المدارس تهيئة الجو المناسب داخل المدرسة والقضاء على كل المشاكل التى قد تنجم .

● لا بد أن يمتلك المدرس وعيًا كبيرًا وناضجًا ، ويبعد عن الغضب والانفعال .

● لا بد من تطعيم المدرسين وبصورة مستمرة بكل ما هو جديد فى حقل التربية والتعليم .

● احترام قدرة الطالب وتنمية مهارة من يظهر أنه يمتلك موهبة .

● ضرورة أن تخضع عملية التقويم للمدرس والطالب معا .

● حث الطلاب المستمر على القراءة والتعريف بأهميتها فى حياته .

● التلميذ والطالب فى حاجة ماسة إلى الإثارة الملائمة والدائمة التى تجذبه للكسب العلمى .

● المناهج التعليمية يجب أن تسهم فى تحقيق أهداف وطموحات

واحتياجات المجتمع .

● يجب أن تكون الغاية من العملية التربوية التعليمية هي خلق المواطن الصالح .

● عدم إهمال العامل العاطفي عند المدرس الذي يجب أن يعلم أن من يعلمه هو جزء منه .

●● هذه بعض أفكار وآراء الأستاذ الدكتور زكي مبارك صُغْتُ بعضها بأسلوبي ولكنها بفكره ، وبعضها وضعتها كما أرادها . ولقد خلصت بها عندما قرأت العشرات ، بل المئات من مقالاته المنشورة في المجلات والصحف المصرية ، وبعضها جمع في كتب .

إن ما أرجوه من التربويين والمختصين وذوي العلاقة أن يدرسوا فكر هذا الرجل الكبير وفلسفته العميقة التي تدعو إلى فلسفة تربوية جديدة تساعد الإنسان على الخروج من هذه الأزمات التي تواجهه وتقف حجر عثرة على رقية وتطوره . ولقد استمد زكي مبارك فلسفته التربوية من التربية الإسلامية ذاتها والتي تدعو إلى العبادة والإخلاص لله في العبادة والتي تؤدي في نهاية المطاف إلى خلق المواطن الصالح .

●● إن ما أريده هنا : أن أقول : إن البحث في الفكر التربوي عند الأستاذ الدكتور زكي مبارك أمر مهم لأن زكي مبارك أحد مشاهير أعلام الفكر العربي الإسلامي ، وأديب كبير ، وكاتب عريق ترك الكثير من الأفكار والآراء التي تناولت الحياة الإنسانية في نواحي مختلفة وخاصة الأدبية والثقافية والاجتماعية والسياسية وأثرت تلك الجهود في الحركة الأدبية والثقافية والدينية ، وتجاوز تأثيره حدود مصر ليصل إلى العالم

الإسلامى وأجزاء كبيرة من هذا العالم الكبير .

وكان تأثير زكى مبارك عميقًا ومؤثرًا فى مجابهة الكثير من محاولات النيل من الإسلام والعروبة .

حقيقة إن الأستاذ الدكتور زكى مبارك يعتبر مدرسة تربوية ذات منهاج مستقل ، انتقدت المريض من الأفكار ، وحافظت على التراث بكل أصالته وعراقته ومجده . بل تحدى زكى مبارك كل الدخيل على المدرسة الإسلامية التربوية وقاوم كل موروثات التقليد والجمود .

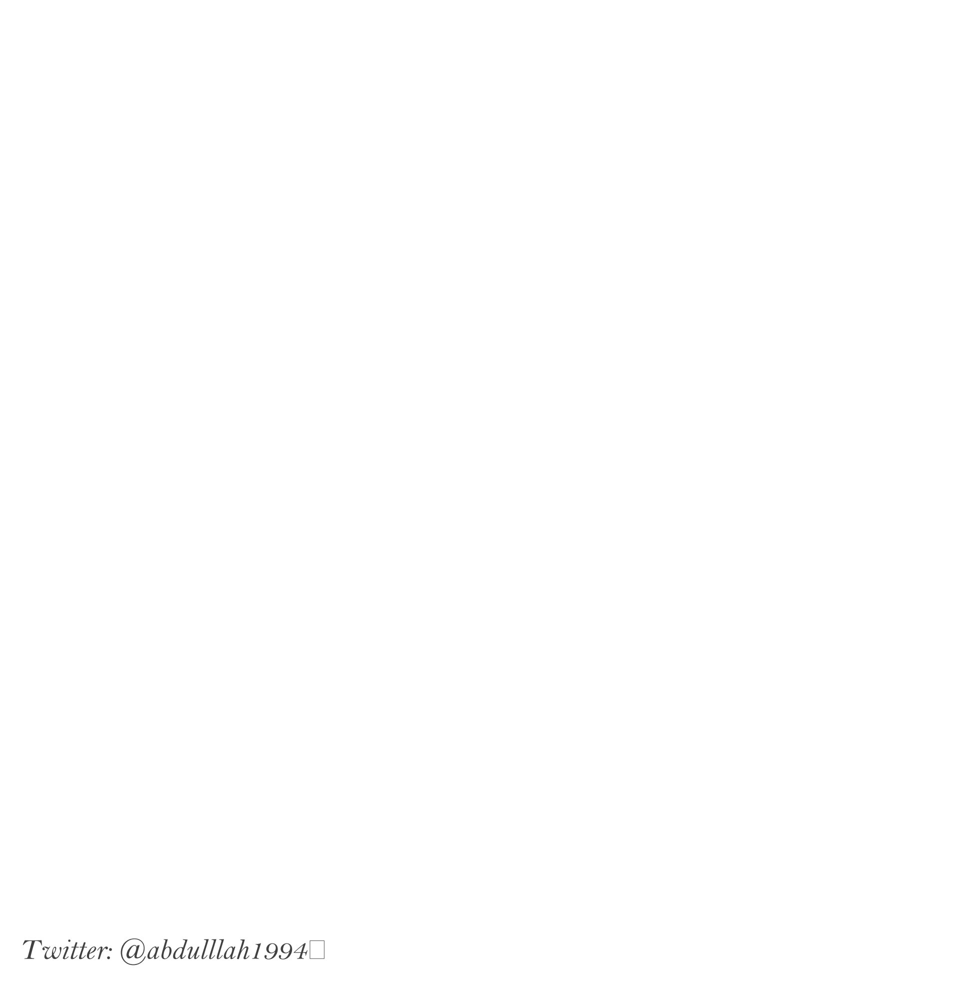
●● هذه هى أفكار (زكى مبارك) أو بعضها نضعها بين أيديكم لتغترفوا من نهره العذب .

فإليكم هى .

زهير محمد جميل كتبى

مكة المكرمة

١٠ / ١٠ / ١٤١١ هـ .



تمهيد

بقلم : كريمة زكى مبارك

قال الدكتور زكى مبارك على صفحات جريدة البلاغ : قال رسول الله ﷺ : « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » . وأنا منهوم فى طلب العلم بصورة فظيعة ، وعقلى هو معدة تأكل الحديد » .

وفى هذا المعنى قال الشاعر محمد الأسمر فى قصيدة طويلة جاء فيها هذا البيت :

هذا زكى لم يزل متلمذا ولـه تلامذة هُمُ العلماء

ولقد كان زكى مبارك تلميذا مجدا ، بدأ حياته الدراسية فى الكُتَّاب وحِفظ القرآن كله فى شهور ، ثم أخذ يعيده من يوم إلى يوم . وقضى فى الكتّاب سنتين[1] .

وفى الأزهر الشريف لازم الشيخ سيد المرصفى سبع سنين ، وكان يكتب جميع ما يقوله الشيخ فى الدرس ، وأول درس تلقاه فى الأدب كان على يد الشيخ محمد المهدى وقد صحبه أربع سنين[2] .

يقول زكى مبارك موجها كلامه للشيخ سيد المرصفى : « أنا مدين لك بكل شيء فى حياتى اللغوية والأدبية ، ولا يزاحمك فى قلبى إلا إنسان

---

(١) على صفحات كتاب « زكى مبارك بقلم زكى مبارك » إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك . توزيع مدبولى .

(٢) نفس المرجع السابق .

واحد هو فقيد الأدب والبيان محمد المهدى .

بعد الدراسة بدأ زكى مبارك حياته معلمًا ، وظل يعمل فى هذا الحقل حتى وصل إلى منصِب مدرس فى كلية الآداب ، وكان من قبل مدرسا فى مدرسة التوفيق القبطية ورئيسا لقسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية ، ثم أستاذا فى دار المعلمين العالية ببغداد ، وأستاذ اللغة العربية بالمعهد العالى لفن التمثيل ، ومفتشا فى وزارة المعارف على المدارس الأجنبية .

ويقول زكى مبارك على صفحات جريدة البلاغ ، فى الثالث والعشرين من أغسطس سنة ١٩٤٧ إنه قضى عشرين سنة فى التدريس وسبع سنين فى التفتيش ، ولقد كتب هذا يوم فصل من التفتيش ، ولكنه عاَد إليه مرة أخرى وبذلك قضى أكثر من عشر سنوات فى التفتيش ، أما قصة فصله من التفتيش فقد شرحتها فى كتاب زكى مبارك بقلم زكى مبارك ، فلا أعود إليها ثانية .

وأول عمل تولاه زكى مبارك فى الحكومة المصرية كان فى دار الكتب فى أواخر سنة ١٩٢٤ فى شرح كتاب الأغانى للأصفهانى .. ويوم فصل من التفتيش عاد مرة ثانية لدار الكتب سنة ١٩٤٨ ليجد نفسه ما زال يشرح كتاب الأغانى للأصفهانى .

على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٨ / ١١ / ٤٧ يقول زكى مبارك : حين توليت تدريس آداب اللغة العربية بالجامعة المصرية رأيت أنه لا يجوز أن يسقط تلميذ ، لأن سقوط التلميذ شهادة على ضعف الأستاذ .

كنت أعطى الطلبة واجبات من أول العام الدراسى ، ثم أقول لهم : هذا عملكم فى العام كله ، ولكم عليه درجات ولكم أن تختاروا الموضوعات .

ثم تقع مفاجأة عجيبة ، وهى أن يقدم أحد الطلبة بحثا فى نقد كتاب « الموازنة بين الشعراء »(*) . البحث لم يعجبنى لأنه قام على غير أساس .

دعوت الطالب إلى مكتبى وقلت : إن آراءك فى كتاب الموازنة بين الشعراء أغلاط فى أغلاط . فقال الطالب وهو يرتعد : أنت يا دكتور أشرت بأن نتكلم بحرية ، فهل تسقطنى فى الامتحان لأننى أطعتك ؟

فقلت : لا عليك ، إنك كتبت ستين صفحة فى نقد الكتاب ، والرأى عندى أن كتابة عشرة سطور أنفع فى تكوين الذهن من قراءة عشرين كتابا .

إن الكتابة فاعلية ، والقراءة مفعولية ، والفاعل يسبق المفعول .

المهم أن يفهم هذا المعنى جميع قراء البلاغ ... كتابة سطر واحد أنفع من قراءة عشرين سطرا .

قضيت ثلاثين سنة وأنا أكتب بلا تسويد ولا تبييض لأن اللغة العربية لغة آبائى وأجدادى ، والمؤكد أن هذه اللغة لن تموت . إنها جميلة إلى أبعد حدود الجمال . وأنجحت ذلك الطالب فى الامتحان وهو الآن من أكابر المحامين .

(*) كتاب « الموازنة بين الشعراء » تأليف الدكتور زكى مبارك .

وحول أستاذية زكى مبارك فى العراق يقول الأستاذ عبد الرزاق الهلالى فى مقدمة كتابه « زكى مبارك فى العراق » وهو من منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ، يقول عن زكى مبارك حين وصل إلى بغداد للتدريس فى دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، يقول :

بدأنا نحن طلاب دار المعلمين العالية نستمتع بأحاديث أستاذنا الجديد ، ونُؤخذ بطريقته فى التدريس وأسلوبه فى تقديم المادة وإيصال المعلومات إلى أذهاننا ، فإذا نحن أمام طراز جديد من الأساتذة ، شدّنا إليه بشخصيته المحببة ، وروحه المرحة ، وعلمه الغزير ، وأدبه المتدفق ، وتعليقاته النادرة ولطائفه الساحرة » .

وعن طلبة المعلمين العالية ببغداد يقول زكى مبارك : « لقد قدمت إليهم جميع ما أملك من المعارف الأدبية والعلمية والفلسفية ، وسيصيرون بإذن الله من أشرف خدام العراق » .

ولقد جمع زكى مبارك بين العمل فى التعليم والاشتغال بالسياسة والصحافة والأدب ، كتب على صفحات جريدة البلاغ فى ٢٢ / ٥ / ٥١ يقول : « أبتدىء العام الدراسى متوكلا على الله الذى لا يخيب من توكل عليه . ولى عامان دراسيان ، الأول ثابت لا ينقطع وليس لى فيه إجازات ، ولا أعرف فيه الجمع أو الأحاد وهو تحرير الصفحة الأدبية .

هذه الصفحة هى المتنفس لحياتى وأنا أستعذب فى تحريرها عناء النهار وسهر الليل ، وأشعر بسعادة عظيمة حين أرى فكرى وعقلى مصورين فى البلاغ ... وحين أتم المقالة أشعر كأنى رجعت من سفر بعيد .

وهذه المقالات تردنى طالب علم فأنظر فى الكتب العربية والكتب الفرنسية لأستوحى المفكرين من رجال الشرق ورجال الغرب ، ولو خلت حياتى من التحرير فى البلاغ لأصبحت جرداء قفراء .

أما العام الدراسى الجديد فهو عملى فى التفتيش ، والنظام الفرنسى يوجب أن يدخل مدير المدرسة أو وكيلها مع المفتشين وهما لا يفهمان حرفا فى اللغة العربية ، وتكون النتيجة أن أحول الدرس إلى ترجمة . ليفهم المدير أو الوكيل فأجدد العهد الذى قضيته فى تعلم اللغة الفرنسية .

يقول زكى مبارك : كنت أكتب مرتين فى الأسبوع يوم الثلاثاء ويوم الجمعة ، مقالة كانت دائما فى موضوع واحد خاص بالدراسات الأدبية والفلسفية ، أما المقالة الثانية فهى الحديث ذو شجون ، وكانت المقالة الأولى هى المتعبة ، لأنها تستوجب مراجعات كثيرة ، ولأنها توجب أن تكون فى لغة يفهمها قراء جريدة يومية لها جماهير منهم العالم والمتعلم والطالب والأستاذ والمتفلسف والفيلسوف .

أما الحديث ذو شجون فهو أسهل لأنى أقتبسه من ملاحظاتى فى الحياة ، وأنا رجل كثير الملاحظات ، ومع أن ذاكرتى ضعيفة إلى أبعد الحدود فى الأرقام والأعلام ، فهى قوية إلى أبعد حدود القوة فى الحوادث والمعانى ، وذلك شذوذ غريب ولكنه شذوذ جميل .

يقول زكى مبارك فى كتاب « زكى مبارك بقلم زكى مبارك » إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك وتوزيع مدبولى . يقول فى صفحة ١٢٧ تحت عنوان : جواب عن ألف سؤال :

« قال ألوف من الناس إننى كثير التحدث عن نفسى فى مقالاتى ،

والجواب أننى أصور عواطف قرائى حين أتحدث عن نفسى ، فأحوالى وأحوالهم تقترب كل الاقتراب ... وأنا أعيش فى زمن مقلقل ، وهو نفس زمنهم ، والخيرة فيما اختاره الله ، فمن هذه القلقلة يصدر هذا الأدب .

وأنا أصور المجتمع الذى يقوم بناؤه من جانب ويتهدم من جوانب ، وكما أعبر عن نفسى أعبر عن أنفُس قرائى ، فهم يلقون فى حياتهم ما ألقاه من آمال وآلام ، ولو كانوا يكتبون أو ينظمون لقالوا مثل الذى أقول » .

ومن أبحاث ومقالات زكى مبارك نعرف أن التدريس عند زكى مبارك عمل قومى بالدرجة الأولى ، وأن الأبناء هم أمانة فى أعناقنا ؛ إن أولادنا هم رجال المستقبل وبناتنا هن أمهات المستقبل . فمع المفكر التربوى الكبير الأستاذ الدكتور زكى مبارك نعيش الصفحات التالية .

كريمة زكى مبارك

إلى رجال التعليم

يعيش المعلم فى وجدان زكى مبارك ؛ فزكى مبارك قد بدأ حياته معلما ، ويكتب على صفحات جريدة البلاغ العديد من المقالات يوجه فيها الكلام إلى رجال التعليم ويقول إنه يستهدى جريدة البلاغ مقالات يشرح بها صور الحياة فى صدور التلاميذ المصريين ثم يتساءل : هل تبخل جريدة البلاغ بنشر هذه المقالات ؟

ثم يقول زكى مبارك : « سأبيع أملاكى فى سنتريس لأشترى بها الحق فى نشر المقالات الآتية بجريدة البلاغ ، وللحديث شجون وشجون » .

وقبل أن نعيش مع هذه المقالات نقول إن زكى مبارك ظل طوال حياته متعطشا لمتنفس أوسع يقدم فيه آراءه عن مهنة التعليم ، يقول زكى مبارك على صفحات جريدة البلاغ فى الرابع عشر من مارس سنة ١٩٥١ ، يقول تحت عنوان إلى وزير المعارف المصرية :

« إلى أستاذى أقدم تحية الشوق ، ثم أقول إن وزارة المعارف العراقية لها مجلة اسمها (المعلم الجديد) وهى مجلة تنشر أصول المباحث التعليمية ، فما الذى يمنع من أن تكون لنا مجلة كهذه المجلة ؟

أنا أنشر آرائى التعليمية فى البلاغ ، وفيه الكفاية ، ولكن البحث قد يستوجب عدة صفحات ، فلو كانت لنا مجلة لاستطعت نشر ما أريد » .

ويرى زكى مبارك أن الأمم لا تسبق الحكومات إلا حين تكتمل فيها

الحيوية الروحية والعقلية .

وأن بين الكلمة والكلمة صلات لا يدركها إلا من عانى المكاره التى يوجبها ضم كلمة إلى كلمة فى الحدود التى يوجبها روح البيان ، فالكلمة فى المعجم هى سمكة محنطة ، وهى فى الجملة سمكة حية ، وبين موت الكلمة وحياتها برزخ لا يعبره إلا من يملك إنقاذها من الموت ، وهو الأديب الفنان .

ولقد كتب الأستاذ الدكتور زكى مبارك الكثير عن التعليم الجامعى وتحدث عن الفرق بين الجامعى المدرس والجامعى المفكر ، وما صنعت كلية الآداب ودار العلوم والأزهر الشريف فى تخريج الأدباء والعلماء ، وهل أدّت الجامعة رسالتها ؟

كيف نعلم أبناءنا ؟

وما الغرض من التعليم ؟

متاعب ! (*)

هى المتاعب التى يعانيها من يواجه الحقائق بأساليب صريحة بريئة من الرياء ... ومن أعجب العجب أن الناس يطالبون الكاتب بأن يحدثهم عن كل شيء ، مع أنهم لا يسمحون له بشيء من الصدق إذا تحدث عن أشياء تمسهم من قريب أو من بعيد . وهذه الظاهرة من أسباب ضعف الروح البيانية ، ومن أسباب قصور الأدب عن وصف المجتمع الجديث .

إن الأمم المحاربة لم تشغلها الحرب عن التفكير فى شؤون التعليم والتثقيف ، لأن تلك الأمم عهدت إلى كل طائفة من الطوائف جانبًا من جوانب الحياة القومية ، فبقى الجندى جنديًّا ، والتاجر تاجرًا ، إلى آخر ما هنالك من الطوائف ، وصار لزامًا أن يبقى المعلم معلمًا فى حدود ما يملك من القُوى النفسية والروحية والعقلية .

ونحن لم نشترك فى الحرب من جانبها الدموى ــ وإن كان أذاها وصل إلى كثير من مرافقنا الحيوية ــ وهذا الحياد قد استبقى قُوانا وادّخرها

(*) على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٢ / ٤ / ١٩٤٣ .

لإنجاز شؤون التعليم فى مراحله المختلفات ، فمن الواجب أن نبذل جميع الجهود الممكنة فى خلق التعليم خلقًا جديدًا ، بحيث نواجه تقلبات ما بعد الحرب ، ونحن على بينة من مطالب العصر الجديد .

قال معالى الهلالى باشا فى خطبته بحضرة جلالة الملك يوم افتتاح جامعة فاروق الأول : إن هذه الجامعة هى الجامعة الوحيدة التى أنشئت فى العالم كله أيام الحرب .

وهذا صحيح ، ولكن ما السبب فى تفرد مصر بهذه المزية ؟

يرجع السبب إلى أن إعفاءنا من الحرب الدموية لم يدْعُنا إلى إعفاء أنفسنا من حرب الجهل والجمود ، فنحن نقاتل فى ميدان هو أصعب ميادين القتال ، ونحن نواجه مصاعب تزلزل القلوب والعقول ، وهذه محمدة قليلة الأمثال .

أكتب هذا وقد تعتَّب ناسٌ وتغضّبوا لأنهم رأوا فى المقال الأسبق عبارات فى نقد الطرائق المتبعة فى تعليم الإنشاء ... فهل كان يجب أن أقول إن كل شيء على ما يرام ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان ؟

الكاتب يحاسَب على المجاملات ، ولا يطالَب بالمجاملات ، وأول طائفة خليقة باحترام حرية الرأى هى طائفة المدرسين ، لأنهم دعاة الحرية الفكرية ، ولأن واجبهم الأول هو خلق اليقظة العقلية ، فما يجوز لأحدهم أن يعتب أو يغضب إذا رأى كاتبًا يدعوه إلى التفكير فى وزن ما درج عليه من طرائق التعليم ، عساه ينتقل من حال إلى أحوال فى الإفهام والتفهيم والشرح والبيان . (المقال الأسبق ص ١١٨ من هذا الكتاب) .

واجب المدرس أن يصغى لكل قول ، وأن يحترم كل رأى . واجبه أن

يدرك أن كل شيء فى تجدد ، وأن يفهم جيدًا أن للتعليم سياسات تتغير من يوم إلى يوم ، وأن التلميذ الواحد قد يساس فى درس الأدب بغير ما يساس فى درس الإنشاء ، وأن التدريس هو فى الأصل رياضة مختلفة المسالك والألوان .

وإذا ضاق صدر المدرس بما يقرأ أو يسمع من ضروب النقد ، فعند من ننتظر رحابة الصدور ورزانة الأحلام ؟

وتأذَّى فلان من أن يقال إن الإنشاء قد يصعُب على بعض المفتشين ... فما عيب هذا القول وفيه شيء من الحق ؟

وبماذا نجيب إذا سئلنا عن جهود مفتشى اللغة العربية فى خدمة الحياة الأدبية ؟

هل يكفى أن يكون الكاتب كاتبًا بالقوة لا بالفعل ، كما يعبّر علماء المنطق ؟

إن المفتشين رُفعوا إلى مراكزهم باسم التفوق فى علومهم ، فهل نلام إذا دعوناهم إلى زكاة ذلك التفوق ؟

مصر غنية بالثروة العلمية ، فهل نراها غنية بالثروة البيانية ؟

وهل من الحق أن رجال التعليم عندنا أكثروا من الجهاد العلمى والأدبى إكثارًا ليس بعده زيادة لمستزيد ؟

كم كتابًا صدر عن رجال التعليم فى مدى عشر سنين ؟

وما هذا الزهد فى البحث والتأليف ، الزهد الذى يسمح بأن تنتهى حياة الرجل قبل أن يدين أمته بكتاب جيد ؟

إنى أخشى أن يضيع زمام الحياة الأدبية من أيدينا إن تركنا الإبداع فى

الأدب ، واكتفينا بوضع الموجزات فى القواعد والتطبيق ، كما يفعل بعض الزملاء .

صلة المدرس بالحياة :

قبل أن أواجه مشكلات التعليم أفصِّل مسألة شغلتنى منذ أعوام ، وهى مسألة القلق الذى يساور المدرسين من الوجهة المادية ، وهو فى رأيى قلق يبشر بالخير ، ولا ينذر بالشر كما تعوَّد بعض الناس أن يقول .

لو أحصينا مطالب المدرسين لرأيناها فى الجملة متصلة بالمطالب المعاشية ، فهل يكون فى هذه الظاهرة برهان على أننا نواجه عصرًا أفضل من العصور الخوالى ؟.

أنا أقول بذلك ، ولا يؤذينى أن أرى مدرسًا يرجو أن تنصفه وزارة المعارف ليعيش فى رخاء .

ولكن هذا الكلام يحتاج إلى شرح ، فلنقدم الشرح :

كان التعليم من أعمال الكهَّان والأحبار والرهبان ، وحيوات هؤلاء كانت مريحة ، لأن الجمهور كان مسئولاً عن تزويدهم بما يشتهون ، فلم يكونوا فى احتياج إلى مزاولة أعمال المعاش .

يضاف إلى ذلك أن التعاليم التى كان يقدمها أولئك الأقوام إلى الناس كانت ترمى إلى غاية أخروية لا دنيوية ، فكان من المعقول أن يعيشوا عيش الزهاد ليفلحوا فى أداء رسالتهم الروحية .

أما التعليم فى هذه الأيام فله غاية تخالف تلك الغاية ، هو تعليم يراد به فهم الحياة الواقعية ليكون أداة من أدوات التملك والاستيلاء .

نحن نعلم أبناءنا ليسودوا فى دنياهم ، ولا نرضى لأبنائنا أن ينتظروا الثواب من المحسنين ولو كانوا فى سماحة الأنبياء .

نحن نرجو أن تكون يد أبنائنا هى العليا بفضل التعليم الصحيح . نحن نحب لهم أن يتسلحوا بأسلحة العصر الحاضر ، عصر النضال والصيال ، ونكره أن يذلوا باسم الزهد فى الدنيويات .

ومن الذى يوحى إليهم تلك المعانى ؟

أهو المعلم المترهب الذى ينتظر إفضال المفضلين ؟

إن فاقد الشىء لا يعطيه ، والمعلم الذليل لا ينشىء تلاميذ أعزاء .

يجب أن يكون المعلم ابن زمانه بالقول والفعل ، وأخلاق هذا الزمان لا تمنح العزة لمن يعيش بفضل الصدقات .

كانت غاية المعلمين من الرهبان أن يخلقوا طوائف جديدة من الرهبان ، وكان التشرد فى أقبح صوره يجد من يسمه بوسم التوكل على الله ، فأين نحن من تلك الغاية العجفاء ؟ إنها منا بعيد .

وإذن يتحتم أن يكون المعلم رجلاً موصول الأواصر بالمنافع الدنيوية ، ليوجه تلاميذه إلى المنافع الدنيوية .

يتحتم على المعلم أن يدرك ما فى الحياة من تعقد واشتباك ، ليروض تلاميذه على مغالبة ما فى الحياة من تعقد واشتباك .

كان المعلم راهبًا ، وقد بقيت من هذه النزعة بقايا نجدها فى بعض البيئات ، ولكنها لا توائم العصر بأى حال .

يجب أن تُسبق الأبوة الروحية بأبوة حسية ... ومعنى هذا أنى أرى أن المدرس لا يعرف حقوق تلاميذه عليه إلا إن كان له أبناء .

المعلم الحق فى هذا الزمان هو المعلم الذى يعيش كل العيش ، فيكون له مصالح تفرض عليه أن يفهم الاتجاهات المختلفة فى هذا الجيل .

والعيش على هامش الحياة عيشٌ ضائع ، ومن عاش كذلك فليس بأهل لأن يخلق ذوق الحياة فى صدور التلاميذ .

وأين التلميذ الذى يحترم أستاذًا فقير الجيب ؟

الأصل أن تقول لتلميذك : تعلم لتكون فى مثل جاه أستاذك .

والجاه فى هذا الزمان يُجرح بأيسرِ بادرة من بوادر الإفلاس .

والأصل أيضًا أن يكون العلم تاج المنافع ... فإن افتقر العالم فسيكون افتقاره شاهدًا على أن قوة العلم هباء فى هباء .

وهنا مشكلة تستحق الدرس ، وهى تحديد المراد من العلم فما هو العِلم المنشود ؟

هو العلم الذى يمنح صاحبه السيطرة على ناصية هذا الزمان .

هو علم العصر الحديث ، ولو تمثَّل فى فهم أساطير الأولين .

أنا لم أتعود خداع قرائى ، وأنا أوصيهم بما أوصى به نفسى ، فليسمعوا هذا الكلام إن كانوا لأنفسهم أوفياء .

ونحن لا نطالب الدولة بحق الإنصاف ، إلا إن أقمنا مئات البراهين على حقنا فى الإنصاف .

ولن يكون ذلك إلا إذا وثقت بنا الدولة ثقة تغنيها عن تلك الجيوش من المفتشين .

إن احتاج المدرس إلى رقابة المفتش فليس بمدرس .

والأساس أن تكون المدرسة غزوًا روحيًا للبيت ، فيكون الطفل أستاذًا

لأبويه ، لأن له أسندة من روحانية أساتذته الفضلاء .

والأساس أيضًا أن يُخوَّف التلميذ بسلطان المدرسة عليه ، فلا يشكوه أهله حين ينحرف لغير السلطة المدرسية .

ومتى يتيسر ذلك ؟

أيكون غِنى المدرس هو الوسيلة كل الوسيلة إلى السيطرة على التلاميذ ؟

وكيف وفِى آباء التلاميذ من يكون إيراده أضخم من مرتب وزير المعارف ؟

هيبة المدرس ترجع إلى التمكن من العلم الذى يدِّرسه التمكن الفائق الذى يُشعر التلاميذ بأن أستاذهم من أكابر العلماء .

إن استطاع المدرس أن يلقى تلاميذه كل يوم وفى يده كتاب جديد فليفعل ... وإن استطاع المدرس أن يدل تلاميذه على جميع ما يجدّ من الآراء العلمية والأدبية فليفعل .. وإن استطاع أن يرشدهم إلى طيبات الحياة الفنية فليفعل .

المهمُّ هو أن يسيطر على تلاميذه سيطرة روحية تصغر بجانبها سيطرة الجاه والمال .

وإذا وصل إلى هذه الغاية فلن يضيره أن يقال إنه من الفقراء .

وأنا لا أطالب بإنصاف المدرس من الوجهة المادية إلا لأضمن صلاحيته لفهم مطالب الحياة ، لأنى أعتقد أن الرجل المنسحب من ميدان الحياة لا يصلح لشىء ، وأكاد أجزم بأن حب الحياة يزيد فى قوة الأخلاق .

المعلم الذى أنشُده لأبناء هذا الجيل هو رجل مزوَّد بمواهب إيجابية لا سلبية ، هو رجلٌ يسبق زمنه بأزمان ، هو رجلٌ يرجو تلاميذه أن يكون هاديهم إلى صراط الحياة فى معناها المنزه عن الغفلة والجمود .

إن وزارة المعارف أنشأت معهدًا جديدًا هو معهد الدراسات العالية ، وبه أرادت أن تزوّد المدرسين بأزواد علمية وأدبية لم يذوقوها من قبل .

فما مصير هذا العهد ؟

إن بقاءه رهينٌ بأحوال المدرسين ، وقد قيل إنهم فى احتياج إلى مزيد من التثقيف .

وأقول : إن من العيب أن نحوج وزارة المعارف إلى أن تُشغَل بتثقيفنا بعد أن شببنا عن الطوق منذ زمان .

لا يجوز أن نحوج وزارة المعارف إلى شيء من هذا القبيل ، وإنما يجب على كل مدرس أن يكون نائبًا عن وزير المعارف فى أداء الواجبات الوطنية من الوجهة التعليمية .

يجب أن يقترب اليوم الذى يستغنى فيه المدرس عن رقابة المفتش .

ولن يقترب ذلك اليوم إلا حين يوجد التلميذ ، التلميذ الذى يحب أن يتعلم ، التلميذ الذى يقهِر المدرس على أن يستعد للدرس كل الاستعداد .

ومتى يوجد ذلك التلميذ ؟

متى يوجد التلميذ الذى يخلق المدرس ؟

متى يوجد الفتى الذى يعزّ عليه أن تمرّ أيامه بلا انتفاع .

سنرى محاولات لبعث الروح المكنون فى صدر التلميذ ...

***

إلى رجال التعليم

« لقد رجعتم اليوم إلى مدارسكم ... الحمد لله الذى ردكم إليها بعافية ... والله هو المسئول بكرمه وفضله أن يردكم إليها فى الأعوام المقبلات وأنتم فى طمأنينة وأمان(*) .

وأحب أن أقدم إليكم ملاحظات لا تخفى عليكم ، ولكن تصويرها بالقلم يزيدكم إيمانا بها ، ويجعلها من العقائد الرواسخ ، فاسمعوا غير مأمورين .

أنا ألاحظ أنكم فى حالة نفسية مزعجة ، وما مرت بالمعلمين فى مصر حالة مثل هذه الحالة ، فأنتم فى منازلكم وفى مجالسكم تتشاكون بأساليب لا تطاق .

ومن المؤكد أن هذه الحالة تؤثر فى أعمالكم المدرسية تأثيرا سيئا ، وتصدكم عن تأدية واجباتكم تأدية سليمة من الشوائب . وما هو الموجب لهذه الحالة النفسية المزعجة ؟

الموجب هو رغبتكم فى أن تكون منزلة المدرس مثل منزلة القاضى والمهندس والطبيب فى نظر القانون المالى .

هذا ممكن ، ولكن لن يغير شيئا من الواقع ، والواقع ينطق بأن كرامة

(*) جريدة البلاغ فى السادس من أكتوبر سنة ٤٥ .

المدرس ليست فيما يملك من الأموال ، وإنما كرامته الحقيقية فيما يملك من احترام التلاميذ ، وهو لن يظفر باحترام تلاميذه إلا إذا رأوا أنه فى علمه متفوق كل التفوق .

يجب أن نعترف بالحق ، والحق أن مهنة التدريس مهنة بلا مجد دنيوى ، فوكيل النيابة مثلا هو فى نظر الجمهور أعلى مرتبة من أساتذته فى كلية الحقوق ، لأنه يملك من الأمر والنهى ما لا يملكون . وناظر المدرسة الفلانية ثار عليه تلامذته فاستنجد بضباط البوليس ، فخشع الطلبة وخافوا حين رأوا الضابط فى حلته العسكرية ، مع الفرق البعيد فى المرتب بين ناظر مدرسة ثانوية وضابط بوليس .

لكل منا عمله ، فناظر المدرسة يهذب ، وضابط البوليس يؤدب ، وما يجوز لناظر مدرسة أن يقول إنه أعظم من ضابط بوليس بحجة الفرق فى المرتب .

وأنتم ترون أن رئيس الوزراء مثلا يسير بالقرب منه جندى يحرسه من الاعتداء ، ومرتب الجندى فى أحسن أحواله لا يزيد على عشرة جنيهات ، فهل يكون الجندى فى نظر الحقيقة أصغر من رئيس الوزراء ؟

إن الخادم ليس أصغر من سيده ، فالسيد العظيم لا يستطيع تأدية ما يؤديه الخادم الصغير ، وإنما العظمة فى أن يقف كل إنسان عند حده ، فيكون الوزير وزيرا والخادم خادما ، بشرط أن يؤدى كل شخص عمله بأمانة وإخلاص .

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أقول إن مهنة التعليم مهنة تضحية وليست مهنة « فخفخة » فإن

ارتضيتموها لأنفسكم فادفعوا الثمن ، وهو التشرف بالحرمان .

ما أشد أسفى عليكم ياحضرات المدرسين !!

فى كل يوم أقرأ فى الجرائد أنكم تطالبون بدرجات وعلاوات وترقيات ، إن مضيتم فى هذا الطريق فلن تفلحوا أبدا ، ستكونون أغنياء بالجيوب لا بالقلوب ، ولن تجدوا تلميذا يتقرب إلى الله بتقبيل يد أستاذه كما كنا نصنع فى الأيام الخوالى .

كان التلميذ يجذب يد أستاذه برفق ليقبلها فيكون جواب الأستاذ : الله يفتح عليك .

فينشرح صدر التلميذ ، ويعود إلى أهله وهو فرحان جذلان ، لأن أستاذه دعا له بالفتوح ، فكيف يخاف من عاديات الأيام والليالى ؟

أنا أنذركم بالخطر يا زملائى ، ومن أنذر فقد أعذر كما قال القدماء .

أنا أكتب بلغة صريحة فاسمعوا كلامى :

إن مهنة التعليم وهى أشرف مهنة ستضيع من أيدينا إذا بقينا على هذه الحالة المزعجة .

ويعز علىّ أن أسجل أن الحكومة أعقل منا ، إن الحكومة ترى أن الموظف الذى يقل مرتبه عن ثلاثين جنيها لا يحق له أن يركب القطار بالدرجة الأولى فى مهمة رسمية ، إلا إن كان من وكلاء النيابة أو رجال الجيش .

ما معنى ذلك ؟

معناه أن المفتشين بوزارة المعارف لا يحتاجون إلى هيبة ، وأن عملهم هو فى ذاته أقوى صور الهيبة ، لأنهم من رجال التعليم .

إن الحكومة أعقل منا ، فمعنى ذلك أننا انحدرنا إلى أسفل درجات الانحطاط .

نحن نعانى أزمة أخلاقية يا زملائى ، فلنبدأ بأنفسنا ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فأين نحن ؟ وأين الطريق ؟

يجب أن ننتصر على أنفسنا قبل أن ننتصر على الحكومة ، فأنا أستطيع بعشر مقالات أحارب بها خصوم الحكومة أن أصير من كبار الأغنياء .

ولكن أستاذى الشيخ يوسف الدجوى علمنى أن المجد كالرزق فيه حرام وحلال .

* * *

صدر حديثا

كتاب : رجال من مكة المكرمة
العاصمة المقدسة

كتاب : العطار : عميد الأدب
عن دار الفنون للطباعة والنشر ــ جدة الشرقية ص ب ٧٤٣٢

كتاب : لا ... تقرأوا هذا الكتاب تأليف : الأديب والكاتب الصحفى السعودى الأستاذ زهير محمد جميل كتبى .

الهدف الأدبى(*)

[فى الاحتفال الذى أقيم بدار الجمعية الجغرافية لافتتاح الموسم الثقافى لخريجى الجامعة المصرية ألقيت ثلاث خطب فى تحديد أهداف الموسم : خطبة الدكتور منصور بك فهمى فى الهدف الروحى ، وخطبة الدكتور حسن إبراهيم فى الهدف الاجتماعى ، وخطبة الدكتور زكى مبارك فى الهدف الأدبى . وحال مرض الدكتور عبد الوهاب عزام دون خطبته فى الهدف العلمى] .

* * *

هذه فاتحة الموسم الثقافى لخريجى الجامعة المصرية ، والجامعة أول مظهر من إرادة الأمة فى العصر الحديث ، فقد أنشأتها الأمة قبل أن تفكر فيها الحكومة ، والأمم لا تسبق الحكومات إلا حين تكتمل فيها الحيوية الروحية والعقلية . وقد كان من أثر ذلك أن صارت الجامعة منذ إنشائها إلى اليوم مثابةً لحرية الفكر والرأى . ولعلكم تذكرون أنها لم تقبل الانضمام إلى الحكومة إلا بعد إعلان الاستقلال ، وبعد أن صارت الفكرة القومية هى التى توجه مذاهب التعليم والتثقيف إلى خير البلاد .

كان الموسم الثقافى لخريجى الجامعة حُلمًا يعتاد خاطرى من حين إلى حين ، وكان الرأى عندى أن ينهض به الخرّيجون المستقلون ، وأعنى بهم من لا يتصلون بالجامعة عن طريق التدريس ، لأن الجامعة أعدت هؤلاء لتثقيف الطلبة ، وأعفتهم من تثقيف الجماهير ، ولبثّ الثقافة الجامعية

(*) مجلة الرسالة العدد ٤٨٩ بتاريخ ١٦ / ١١ / ٤٢ .

خارج أروقة الكليات أساليب يجيدها الجامعيون المستقلون بأقوى مما يجيدها الجامعيون الرسميون ... وهل ننسى أن للتدريس قيودًا تحصر المدرس فى آفاق لا تتسع فى كل وقت لدرس ما يتصل بالمجتمع من مُعضلات لا يلتفت إليها الطلبة إلا بعد أن تكتوى أيديهم بنيران المجتمع ؟

إن الجامعي المدرس يكون فى أحسن أحواله يوم يصبح على رأى الفراء حين قال : سأموت وفى نفسى شيءٌ من حَتَّى !

ومعنى ذلك أن أفضل حياة للجامعى المدرس هى الحياة التى تفرض عليه أن يكون إمامًا فى تشريح الجزئيات ، عساه يصل بتلاميذه إلى تصور الكليات ، فى تواضع محبوب ينسيه وجوده الذاتى ، ويحبب إليه الرضا بحظ الجندى المجهول فى تثقيف العقول .

الجامعيُّ المدرس لا يعاب عليه أن يجهل المجتمع الذى يعيش فيه ، ما دام يعرف الدقائق من العلم الذى انقطع إليه ، وقد رأيت من أساتذة السوربون من يجهلون زمانهم بعض الجهل ، أو كل الجهل ، لأنهم تخصصوا فى دراسات سبقتْ زمانهم بأجيال[1] .

أما الجامعىّ المفكر فله أسلوب غير هذا الأسلوب . الجامعى المفكر يتخذ من الدراسات الجامعية موازين يزن بها ما فى المجتمع من أحلام وأوهام ، وحقائق وأباطيل . الجامعى المفكر يرى جميع العلوم وسائل لا غايات ، فالغاية الصحيحة عند الجامعى المفكر هى أن ينقل المجتمع من حال إلى أحوال فى مذاهب الفكر

---

(١) من أغرب ما رأيت أن المستشرق كازانوفا كان خالى الذهن من آثار « تين » فى النقد الأدبى .

والمعاش . الغاية عنده هى الإبداع لا التحصيل ، الغاية عنده أن تكون آراؤه موضوعات الدرس فى الجامعات ، لا أن يكون شارحًا لآراء الناس . ومن أجل هذا اختلف المحصول الذى يَصدُر عن الجامعى المفكر والمحصول الذى يصدر عن الجامعى المدرس ، فالأول يُبدع والثانى يشرح ، وهما فى منزلة سواء فى نظر العدل ، لأن الغرض الأصيل هو خدمة الحق بأى أسلوب وفى أى موضوع .

ومن آفات الحياة فى مصر أن يتوهم أهلها أن الفكرة الجامعية لا تتمثل إلا فى الجامعى المدرس ، وكان ذلك لأن مصر طال عهدها باحترام الوظيفة الرسمية ، فلم تعد تدرك أى قيمة للوظيفة الروحية .

وقد انساق الجامعيون فى هذا المساق ، فلم نسمع أن فيهم من يحمل راية الجامعة ، وهو غير مدرس بالجامعة ، فكانت النتيجة أن يُحبَس صوت الجامعة فى حدائق الأورمان ، وأن تشعر الحواضر والأقاليم بأن الجامعة صورة من صنع الخيال .

والحق أن الجامعة أرادت لأبنائها ما لم يريدوا لأنفسهم ، هى أرادت أن يكونوا مفكرين ، وهم أرادوا أن يكونوا موظفين ، وبين الإرادتين فرق بعيد .

ومن أجل هذه الأسباب ضاعت محاولاتى فى خلق الموسم الثقافى لخريجى الجامعة المصرية ، وهو موسمٌ دعوت إليه منذ أعوام و لم أجد من يستجيب ، إلى أن لاحتْ فرصة لا يجود بها الزمان ، إلا فى أندر الأحيان .

فما تلك الفرصة الذهبية ؟

رأيت جماعة من خريجى الجامعة يتشكون على صفحات الجرائد من

قلة الرواتب ، فأسرعت إلى نهيهم عن هذا التشكى ، وأفهمتهم أن للجامعة رسالة غير رسالة القوت ، وأن مبدأنا أن نجوع لتشبع الأمة ، وأن نتعب لتستريح ... وهل تعرفنا الجامعة إن صرنا طلاَّب أموال ، لا عشاق آمال ؟

وسمع خريجو الجامعة صوتًا لم يسمعوه من قبل ، فدعونى لأشرح لهم رأيى ، فقلت : إنى لا أثق إلا بمن يحلفون على المصحف . فقالوا : إن اليمين لا تُطلب إلا من المرتابين ، وسترى كيف نصدُق بدون يمين .

كان ذلك فى يوم جمعة من شهر رمضان ، فهل تكون الأقدار أرادت أن توقظ المعانى الروحية فى أنفس الجامعيين ، بلمحة كريمة من لمحات شهر الصيام عن الآثام .

أؤكد لكم أنى لم أكن أنتظر أن يتقبَّل أولئك الشبان هذا الصوت بمثل ذلك القبول ، فقد ابتلتهم الأيام بعصر منحرف عن المعانى . وهل فينا من ينكر أن الموظف الذى يزيد مرتبه على زميله خمسة قروش يعتقد أنه أرقى من ذلك الزميل ؟

البحث عن الدرجات المالية ليس من عيوب الفكرة الجامعية ، ولكنه من عيوب الحياة الديوانية . وسيذكر أبناء الجامعة واجبهم ، سيذكرون أن إنشاء الجامعة كان فى الأصل غضبة على سياسة التعليم للتوظيف ، وصاحب الوظيف وصيف ، كما يقول أهل تونس الخضراء .

ما الذى يوجب أن يبحث الشاب المتخرج فى كلية التجارة أو كلية الزراعة عن وظيفة كتابية ؟

إن هذه الظاهرة تشهد بأن بعض الكليات تعجز عن رياضة أبنائها على

الإيمان بما تخصصوا فيه ، إيمانًا يجعلهم أقطابًا فيما تخصصوا فيه ، ويفرض عليهم أن يعينوا الدولة على تحقيق ما تريد من كرائم الأغراض .

إنى أتمنى أن يقترب اليوم الذى تَفرض فيه الدولة على خريجى الجامعة ضرائب فكرية ، اليوم الذى يُقال فيه إن خريجى الجامعة يملكون ثروات لا يملكها أصحاب الملايين ، وإن من الواجب أن تفرض عليهم الضرائب ، لتستطيع الدولة أن تقيم أوَد المنكوبين بالزهد فى كرائم المعانى .

يجب أن يكون من أغراض الجامعيين أن يُطَمْئنوا الدولة على أن أملها فيهم لم يضع ولن يضيع .

إن هذا اليوم قريبٌ قريب ، وسنخلقُه خلقًا إن تأبَّى وامتنع ، وسيعلم الذين آمنوا بجهادنا فمنحونا ألقاب الجامعة أن إيمانهم كان الإيمان ، وأنهم سلَّموا راية الجامعة إلى جنود هم الرجال .

لقد استُضعِفنا حينًا أو أحايين ، والله قد يمُنّ على الذين استضعفوا فيجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

ولكن الله على كرمه لا يجود إلا بميزان ، ليعلّم عباده معنى النظام ومعنى العدل ، فإن جاز فى وهمنا أن الألقاب الجامعية تُغنى عن الجهاد الموصول فى سبيل المجد ، فقد ضَللنا سواء السبيل .

هل تفهمون معنى كلمة « ليسانس » وهى أول درجة من الدرجات الجامعية ؟

الليسانس كلمة فرنسية معناها الحرية ، وحرية الجسم لا تتم إلا بسلامة جميع الأعضاء ، وكذلك حرية العقل وحرية الروح ،

فلا حرية لعقل تعوزه المواهب ، ولا حرية لروح يعوزه الصفاء .

وأشرح كلمة الليسانس مرة ثانية فأقول :

الغرض من هذه الكلمة هو إعطاء الطالب راية الحرية ، الحرية من جميع ما قرأ وما سمع ، ليكون من المبدعين .

فأين حَمَلة الليسانس من هذا الغرض ؟.

إن أعفتهم الدولة من تحقيق هذا الغرض فلن يعفيهم الوطن ، ولن يرحمهم الله الذى علم آدم فى الفردوس ليكون رسوله إلى ممالك الأرض .

إن للجامعة المصرية رسالة ندور حولها من وقت إلى وقت ، وإن كان لها فى أنفسنا صورة لا يتمثلها أبرع فنان ، ولو استوحى نجوم السماء .

وتلك الصورة هى سبب شقائى ، وأنا الجامعىُّ المخضرَم الذى ظفر بألقاب الجامعة القديمة والجامعة الجديدة ، فماذا صنعتُ فى دنياى ؟.

إن قصائدى ومؤلفاتى ومقالاتى لا توحى إلى نفسى شيئًا من الازدهاء ، لأنى أفهم جيدًا أن للنبوغ والعبقرية غاية إنسانية لا غاية محلية ، فأنا لا أقنع بأن يكون الجامعىّ هو المصرى الأول ، وإنما أسمو إلى أن يكون الإنسان الأول ، فاستعدوا للنضال فى ميدان تكونون فيه أوائل الأبطال .

لا قيمة للأرقام فى حياة الوجود ، ولن يكون من أسباب ازدهاء الجامعيين أنهم بلغوا بضع ألوف ، فالشمس واحدة والقمر واحد ، وهما عندنا أنفع من النجوم التى تفوق الإحصاء .

وأنا من أجل هذا المعنى لا أقيم وزنًا للتضامن الجامعى ، لأن التضامن سناد الضعفاء . أعاذنى الله وأعاذكم من وباء الضعف . وهل تتجمّع فى

الأرض أمةٌ كما تتجمع أمة النمْل ؟.

الجامعيّ الحق هو الذى يسير فى كل أرض وفى عقله فكرة الجامعة ، كما يسير المسلم فى كل أرض وفى روحه هَدْىُ المصحف .

كونوا آحادًا ، ولا تكونوا جماعات ، فالوحدانية هى العقيدة التى ارتفع بها الشرق ، وبها ارتفع الغرب ، إن كنتم تذكرون طلائع النهضات فى التاريخ .

إن الأدب الإسلامى أوصاكم بالتخلق بأخلاق الله ، وأعظم صفات الله هى صفة الوحدانية . ولن يكون للتضامن قيمة إلا إن كان أرقامًا صحاحًا تضاف إلى أرقام صحاح ، وأعيذكم أن تكونوا أصفارًا تزيد قيمة الرقم الصحيح .

الصفر وحدَه عَدَم ، ثم تكون له قيمة إن تضامن مع الرقم الموجود ، فماذا تريدون بأنفسكم ، يا أبناء الجامعة فى هذا الجيل ؟

أنا أحب لكم ما أحبُّ لنفسى ، وأنا أكره أن يكون لأىّ مخلوق علىَّ سلطان ، فتحرروا من بوارق الدنيا كما تحررتُ ، ليُسبغِ الله عليكم نعمة الأدب الرفيع .

لا تنشروا بعد اليوم على صفحات الجرائد شكايتكم من قلة الرواتب ، فإن سطرًا تكتبونه صادقين هو الرزق النبيل . وذكاة المرء محسوبٌ عليه ، كما قال الأسلاف .

العقيدة الأدبية والعلمية هى الأبوّة الكريمة للرجل الحصيف ، فلا تعرّضوا مواهبكم لليُتْم الدميم ... وفى الناس أيتامٌ آباؤهم أحياء !.

يجب أن يكون للجامعة فى كل ميدان جنود . يجب أن يكون [illegible]

فى جميع المعضلات الأدبية والفلسفية والتشريعية والهندسية والطبية والعلمية .

ويجب أن يكون الجوع أشرف قوت يقتات به الجامعيون الأصلاء .

أترونني أسرف فى الأمانى ؟.

إن قلتم هذا القول فإنى أجيب بأنْ ليس فى الخير إسراف .

لقد كانت بلادنا أول مشرق للعلوم والآداب والفنون ، وكانت وثباتها العلمية والأدبية والفنية موكولة إلى رجال لا يقيمون وزناً للأقوات ، فكيف نيأس وتأَخُّرُنا المادىُّ هو الشاهد على صدق بنوّتنا لأولئك الآباء ؟.

أما بعد فماذا أريد أن أقول ؟.

لم أقل شيئاً ، لأنى قلت أشياء ، وبعضُ الإيجاز أبلغ من الإطناب .

الهدف الأدبى لهذا الموسم هو أن نخلق للقاهرة شواغل جدية ، بعد أن طال عهدها باستصغار قيمة الوقت ، وبعد أن كان غذاؤها لا يزيد عن اجترار القيل والقال .

الهدف الأدبى لهذا الموسم هو أن نُنطق بعض الكليات التى لا تنطق !.

الهدف الأدبى لهذا الموسم أن ننقل القاهريين من الاختصام فى التوافه ، إلى الاختصام فى الحقائق .

باسم الله نفتتح هذا الموسم ، ولن يتخّلى الله عن بناء كان اسمُه أول ما سطر على حجر الأساس « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

زكى مبارك

الثالوث الجامعى ![*]

هذا العنوان من ابتداع الأديب حسين فهمى صادق ، وقد نَصّ فى خطابه على أنه يَعنى به الأزهر وجامعتى فؤاد وفاروق ، وهو يسأل عن جوهر الحياة العلمية والأدبية فى هذه الجامعات الثلاث ، ويطلب أن « تُظهِر شيئًا يعلن عن نفسه على رءوس الأشهاد » .

ومن قبل هذا الخطاب قرأت فى مجلة الصباح مقالاً يسألنى فيه الأستاذ عبد الحليم عبد البر عما صنع الأزهر وما صنعت دار العلوم فى تخريج الأدباء ، وكان من رأيه أن دار العلوم لم تخرج فى ستين سنة ستين أديبًا وأن الأزهر لم يخرج فى ألف سنة ألف أديب (؟!) .

وأقول إن الفكرة الجامعية لم تُشرح فى مصر على الوجه الصحيح ، ففى مصر أقوامٌ يتوهمون أن محصول الجامعة هو محصول مدرسيها فى النواحى العلمية والأدبية ، وهذا خطأ ، لأن أساتذة الجامعات لهم صفةٌ غير صفة التأليف ، هم يوجّهون ولا يُبدعون ، إلا أن يكون فيهم رجالٌ مفطورون على الإبداع .

الأستاذ فى الجامعة لا يطالَب بالمساهمة العلنية فى نشر الثقافة العلمية والأدبية ، وإنما يُسأل عن الصدق فى توجيه الطلاب إلى فهم دقائق العلم الذى تخصص فيه ، ومن حقه أن يتّسم بالخمول على أنه تشريف ، ومن واجب الدولة أن تثيبه عليه ، حين يصح عندها أنه خمول لا خمود .

(*) مجلة الرسالة العدد ٤٩٨ فى ١٨ / ١ / ٤٣ .

الأستاذ فى الجامعة مسئول عن رعاية الأستاذية ، والأستاذية نشأت فى جوّ الرهبانية ، فما يجوز له ما يجوز لسائر الرجال من مسايرة المجتمع فى جميع الأحوال ، إلا أن يكون فيلسوفًا يأخذ مادته الفلسفية من درس الأحلام والأهواء والأضاليل ، وهذا نموذج لا يوجد فى كل يوم ، وإنما تُبدعه الأقدار من حين إلى أحايين .

لأساتذة الجامعة واجبات نرجو أن يعرفها تلاميذهم على النحو الذى نريد ، وتلك الواجبات ترجع فى جملتها إلى خصيصة أساسية ، هى الفناء المطلق فى الدرس والبحث والتنقيب ، ولو انتهى الأمر إلى أن يعيشوا مجهولين .

فإن لم يكن بدٌّ من أن تتعرف الجامعة إلى الجمهور فذلك واجب الخِرِّيجين ، لا واجب المدرسين . وإليكم الشواهد الآتية :

١ — نشاط كلية الحقوق لا يتمثل فى دار تلك الكلية ، وإنما يتمثل فيمن أخرجت من القضاة والمحامين ، وهؤلاء هم البرهان على قوتها الذاتية .

٢ — نشاط كلية الآداب لا يتمثل فى دار تلك الكلية ، وإنما يتمثل فيمن أخرجت من المؤلفين والمترجمين والمدرسين والمفكرين ، وهؤلاء هم البرهان على قوتها الذاتية .

٣ — نشاط كلية الهندسة لا يتمثل فى دار تلك الكلية ، وإنما يتمثل فيمن أخرجت من كبار المهندسين ، وإليهم يرجع الفضل فى شؤون تفوق الإحصاء .

٤ — نشاط كلية الطب لا يتمثل فى دار تلك الكلية ، وإنما يتمثل فيمن

أخرجت من أطباء لهم مركز ممتاز فى مصر والشرق .

٥ — نشاط كلية الزراعة لا يتمثل فى دار تلك الكلية ، وإنما يتمثل فى خريجيها النوابغ ، وقد أدوا خدمات جديرة بالثناء .

٦ — نشاط الأزهر لا يمثله أساتذة الأزهر ، وإنما تمثله تلك الجيوش التى أخرجها الأزهر من وعّاظ وأساتذة وقضاة وباحثين .

٧ — نشاط دار العلوم لا يمثله أساتذة دار العلوم ، وإنما يمثله المدرسون الذين أنجبتهم دار العلوم ، ولهم فى كل بلدة مصرية صوت .

وعلى هذا يُقاس ، فالأساتذة يوجّهون ولا يُبدعون ، وأنا أرى أن المعاهد المصرية أدّت واجبها خير الأداء ، فهى جديرة بالتبجيل .

* * *

هذا هو الرأى فى تقدير الذاتية الجامعية من ناحية الصلة الخارجية ، ولكنى مع ذلك أرى من الواجب أن أرجع إلى هذا الرأى بشىء من التعديل فأقول :

يبدو لى أن ابتعاد الأساتذة عن المشاركة فى الجانب العلنى من الحياة العلمية والأدبية يعرّضهم لخطرين ، فهو أولاً يهوّن أقدارهم فى أنفس الطلاب ، وهو ثانيًا يضيع عليهم فوائد كثيرة ، فوائد تخلقها مواجهة المجتمع فى موجاته النفسانية والروحانية .

والذى يعرف شيئًا من أحوال الشبان يلاحظ أن استفادتهم مما يقرأون تفوق استفادتهم مما يسمعون ، فهم تلاميذ للكتاب والمؤلفين قبل أن يكونوا تلاميذ لأساتذة الكليات . وهذه الظاهرة لا تحتاج إلى توضيح .

وإذن يجب على أساتذة الجامعة أن يخلقوا لأنفسهم جوًّا خارجيًّا يساعد على تجديد الهواء فى جو الكليات ، ويشعر الطلبة بأن لأساتذتهم قدرة على فهم ما فى المجتمع من آلام وآمال ، ويبدد الشبهة التى تزعم أن الأساتذة يعيشون فى زمانهم غرباء .

والحق أن الأدب الذى يقف عند درس الكتب وتحقيق الأسانيد هو « أدب الجماجم » لا أدب الأرواح .

والنصوص القديمة لا تفهم جيدًا إلا إذا عولجت بالروح الجديد ، وقد كان أستاذنا « برونو » يوصينا بأن نتسمّع لما يدور من المحاورات فى قهوات باريس ، عسانا نستفيد شيئًا من المرونة التى يبدعها الحوار الخالى من شوائب التكلف والافتعال .

والحق أيضًا أن الرهبانية التى حاصرت حياة الأستاذية لم يبق لها فى هذا العصر مكان ، فهى تزمتٌ موروث عن عصور الرياء ، وهى الثوب الذى يدارى الهزال عند بعض المهازيل .

هل تعرفون السبب فى ضعف الفكرة التشريعية عند مدرسى القوانين فى هذا الجيل ؟

يرجع السبب إلى أن أكثر أولئك المدرسين لم تكتو أيديهم بنيران المعاملات ، فلم يعرفوا احتياج التشريع إلى التجديد الموصول .

وسيأتى يومٌ نعرف فيه أن تدريس القوانين يجب أن يوكل إلى قدماء المحامين ، لأن صلتهم بما فى المجتمع من متاعب ومصاعب تبصّرهم بما يعتور الفكرة التشريعية من عقابيل .

وما يقال فى أساتذة الحقوق يقال فى أساتذة الآداب ، فأستاذ الأدب

يجب أن يكون أديبًا بالقول والفعل ، أديبًا مبدعًا لا أديبًا مدرسًا ، أديبًا من رجال الصناعتين : صناعة الشعر وصناعة الكتابة .

بين الكلمة والكلمة صلات لا يدركها إلا من عانى المكاره التى يوجبها ضم كلمة إلى كلمة فى الحدود التى يوجبها روح البيان .

الكلمة فى المعجم غير الكلمة فى الجملة ؛ هى فى المعجم سمكة محنَّطة ، وهى فى الجملة سمكة حية ، وبين موت الكلمة وحياتها برزخٌ لَا يَعبُره إلا من يملك إنقاذها من الموت ، وهو الأديب الفنّان .

ومن مقاتل الأستاذية فى الأدب لهذا العهد أن بعض الأساتذة لا يلتفتون إلى الوشائج الأصيلة بين الأدب وسائر العلوم والفنون ، مع أن أسلافنا نصوا على هذه الوشائج منذ أجيال وأجيال .

كل ما فى الوجود مواد أساسية لعقل الأديب ، وروح الأديب هو مسئول عن فهم جميع الحقائق بقدر ما يستطيع ، وفى حدود ما يطيق .

فهل ترون أستاذ الأدب يقل فى المسئولية عن الأديب ؟.

آفة الأستاذية فى هذا العصر أنها صارت وظيفة ، وجوّ الوظائف عجيبٌ غريب . ألم تسمعوا أن رجالاً تركوا كراسيّهم فى الجامعة ليظفروا بوظائف ضخمة الرواتب ؟.

الغرض من هذا الكلام هو توجيه أساتذة الأدب إلى فهم واجباتهم الحقيقية ، وأنا أحذِّرهم عواقب ما اطمأنوا إليه من الرضا بزخرف الحياة الجامعية ، فزمام التوجيه الأدبى كاد يضيع من أيديهم ، إن لم يكن ضاع .

كان فى مصر قتال بين الأفندية والمشايخ ، وكان المفهوم أن الأفندية رجال الدنيا وأن المشايخ رجال الدين ثم دار الزمن دورته فأصبح كتاب

المباحث الإسلامية رجالاً مطربشين ، أشهرهم فريد وجدى ومحمد هيكل وعباس العقاد .

وإن طال سبات رجال الأدب من أهل « الثالوث الجامعى » فستكون لهم مصاير لا يعلمها غير علام الغيوب .

أذهان الطلاب فى الجامعات الثلاث محتلة بأفكار وآراء لم تصدر عن تلك الجامعات ، فمن يمنّ على هؤلاء الطلاب بنعمة الاستقلال ؟.

من يدرى ؟.

لعل الخيرة فيما اختاره الله ! ولعل الله أراد أن تكون وظيفة الأدب وظيفة روحية لا رسمية ! ولعل الله أراد لطلبة الجامعات خيرًا مما نريد ، فأباحهم ما فى الحدائق الخصوصية والعمومية من أزهار وثمرات .

من يدرى ؟ من يدرى ؟.

الهواء الطلق هو الأصل ، وهل تنفَّس سقراط وأفلاطون فى كلية لها جدران وأبواب ؟.

الحرية الروحية والعقلية هى أساس العبقرية ، ولا حياة لأدب لا يتمتع بحرية العقل والروح .

لم تقبل جامعة باريس أن يكون جوستاف لوبون أستاذًا للفلسفة بالسوربون ، لأنه دكتور فى الطب لا فى الآداب ، فهل أنصفت جامعة باريس ؟

وهل كان أستاذنا فلان الذى أضحكنى مضغُه للألفاظ اليونانية الميتة أعرف بدقائق الفلسفة من جوستاف لوبون ؟

كان أستاذنا ذاك مقبول الرأى فى أكثر ما يقول ، إلا حين يمضغ

الألفاظ اليونانية ، وعند الدكتور مصطفى زيور نوادر لذلك الأستاذ الجليل !.

كنا ندخل عليه فيهولنا أن نراه يترجم ويبرجم بأسلوب فظيع ، وهو يعرف أن اليونانية القديمة لن تبعث أبدًا ، وهل بعثها اليونان حتى يبعثها الفرنسيس ؟

الآن فهمت كيف احتلت برلين باريس ؟

كان ألأساتذة الذين يراجعون رسالتى المقدمة إلى السوربون يكرهون أن يقع فيها بيت من الشعر ، لأن موضوعها هو النثر الفنى .

وشكوت هذا التحكم إلى المسيو ديبويه فقال : إن جامعة باريس محتلة بالفكر الألمانى منذ انتصار الألمان فى حرب السبعين ، والألمان غاية فى التدقيق والاستقصاء .

ثم ماذا ؟

ثم عرفت بعد لأى أن الألمان خدعوا الفرنسيس بزخرف الوسوسة البحثية ، ليصرفوهم عن التفكير فى إعداد وسائل الموت لمن يعادون .

كانت فرنسا بعد انتصارها فى الحرب الماضية تتوهم أن غاية المجد أن يكون لها معهد مثل السوربون ، وكانت تصرّح بأن الشهادات التى تعطيها الجامعات الألمانية شهادات تجارية ، وأنها بذلك تتودد إلى الأغنياء من الطلبة الغرباء .

وكان الأمر كذلك بالفعل ، وكانت النتيجة أن لا تقيم الحكومة المصرية وزنًا للشهادات الألمانية ، لأنها شهادات مبذولة بلا تعب ولا عناء ، كالشهادات التى تعطيها أمة الطليان .

ثم ظهر أن لألمانيا سريرة غير سريرة السوربون ، وهى النية المستورة لأكابر الفلاسفة من الألمان .

وهنا أشهد أنى قرأت بالفرنسية نحو خمسين كتابًا تصور انحلال الألمان من الناحية المعنوية بسبب طغيان الشهوة الجنسية .

فهل التفت الألمان إلى هذا الاتهام الخسيس ؟

مضوا يعملون فى السراديب الخفية ليلقوا خصومهم بعد حين أو أحايين .

أما بعد فالأدب عندى هو أن تسبق زمانك ، وأن تقتل خصومك . الأدب عندي أن تكون قوة تزلزل الزمان ، ولا تقنع بشهادة التاريخ .

لأساتذة الجامعات شواغل من العلاوات والترقيات والدرجات ، فدعهم فى غيهم يعمهون ، واجعل همك الأول والأخير أن ترفع راية القلم البليغ .

* * *

هل أدت الجامعة رسالتها ؟(*)

أخى الأستاذ الزيات .

فى عصرية السبت الماضى أقيمت مناظرة فى كلية الآداب ، أريد بها تحديد المدى الذى وصلت إليه الجامعة فى تأدية رسالتها العلمية والأدبية والاجتماعية ، واشترك فى المناظرة طالب وطالبة ، واثنان من الخريجين ، واثنان من المدرسين ، وقد دامت المناظرة نحو ثلاث ساعات ، وحضرها جماهير من بيئات مختلفات ، ولم يقع فيها ما يسوء برغم العنف الذى ثار تصريحًا أو تلميحًا بين المؤيدين والمعارضين . ومع أنى كنت أؤيد الرأى فقد راعتنى الحجج التى قدمها من عارضونى لأن أحدهم وهو الأستاذ حسين دياب حضر ومعه عددان من مجلة « الرسالة » فيهما كلمات تشهد بأنى قلت مرتين بأن الجامعة لم تؤد رسالتها على الوجه المنشود .

كانت كلمتى مكتوبة ، ولكنى اختصرتها لضيق الوقت ، فتجمع الحاضرون حولى عند الانصراف ، ورجونى أن أنشرها فى « الرسالة » كاملة ليقرأوا ما فاتهم أن يسمعوه ، فأنا أقدمها إلى « الرسالة » تحقيقًا لذلك الرجاء النبيل .

وتكميلاً للغرض أسوق الملاحظات الآتية :

١ ــ أجمع المعارضون أن الصلة بين الجامعة وخريجيها منقطعة تمام الانقطاع ، وأن الجامعة لا تعرف غير من تراهم من الطلبة والمدرسين .

(*) مجلة الرسالة العدد ٥٠١ بتاريخ ٧ / ٢ / ٤٣ .

ولو كانت الجامعة أدت رسالتها لكان من الواجب أن تهيئ لأبنائها القدماء فرصة التلاقى فى رحابها فى كل عام مرة أو مرتين .

٢ — كان اللحن الفظيع يغلب على بعض المعارضين ، وكان الجمهور يقابل اللحن بالضجيج ، وقد اعتذر أحد المعارضين بأن لحنه من الشواهد على أن الجامعة لم تؤد رسالتها ، فكان ألطف اعتذار فى التاريخ الحديث !.

٣ — وردت فى خطبتى كلمة موجهة إلى العميد ، فأسرع بعض المدرسين ليسر فى أذنى كلامًا يرجونى فيه ألا أحرج العميد وكان الظن أن يدركوا أن العميد أقوى مما يظنون ؟.

٤ — كان اثنان من المدرسين المشتركين فى المناظرة يقلدان الدكتور طه حسين فى التعابير وفى مخارج الحروف ، وهذا دليل على ضعف الشخصية ، فأنا أحب أن يكون لكل خطيب وجودٌ خاص .

٥ — المنطق قد انعدم فى بعض أقوال المعارضين ، فقد توهم أحدهم أن الجامعة لا تؤدى رسالتها إلا إذا عمل خريجوها بالمجان فى جميع الميادين ، ونص بالحرف على أن الأطباء فى المستشفيات يتناولون مرتبات ، وهذا فى رأيه ينافى الروح الجامعية .

٦ — الألفاظ كانت فضفاضة عند بعض الخطباء حتى كدت أحس أن المناظرة لا تدور فى المدرج الأكبر بكلية الآداب !

٧ — كان أحد الخطباء يوهمنا أنه يرتجل مع أنه حفظ خطبته عن ظهر قلب !

٨ — حدثنا أحد المعارضين عن تقاليد الجامعات الأوربية بكلام هو غاية العجب ، مع أن عينه لم تكتحل برؤية جامعة أوربية ، كما قال أحد

المؤيدين ، فمن أين استقى هذا المدرس المفضال معلوماته المبعثرة عن تقاليد الجامعات الأوربية ؟

٩ — الأديب سعيد محروس كان يقلد الخطيب محمد شكرى فى الإشارات والنبرات ، وهذا دليل على أن الروح لا يموت ، فقد كان محمد شكرى أظهر خطباء الثورة ، ثم انهزم لأنه عجز عن مسايرة الأحزاب .

١٠ — الآنسة كوثر عبد السلام أجادت فى المعانى ، ولكنها عقت النحو عقوقًا لا يطاق ، فذكرتنا بقول أحد الشعراء :

منطقٌ صائبٌ وتلحن أحيا نًا وأحلى الحديث ما كان لحنا

١١ — حضر الأميرالاى على حلمى لشهود المناظرة ، وفى الطريق إلى المدرج لقينا الدكتور محمود عزمى ، فقال له سعادة الأميرالاى : لعلك حضرت لنفس الغرض ! فقال الأستاذ محمود عزمى : إن عندى حصتين فى معهد الصحافة . فقلت : هات تلاميذك ليشهدوا المناظرة ، فقد يختزنون مناظر تنفع فى حياتهم الصحفية ، فاعتذر بلطف وانصرف .

هذه هى الصحافة التى تعرفها كلية الآداب ، صحافة نظرية لا عملية ، صحافة تأخذ وقودها من التاريخ لا من الحياة ، صحافة تنكر الرحلات من حجرة إلى حجرة فى مكان محدود ، مع أن من واجب الصحفى أن يرتحل من قطب الشمال إلى قطب الجنوب .

أما بعد فأنا آسف على ما أثبت فى خطبتى من أن كلية الآداب خدمت الصحافة بإنشاء معهد الصحافة ، ولن أمحو ما أثبت ، لأنى لا أريد التسجيل ، وإنما أريد الإيحاء .

و لم يبق إلا أن يتفضل أخى الأستاذ الزيات فينشر خطبتى بالحرف ،

مع الرجاء فى أن يتذكر أنى لم أثن على الجامعة المصرية بغير الحق ، رفع الله دعائمها إلى الأبد ، وجعلها منارة باقية إلى آخر الزمان .

* * *

أيها السادة[١] .

حين دُعيت للمناظرة فى هذا الموضوع الطريف قلت لنفسى : إن لجنة المناظرات بكلية الآداب هبط عليه الوحى من حيث لا تحتسب ولا تعرف ، فإن هذا الوقت هو أنسب الأوقات لوزن أعمال جامعة فؤاد الأول . ألم تسمعوا بأن الاحتفال الرسمى بافتتاح جامعة فاروق الأول سيكون فى الأسبوع المقبل ؟

إن فى ذلك لفرصة لوزن ما لجامعة القاهرة وما عليها بالعدل والقسطاس ، وهو أيضًا توجيه لجامعة الإسكندرية ، فما أظنها تكره أن نمدَّ إليها يد الرفق ، لنعاونها على مصارعة الأمواج ، وهى فى بلد الأثباج .

وكان المنتظر أن أكون فى الصف الذى ينكر أن تكون الجامعة قد أدت رسالتها ، ولكن لجنة المناظرات رأت أن قوتى فى الهجوم ، فبخلت بإعطائى فرصة جديدة أرفع فيها العَلَمَ لقلمى وبيانى ، فى المكان الذى صاولت فيه كبار الرجال ، بغير تهيب لعواقب الصيال .

أو لعلها أرادت أن أشهد علانية بتمجيد الجامعة بعد أن حاربت من حاربت من رجالها الأبطال . إن كان ذلك ما أرادت فلن تنال ما تريد ، لأن من رسالة الجامعة أن تروض أبناءها على الخلاف ، ونحن نختلف أقل مما يجب ، ويا ويلنا إذا لم نختلف !

---

(١) من هنا تبتدىء الخطبة التى ألقى جزء منها فى المناظرة ، بلا تبديل ولا تعديل .

فلا تحسبونى أغمدت القلم الذى أعددته لمصاولة زملائى ، ولا تتوهموا أنى سأعفى الجامعة من النقد الصريح ، يوم أراها تقع فيما يوجب الانتقاد ، فأنا أومن بأن الحرب حياة وبأن الصلح موت ، وأنا الذى قال حين تنادى رجال الأقلام إلى الوفاق :

دعوتم إلى وأد الخلاف فحاذروا
عواقب خِلفٍ خير آثاره الختل
دعُوا الصلح للأموات فهو غذاؤهم
هنيئًا لهم ذاك المكان الذى حلُّوا
ألاَ هل سمعتم أن قبرًا تحركتْ
حجارته فانزاح من فوقه الثِّقْلُ
يجوز لقومٍ غيرنا أن يؤلفوا
عصائب يحميها من النكثة الفتل
ونحن رجالٌ سرُّنا فى خلافنا
وقوَّتنا العليا هى الفتك والصول
تآخى الظباء الرُّود رمزٌ لضعفها
وهل تعرف الآساد ما الجمع والشمل

أيها السادة :

أتذكرون المناظرة التى اشتركت فيها بهذا المكان منذ سنتين أو ثلاث ؟

لقد جئت وبيمينى صحائف مكتوبة ، لآمن التزيد الذى يستبيحه بعض المتناظرين ، رغبة فى كسب الأصوات ، أو طمعًا فى التغلب على

مفكر لا يعتزّ بغير العقل والبيان .

وقد رأيت أن ألقاكم بصحائف مكتوبة ، مع أن مقامى هذا لا يحتاج إلى احتراس ، بعد أن أعفتنى لجنة المناظرات من النضال حين خصّتنى بالجانب الأقوى فى مناظرة هذا المساء ، فاعرفوا أنى قيدت كلامى ، لأنى سألقيه فى أحد مدرجات الجامعة ، والجامعة لا ترضى لأبنائها أن يتركوا الأوابد بلا قيود .

ولكن كيف أخاف الإسراف فى إبراز محامد الجامعة ، وليس فى الخير إسراف ؟

الجامعة هى كل ما غنمنا من جهاد الأعوام التى أربت على الستين فى مقاومة الاحتلال .

الجامعة هى صوت مصر فى الشرق ، وقد اختارت الضفة الغربية من النيل رمزًا لما تسمو إليه من نقل عقل الغرب إلى روح الشرق .

إن الجانب الذى سأتحدث عنه هو الجانب الأقوى ، ولكنه مزعج ، لأنه سيقهرنى على مواجهة مشكلة من أصعب المشكلات ، وهى توضيح الواضحات ، وهل ينكر أحدٌ أن الجامعة أدت رسالتها قبل أن يولد بعض مناظرىّ فى هذا المساء ؟

لم تكن للجامعة رسالة واحدة ، وإنما كانت لها رسالات ، وإليكم يساق الحديث :

كانت رسالتها الأولى أن تختبر العزائم والقلوب ، لتعرف استعداد الأمة للتحليق فى الجِواء العالية ، يوم كان جماعة من خلق الله يقولون : إن السياسة الحكيمة للتعليم هِي إعداد موظفين مصقولين . ونحن نعرف المراد

من ذلك الصقل ، فقد كان الغرض أن يكون عندنا موظفون لا يقولون « لا » ولو فى التشهد !!

وقد كان المظنون أن تخفق الجامعة فى تأدية تلك الرسالة ، فقد كان الأمر يومئذ إلى حكومة مصقولة ، حكومة تستهدى الاحتلال فى حل بعض المعضلات ، وكان الاحتلال يرى أن مصر تحتاج إلى كتاتيب لا إلى جامعات..

فهل أفلحت الجامعة فى إيقاظ الروح القومى لتشعر المحتلين بأن مصر شبَّتْ عن الطوق ، وانتهت من أبجديات الكتاتيب ؟

هو ذلك ، فقد أقبلت الأمة على تأييد الجامعة إقبالاً منقطع النظير ، إقبالاً يشهد بأن فى الجسم الوهين عروقًا نابضات ، وان مصر التى علَّمت فلاسفة الإغريق والرومان فى العصر القديم ستكون موئلاً علميًّا لليونان والطليان فى العصر الحديث .

تلك الرسالة الأولى ، فما الرسالة الثانية ؟

كانت الرسالة الثانية أن تجد الجامعة طلابًا يسعون للظفر بإجازات علمية ، لا تعترف بها الحكومة المصرية ، طلابًا لا أمل لهم فى الوظائف والمناصب ، ولا حظ لهم غير التشرف بخدمة الدراسات العالية ، فى زمن كان فيه تراب الوظيفة أثمن من التبر المسبوك ، وأروع من خيوط الضياء .

وذلك عهدٌ عرفتُه بدمى وروحى ، وعرفه معى زملاء من أبناء الجامعة فى عهدها الأول ... كنا يتامى ، وكان اليُتم المضطهد بعض ما ورثنا عن الأنبياء .

لم يكن للجامعة ماضٍ تستند إليه ، فقد سبقتها المدارس العالية

بعشرات السنين ، وسبقها الأزهر بعشرات القرون ، و لم يكن لنا إخوان فى أى ديوان ، فقد عشنا حينًا غرباء ، وكان من حق أى مخلوق أن يسخر منا كيف شاء ، والحر فى وطنه غريب .

لقد حملنا أعباءنا الثقيلة بلا ظهير ولا معين ، ورحبنا بالمكاره السود ، لنقنع الأمة بأن عندنا رسالة لم يحملها أحد من قبل ، وهى رفع راية الفكر الصادق والقلم البليغ .

فى ذلك العهد كنا نسمع أن علوى باشا يطوف على الوزارات عساه يجد أمكنة للعائدين الفائزين من بعثات الجامعة المصرية ، وكنا نسمع أنه يجاب بأن « الحكومة ستنظر فى الأمر » وهى عبارة ديوانية معناها أن الحكومة السنية لا تعرف من أعضاء البعثات إلا من تنفق عليهم من مالها الخاص ، كأن الجامعة كفرت حين عاونت الحكومة على تثقيف بعض أبناء الجيل الجديد !!

وحكومة مصر كما تعرفون تجهل أقدار الذين يعفونها من النفقات عند الرغبة فى التزود من الجامعات الأوربية والأمريكية لأغراض مردُّها حب السيطرة على العلم والعلماء .

فهل جزعنا فيئسنا ؟

هيهات ، ثم هيهات ، فقد رحبنا بالجهاد فى مناصب الجامعة بعنفوان أقوى من عنفوان الزمان ، وقد انتصرنا على الحكومة ، وعلى الزمان .

تلك الرسالة الثانية ، فما الرسالة الثالثة ؟

كان للجامعة وحىٌ يغزو القلوب والعقول ، وقد تسامَى إلى غرض أعجب وأغرب ، وهو إنطاق الصخر الجلمود ، فقد أقنع الحكومة بأنْ

لا بد من إنشاء جامعة فى الوطن الذى سبق جميع الأوطان إلى إنشاء الجامعات ، فتألفت لجنة حكومية عقدت فى أربع سنين جلسات تفوق الثمانين ، لتقول فى النهاية بتسمية المدارس العالية كليات ، وبعض أنصار الحكومة فى ذلك العهد كانوا يعرفون الأسماء ويجهلون المسميات .

وحى الجامعة كان الوحى الصادق ، فقد انسحبت الحكومة من الميدان بعد اليأس ، وبقيت الجامعة تصنع بأحلام الشباب وقلوبهم وعقولهم ما تريد .

فى تلكم الأيام كان أبناء الجامعة يقتحمون الميادين العلمية والأدبية ، وكانوا يقيمون البراهين الصوادق على أن فكرة الجامعة لن تموت ، ولو قامت فى طريقها ملايين العقبات .

تلك الرسالة الثالثة .

أيها السادة :

قبل أن أواجه العهد الثانى من عهود الجامعة المصرية ، العهد الذى ابتدأ فى سنة ١٩٢٥ ، وهو العهد الأرحب والأخصب ، أرى من الواجب أن أجمل القول فى العهد الأول ، بصورة تشعركم بقيمة الرسالات التى أدتها فى ذلك العهد .

كان للجامعة مبعوثون إلى الجامعات الأوروبية من أمثال منصور فهمى ، ومحمود عزمى ، وصادق جوهر ، وأحمد ضيف . ولا ينكر أحدٌ أن مبعوثى الجامعة كانوا أقوى من مبعوثى الحكومة . وكانوا أقدر على النضال فى الميادين العلمية والأدبية والاجتماعية ، وأنا فى هذا المقام أضرب الأمثال ، ولا أحاول الاستقصاء .

وكان للجامعة فى ذلك العهد أبناء تثقفهم فى دارها من أمثال : طه حسين وكمال حلمى وفريد رفاعى وتوفيق المرعشلى وأحمد البيلى وحسن إبراهيم وعبد الوهاب عزام ومحمد إبراهيم الجزيرى ، فماذا صنع هؤلاء ؟.

لن أتحدث عن جهودهم بالتفصيل ، فأنتم تعرفون من جهودهم أكثر مما أعرف ، ويكفى أن أؤيد رأيى بشاهد واحد يصور لكم بعض ما صنعت الجامعة فى ذلك الحين .

فى سنة ١٩١٤ تخرج أول دكتور من الجامعة المصرية ، وهو الدكتور طه حسين ، وقد قدّم لامتحان الدكتوراه رسالة سماها « ذكرى أبى العلاء » ، رسالة ظنها الناس تأليفًا كسائر التآليف . ولكنها أدهشتهم حين طُبعت ، فقد رأوا أن للجامعة نفَسًا أطيب من سائر الأنفاس ، وأدركوا أن الجامعة تخلق أبناءها خلقًا جديدًا ، وأن لها رسالة جديدة ، وأنها مصباحٌ سيبذّ ما سلف من المصابيح .

ولم تكن رسالة الدكتور طه مثالاً يحتذيه طلبة الجامعة فحسبُ ، وإنما امتد أثرها إلى آفاق بعيدة من أقطار الشرق .

وقد قدّم الدكتور طه بعد ذلك بأعوام رسالة إلى جامعة باريس عن ابن خلدون ، ولكنها ليست فى قوة الرسالة التى قدمها إلى الجامعة المصرية عن أبى العلاء ، فكان هذا برهانًا على أصالة الجامعة المصرية فى تثقيف الأذواق والعقول .

ثم ماذا ؟

ثم نظرت الجامعة فرأت الحكومة تخنق التعليم فى المعاهد العالية ، فأنشأت قسم الحقوق فى أعوام عجاف ، هى أعوام الحرب الماضية ،

وكانت النتيجة أن تعترف الحكومة نفسها بأن أبناء الجامعة المضطهدة أقدر من أبنائها على الظفر بالدرجات العالية .

وفى ذلك العهد كانت دار الجامعة هى الموئل لكبريات الحفلات ، ففيها أقيم الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده ، مع أن الأزهر لم يحتفل بتأبين ذلك الإمام الجليل . وفيها احتُفل بتأبين فتحى باشا زغلول وعثمان باشا غالب ، وفيها احتُفل بذكرى رينان ، وفيها أُلقيت عمرية حافظ إبراهيم ؛ وعلوية محمد عبد المطلب ، وعلوية عبد الحليم المصرى .

وفى ذلك العهد ... ماذا وقع فى ذلك العهد ؟

كان مجلس الجامعة المصرية ينتظم أكابر المصريين ، وكان هو المكان الوحيد الذى يجتمع فيه أولئك الأكابر فى أمان من الرقباء ، وفيه تألف الوفد المصرى برياسة الزعيم سعد زغلول .

ألا تكون هذه الناحية الخطيرة جانبًا من رسالة الجامعة فى عهدها الأول ؟

* * *

إن الجامعة التى أنشئت لمقاومة الاحتلال ، هى الدار التى ارتفع فيها صوت الاستقلال(*) .

فما السرّ فى أن يكون للجامعة هذا السلطان ؟ ما السرّ فى أن تصنع فى الأيام القصار ما عجز عنه غيرها فى الأعوام الطوال ؟

لا تسألوها ولا تسألونى ، فقد تواصينا على الكتمان ، وسرّ المجد

(*) على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٥ / ٢ / ٤٣ .

لا يذاع .

ليست الجامعة حجرات ، ولا غرفات ، ولا مدرجات ، ولا وظائف ، وإنما هى : روحٌ وفكرٌ وعقلٌ وبيان .

ثم أواجه العهد الثانى فأقول :

فى صيف سنة ١٩٢٥ أخذت الحكومة فى التأهب لتنفيذ مشروع ترددت فى تنفيذه سنتين « فإن الاتفاق بينها وبين الجامعة عقد فى سنة ١٩٢٣ ، يوم كان الرجل العظيم زكى باشا أبو السعود وزيرًا للمعارف » وكان مصدر التردد أن الحكومة لا تعرف بالتحديد كيف يكون نظام الجامعة فى عهدها الجديد .

ثم بدا للجامعة الجديدة أن تراعى تقاليد الجامعة القديمة فتستشير أقطاب الجامعات الأوربية فى الأوضاع التى تحمى تنفيذ المشروع من الإخفاق .

وما هى إلا أيام حتى استطاعت أن تستقدم كبار الأساتذة من الجامعات الفرنسية والبلجيكية والإنجليزية .

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث أنشئت كلية جديدة اسمها كلية العلوم ، وهى الكلية التى عجزت الجامعة عن إنشائها فى عهدها الأول ، بحجة أن كلية العلوم لا تُرتجل ، كما صرح المسيو بوفيليه ، وكان أحد خطباء حفلة الافتتاح فى ديسمبر سنة ١٩٠٨ إذ قال :

« Une Faculté des Sciences ne s'impovise pas ».

كان إنشاء كلية العلوم أداءً لرسالة جديدة من رسالات الجامعة المصرية ، ولكنها رسالة مزدوجة ، لأنها أرادت أن تضع حجرًا جديدًا فى

بناء كلية الطب ، حيث فرضتْ أن لا يدخل الطالب كلية الطب إلا بعد أن يأخذ زاده العلمى من كلية العلوم ، وهو تقليدٌ جميل ، لا يمترى فى جماله غير الجهلاء .

ثم رأت الجامعة أيضًا أن لا يدخل طالبٌ كلية الحقوق إلا بعد أن يُمضى سنتين فى كلية الآداب ، ليتزود بالحقائق الأدبية والفلسفية ، عساه يصير فيما بعد من أئمة التشريع .

والطلبة الذين انتفعوا بذلك النظام هم المرجع فى هذه الأيام لدراسة القوانين .

أيها السادة :

كانت المشكلة فى العهد الجديد أن تعرف الجامعة كيف تُقنع الحكومة بقيمتها الذاتية ، وكان الرأى أن تسير الجامعة على النظام الفرنسى ، وهو يقضى بقصر التعليم الجامعى على أربع كليات : الآداب والعلوم والطب والحقوق ، ثم رأت أن تسير على النظام الإنجليزى فترفع رايتها على جميع المعاهد العالية ، ولى على هذا النظام اعتراضات لا يتسع لها المجال .

والمهم هو النص على أن الجامعة استطاعت أن تسيطر على جميع الفروع بالتعليم العالى ، وأن تعلن استقلالها عن وزارة المعارف ، وهذا مغنمٌ ليس بالقليل ، وهل من القليل أن تكون الجامعة دولة فى جبين الدولة ، وأن يكون التعرض لأحد مدرسيها مما يفتح باب الجدال فى مجلسى البرلمان ؟

عندنا جامعة بالفعل ، لا بالقول ، وعندنا جامعيون لا يقبلون وظائف الحكومة إلا متفضلين ، لأن الجامعة أعدتهم للجهاد فى الحياة بلا سناد من

هذاالوزير أو ذاك .

رسالة الجامعة هى نصر الحياة على الموت ، وقد نصرنا الحياة على الموت ، فليجرب خصومنا حظوظهم فى محاربتنا إن استطاعوا وأنا أخشى أن يستطيعوا ، فقد سمعت أنهم يملكون بلايين ودشالين من القبور التى ترجع إلى عهد آدم وحواء !

أفى نيّف وثلاثين عامًا تصنع الجامعة هذا الصنيع ، فتُعزّ الذاتية الأدبية والعلمية ، وتقول للرجل المفكر كن وجودًا ذاتيًّا فيكون ؟

كان ذلك لأنها أسست على التقوى ، والتقوى هى الخوف ، وكانت الجامعة تخاف أن ينهزم السلطان الأدبى والعلمى فى هذه البلاد ، وقد انتصرت ، لأن الخوف هو باب الأمان .

أيها السادة :

إن تاريخ الجامعة فى عهدها الجديد لا يتجاوز سبعة عشر عامًا ، وتلك مدة لا تكفى لإيجاد محصول تباهى به الجامعات التى طال عهدها بالوجود ، فكيف أصل إلى إقناعكم بأنها أدت رسالات لم تؤدَّ من قبل ؟

أمامى مصاعب ترجع إلى أن الجامعة فى عهدها الجديد قد انتظمت معاهد لها تواريخ ، فكلية الطب حلت محل مدرسة الطب ، ومدرسة الطب المصرية « مدرسة قصر العينى » قامت بخدمات كبار فى أزمان طوال ، وقد كُتِبَ عنها فى اللغات الأوربية عشرات المؤلفات والبحوث ، ولقد كان مجدها يهزنى هِزة الازدهاء حين أرى ما كُتب عنها فى المكتبة الطبية بحىّ السوربون .

ومع ذلك فمن السهل أن أقرر أن مدرسة الطب قد ازدهرت ازدهارًا

ملحوظًا حين انضمت إلى الجامعة فى عهدها الجديد ، فقد ضخمت ميزانيتها ، واتسعت مبانيها ، ومضت إلى آفاق لم يفكر فيها أبناؤها الأولون .

استطاعت كلية الطب بفضل أساتذتها وخريجيها أن تقوم بعقد مؤتمرات سنوية فى مختلف البلاد العربية ، وهى مؤتمراتٌ تعرَّف فيها أطباء العرب بعضهم إلى بعض ، وتلاقت فيها قلوب لم يتيسر لها التلاقى قبل تلك المؤتمرات ، وإن وُجِد حِلفٌ عربىٌّ بعد زمن قصير أو طويل فسيذكر التاريخ أن لأعضاء الجمعية الطبية المصرية يدًا مباركة فى إيجاد الحِلف المنشود ، ولعله قريب !.

فإن كنتم فى ريب من إحياء مدرسة الطب بعد أن صارت كلية فتذكروا اسم الدكتور على باشا إبراهيم ، فأعظم منصب كان يصل إليه مثل هذا الرجل العظيم هو أن يكون وزيرًا ، وقد كان ، ولكنه ما كان يصل إلى منصب مدير الجامعة المصرية لو ظلت تلك المدرسة بمنأى عن الحرم الجامعى ، وخَلقُ الوزراء سهلٌ جدًّا فى العهود البرلمانية ، أما خلق شخصية تتولى إدارة الجامعة فهو رهين بالأهلية الجامعية .

وهنا أعتب على معالى الدكتور على باشا إبراهيم بمناسبة الجواب الذى قدمه إلى مجلة الإثنين وقد سألته عما يختار من ألقابه الكثيرة فاختار لقب « الجراح » .

وإنما أوجه إليه هذا العتب ، لأن براعته فى الجراحة لم تكن المؤهل الوحيد لصلاحيته لإدارة الجامعة المصرية ، وإنما أهلته لهذا المنصب مزايا كثيرة ، منها أنه من كبار مفكرينا ، ومنها أنه من أحد الرجال القلائل الذين

يعنون بتربية الأذواق ، ومنها أنه منوّع الثقافة بحيث يستطيع أن يشترك فى الأحاديث التى تتصل بجميع الكليات .

ثم أذكر أن معالى الدكتور عبد الواحد الوكيل لم يترك دروسه فى كلية الطب بعد أن صار وزير الصحة العمومية ، فهل يقع هذا إلا من رجل صقلته الروح الجامعية ؟

قولوا الحق واعترفوا بأن لكلية الطب مذاقًا غير مذاق مدرسة الطب ، مع الاعتراف بما لمدرسة الطب القديمة من أمجاد سيحفظها التاريخ .

ثم يجيء القول عن مدرسة الهندسة بعد أن صارت كلية ، ومعلوماتى عن هذه الكلية قليلة ، لأنى مهندس معانى ، لا مهندس مبانى .

ومع هذا يصح الحكم بأن الجامعة خلقت كلية الهندسة خلقًا جديدًا ، فقد وجهتها إلى مرامىَ جديدة ، حين أوحت إلى أبنائها أن يشتركوا اشتراكا فعليًا فى أكثر الأعمال الهندسية ، وكانت من قبل وقفًا على خلائق ليس لها فى هذه الديار أنساب .

ولنفرض أن كلية الهندسة لم تأت بجديد ، فهل تنسون أنها تبالغ فى اختيار الطلاب ؟

ألم تسمعوا أن صدقى باشا عجز عن إلحاق أحد أبنائه بكلية الهندسة مع أنه استطاع حل البرلمان ؟

وسلطان الجامعة من هذه الناحية ليس اعتسافًا ، وإنما هو تعبير عن قوة الذاتية المصرية .

ثم يجيء القول عن كلية الحقوق ، وهى وريثة مدرسة الحقوق ، ولطلبة مدرسة الحقوق القديمة تاريخ صوّره شاعرنا حافظ إبراهيم

حين قال :

وكيف يضيع للطلاب حقٌّ وهم فى مصر طُلاَّب الحقوق

وما كادت مدرسة الحقوق تصبح كلية حتى اهتدت إلى أن لها غرضين أساسيين هما جملة الرأى فيما تتسامى إليه من كرائم الأغراض .

الغرض الأول هو البرهنة على أن اللغة العربية قديرة على الإفصاح عن دقائق القوانين . وأنا لا أتحيز لوطنى إن قررتُ أننا سبقنا جميع البلاد العربية إلى التأليف الجيد فى مختلف فنون التشريع .

أما الغرض الثانى فهو معاونة الشعوب العربية على استرداد الثقة بالفقه الإسلامى ، وهو أخصب من الفقه الرومانى بمراحل طوال ...

وفى هذا المقام تلوح فرصة للكلام عن الدكتور السنهورى فقد نهض بعبء فى تلقيح القوانين الوضعية بالشريعة الإسلامية ، وهو جامعى قديم ، لأنه كان من طلبة قسم الحقوق بالجامعة المصرية فى عهدها الأول ، ولأنه كان عميد كلية الحقوق بالجامعة المصرية فى عهدها الجديد . ولو أن الدكتور السنهورى أعفى نفسه من السياسة وتقلبات السياسة لأدى لوطنه خدمات أعظم وأنفع ، فقد دعى لوضع القانون المدنى العراقى ، ولكن منصب وكيل وزارة المعارف أغراه بالاعتذار ، مع أنى ألححت عليه فى أن يترك ذلك المنصب الخداع ليؤدى لسمعة مصر العلمية خدمة مأثورة فى العراق الشقيق .

ويضاف إلى هذين الغرضين غرضٌ ثالث : هو الرغبة الشريفة فى معاونة الأمم العربية على التعمق فى الدراسات القانونية ، ولن ننسى فضل العراق فى إظهار ثقته النبيلة بكلية الحقوق المصرية ، فقد رأى أن يستأنس

بها فى تقوية كلية الحقوق العراقية . وهذه الالتفاتة من جانب العراق تقوى ثقتنا بالكلية المصرية ، وتدعونا إلى تأييدها بجميع ما نملك من فنون التأييد .

هل أحتاج إلى القول بأن كلية الحقوق غير مدرسة الحقوق ؟

لقد نشأتْ فيها أقسام جديدة بعد الليسانس ، نشأتْ فيها دراسات لم تكن معروفة قبل عهد الأنظمة الجامعية ، وبهذا استطاعت أن تقدم ألوانًا جديدة من فقه التشريع ، وما أحب أن أزيد .

وهنالك كلية مجهولة هى كلية الزراعة ، فهل تظنونها صورة من مدرسة الزراعة ؟

ابحثوا تعرفوا أن كلية الزراعة أمدت أبناءها بأفكار وآراء لم تعرفها مدرسة الزراعة ، فقد حاولوا وسيحاولون الاستيلاء على الأراضى التى لم تجد من يحسن استغلالها على الوجه الصحيح ، وقد كان من آثار جهودهم فى تنمية الثروة الزراعية أن أعلن أصحاب البساتين شكواهم من رخص الفواكه قبل أن تغليها أعوام الحرب .

أما كلية التجارة فمكانها معروف ، فقد استطاع أبناؤها أن يكونوا السناد المتين لبنك مصر وشركاته المتنوعات ، وأنتم تعرفون أن بنك مصر توجيه جديد لأكثر أمم الشرق ، فهو أول بنك نزه تحريراته وحساباته عن اللغات الأجنبية ، واعتمد كل الاعتماد على اللغة العربية .

أيها السادة :

بقى القول فى كلية الآداب ، وكلية الآداب لها الصدارة فى جميع الجامعات ، ومن أجل هذا كانت كليتنا الغالية على يمين من يدخل حَرَم

الجامعة المصرية .

ومع ذلك فكلية الآداب هى صاحبة الحظ الأوفر من الشقاء فى جميع الجامعات ، لأنها تعالج أمورًا دقيقة لا تفطن إليها الجماهير إلا بعد زمن أو أزمان .

ألوان المعايش تحتاج فى كل يوم إلى المهندس والتاجر والزارع والمحامى والطبيب ، وهى تستغنى بكل سهولة عن الأديب والمؤرخ والفيلسوف ، وهل يحتاج الناس إلى الأدب كما يحتاجون إلى الرغيف ؟

ورقة مرقومة من كلية الطب تمنح حاملها العيش الرغيد ، وكذلك يقال فى الأوراق التى تمنحها سائر الكليات .

أما نحن فلا يعرفنا الجمهور ولا تعرفنا الدولة إلا بعد أن نبالغ فى إقذاء العيون تحت أضواء المصابيح .

ولهذا أرجوكم السماح بعرض بعض الخدمات التى أدتها كلية الآداب إلى الوطن الحافظ للجميل !!

كلية الآداب هى الكلية المظلومة ، وسيلاحقها الظلم إلى أن تستطيع إقناع الأمة بأن الأدب مقدم على الرغيف ، فهل تستطيع أقلامنا أن تروض الأمة على الإيمان بأن زاد العقول مقدَّم على زاد البطون ؟

إن جهادنا سيطول ويطول ، إلى أن تذكر مصر أنها الأمة التى سبقت جميع الأمم إلى وضع تمثال للكاتب المفكر قبل ألوف السنين .

سنرى كيف تستطيع كلية الآداب أن تقنع الأمة بأنها أنفع من كلية الطب ، وسنرى كيف يمكن إقناع الأمة بأن احتياجها إلى الأديب أشد من احتياجها إلى الطبيب ... يوم ذاك يصح القول بأن الجامعة أدت

رسالتها خير أداء .

وإلى أن يجيء ذلك اليوم أذكر بإيجاز بعض ما صنعت كلية الآداب ، فماذا صنعت كلية الآداب ؟

وهل تستطيعون أن تتناسوا جهود الأساتذة والخريجين بكلية الآداب ؟

التأليف عندنا ، فما رأى هذا العصر أقوى من كتاب الأدب الجاهلى وكتاب النثر الفنى ، من حيث البلبلة الفكرية فى الحياة الأدبية . ونحن الذين غيرنا اتجاه الأدب فى مدارس الدولة من حال إلى أحوال .

والترجمة عندنا ، فأبناء كلية الآداب هم الذين ترجموا دائرة المعارف الإسلامية مع تحقيقات يعترف بقيمتها المألفون الأصلاء .

والشعر عندنا ، فليتقدم لمصاولتى فى الشعر من يطيق ، ولن يطيق .

والمجد القومى عندنا ، ففى كليتنا الغالية أقيمت معاهد للدراسات الأثرية من فرعونية وإسلامية ، بحيث يستطيع الفتى المصرى أن يعرف فضائل الأجداد والآباء .

ونحن الذين فكرنا فى أن يكون مدرسو اللغات الحية مصريين لا أجانب ، ويشرفنى أن أكون صاحب هذا الاقتراح ، وقد نفَّذه العدو الصديق طه حسين .

ونحن الذين ابتدعنا الرحلات العلمية إلى البلاد العربية ، ومن الطريف أن أنص على أن الحج الجامعى إلى بيت الله الحرام ، هو من ابتكار كلية الآداب ، وقد وصلت عدواه إلى طلبة الأزهر الشريف ، فتذكروا أن الحج من أركان الدين الحنيف .

كليتنا عظيمة التأثير فى الجيل الجديد ، ولا ينكر فضلها إلا مكابرٌ أو جَحود .

أيها السادة :

لكليتنا الغالية أمجادٌ جديرة بالتسجيل ، وأخصُّ تلك الأمجاد حرية الفتاة فى ارتياد المعاهد العالية ، وهذا لم يقع بمصر لأول مرة إلا فى كلية الآداب .

كانت رفيقتى فى دروس الأدب والفلسفة والتاريخ فتاةٌ لطيفة الروح ، وهى الآنسة مىّ ربيبة الجامعة المصرية ، وعنوان الكاتبة الموهوبة فى اللغة العربية .

وأنا لم أشترك فى رثاء هذه الكاتبة ، لأنى لا أزال أراها رأى القلب ، ولأنى لا أحب أن أصدق أن الفناء يجوز على شبابها الجميل ، وكان من بسمات الوجود .

وقبل أن تموت مى رأيت تأثير كلية الآداب حين زرت الموصل فى ربيع سنة ١٩٣٨ ، فقد رأيت المدينة كلها مشغولة بكتاب أخرجته فتاة من طالبات كلية الآداب .

كلية الآداب هى أول معهد مصرى أباح اختلاط الجنسين فى المعاهد العالية ، وهو مبدأ يرضى عنه قوم ويغضب عليه أقوام ولكنه مبدأ ، وللمبادئ قيمة ، ولو أقيمت أساسها على ضلال .

وكلية الآداب هى أول معهد مصرى فكر فى إمداد الصحافة بقوى جديدة مزودة بأهم أقوات الأذواق والعقول ، وسيكون لأبناء معهد الصحافة تأثير جميل فى صحافة الجيل الجديد .

أيها السادة :

ستسمعون فى هذه الليلة كلامًا فى تجريح الجامعة ، من أبناء الجامعة أنفسهم ، فلا تظنوا ذلك التجريح من صور العقوق وإنما يجب أن تعدوه من صور الوفاء ، لأنه من أقوى البراهين على أن الجامعة أدت رسالتها خير أداء .

أهم رسالة من رسالات الجامعة هى خلق القلق الروحى والعقلى ، فإن غلبنى مناظرىّ فى هذا المساء فسيكون فوزهم تأييدًا لحجتى . وهل تنسون أن الأشبال لا يصاولون آباءهم إلا بعد أن يصبحوا من الأسود ؟

لا أعرف ما الذى سيقول مناظرىّ الفضلاء ، ولكنى أخشى أن يفوتهم مقتلٌ هو أضعف مقاتل الجامعة المصرية ، وهو عجزها الفاضح عن أن تجعل اللغة العربية لغة التدريس فى جميع المواد بجميع الكليات .

لقد قضيت عشر سنين فى الدعوة إلى هذا المبدأ القومى ، فما استمع مستمعٌ ولا استجاب مستجيب ، فليلتفت مناظرىّ إلى هذا المقتل ، وليقولوا لرجال الجامعة إن السبات قد يفضى إلى الموت ثم إلى الفناء .

لا يجوز فى أية جامعة أوربية أو أمريكية أن يؤدَّى امتحان بغير اللغة القومية ، إلا أن يكون امتحانًا فى إحدى اللغات الأجنبية ، أما الجامعة المصرية فتسمح بأن يؤدَّى الامتحان بغير اللغة العربية فى المباحث الإسلامية ، وهذا هو الكفر بعد الإيمان ! جرحوا الجامعة ، جرحوها بعنف ، لتستيقظ فتثور على الغفلة والجهلة .

قولوا وأطنبوا ، فإن لم تفعلوا — وستفعلون — فسآخذ الكلمة من أفواهكم لأسمع الجامعة ما تحب أن تسمع ، فرضاها عن هذه الحال رضا

اليأس ، لا فرح التحليق فى أعالى الأجواء .

جولوا وصولوا ، يا بنى الأم الروحية ، وقاتلوهم وقاتلونى ، لأنكم وهبتم العزائم الفواتك ، والأرواح الصحاح .

أنا أثنيت على الجامعة بحق ، فجرحوها بالحق ، لتأمنوا صيالى فى ردكم إلى شرعة العدل والإنصاف .

وإلى اللقاء بعد أن أسمع ما عندكم من حجج وبراهين ، فلن تضام الجامعة وفى الوجود رجل هو أصدق أبنائها الأوفياء : **زكى مبارك**

صدر حديثا

كتاب : مكة المكرمة : العاصمة المقدسة تأليف السادة الأساتذة : زهير محمد جميل كتبى ، معراج مرزا ، د . عبد العزيز الغامدى ، د . محمد محمود السريانى .

كتاب : المناخ فى التراث الإسلامى .

و : لا ... تقرأوا هذا الحوار .

و : الفقى ... فيلسوف الحجاز .

للأديب السعودى زهير محمد جميل كتبى .

الأزهر الشريف

ألف الدكتور زكى مبارك لجنة لإصلاح الأزهر الشريف والمعاهد الدينية ، وكتب رسائل مختلفة فى نقد المعاهد الأزهرية .

وكان زكى مبارك يكتب بين سنتى ١٩ و ٢٢ تحت عنوان « الفتى الأزهرى » فى جريدة الأفكار ، وكانت رسائله يوم صدورها ثورة فكرية ضج لها المسئولون فى تلك المعاهد وتركت فى أنفسهم أثرا بليغا ، وقد تطور الأزهر فى حدود مارسم الفتى الأزهرى من ضروب الإصلاح والتجديد لذلك البيت العتيق .

وفى الصفحات التالية بعض ما كتب زكى مبارك عن الأزهر الشريف :

العمر الضائع[1]

فى الأزهر والمعاهد الدينية

فى يوم الثلاثاء المقبل سيحتفل المصريون بذكرى الشيخ محمد عبده فى الجامعة المصرية !!

وأول ما يمر بالخاطر ، هو مكان الاحتفال ، فقد نذكر أنهم احتفلوا بتأبين الشيخ حمزة فتح الله فى المكان الذى كان يلقى فيه دروسه العامة فى درب الجماميز ؟

وليست الجامعة المصرية بالمكان الذى كان يلقى فيه الأستاذ الإمام دروسه العامة ؛ ولكنه كان يلقى أبحاثه الممتعة فى الأزهر الشريف !!.

فياعجبا ! أيضيق الأزهر على الشيخ محمد عبده فى الحياة وبعد الممات ؟..

لا فرار من الحق ! إن الذين فكروا فى الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده هم تلامذته القدماء الذين ضاق بهم الأزهر ، ووسعتهم الجامعة المصرية .

لقد تسكن النفس ، ويطمئن القلب ، حين نرى بأعيننا حياة هذا

---

(١) نشرت فى الأفكار فى ٧ يولية سنة ١٩٢٢ .

الرجل بعد موته ! — أليس هو القائل : وإن فناء فى الحق لهو عين البقاء ؟!
صدقت أيها المصلح الجليل ؛ فانظر بعينك الآن من عالم الأبدية ، لترى من جديد ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ! ﴾ إن للمجاهدين عبرة فى حياتك الأولى والثانية ، لقد مت وأنت تتسمع عساك تجد منصفًا يعترف لك بجميل ، فهل علمت أن الناس يعلنون عن أنفسهم بالحب لك ، والاقتداء بك ؟؟.

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ .

* * *

فى يوم الثلاثاء المقبل ستتقاطر جموع العلماء إلى دار الجامعة المصرية فلنسمعهم هذه الكلمة عساهم يصلون إلى تلك الدار وهم خاشعون .

لقد مرت السنون على وفاة الشيخ محمد عبده ، فهل قام فريق منهم فوقف وقفة المستبسل الجرىء ، فذاد عن المعاهد الدينية ، واقتفى أثره فى إصلاح الأزهر ، وتعديل برامج التعليم ؟

لقد عطلت الدروس شهورًا عديدة فهل انتفعوا بهذه العطلة فملأوا الخزائن ببدائع المؤلفات وروائع المصنفات ؟ ألم يعد الأزهر كالطلل البالى لأنهم استبدلوه بالأندية الخصوصية حتى عطلت الجمعة فيه أسابيع كثيرة ؟ ألم يتركوا السذاجة تطغى وتستطيل حتى أعلن بعضهم فى الصحف السيارة أنه سأل الشيخ بخيت عن حكم التكلم فى السياسة ؟.
ألم تنطق صوامت الموجودات وهم لا ئذون بالصمت والسكوت ؟.

لا يقنع الأمة أن ترى من بين هؤلاء الجموع خمسة أو عشرة يكتب

كل منهم بضع رسائل فى السنة ، ثم تطوى الصحيفة ويجف المداد !!

كنا سمعنا أن امرأة صالحة وقفت فى طريق الفخر الرازى فسألها الناس أن تفسح له الطريق فقالت : من هذا الذى تحتفون به ؟ فقالوا رجل عالم أقام على وجود الله ألف دليل ! فقالت : ويحكم هل عميتم حتى تطلبوا على وجود الله ألف دليل ؟ — وكذلك يقتل الأزهريون وقتهم فى إثبات وجود الله ، تعالى الله عما يصفون !!

نريد أن يتغير التعليم فى الأزهر والمعاهد الدينية ؛ نريد أن نكون أعزة وقد صيرتنا هذه التعاليم أذلاء ؛ نريد أن نرسم الخطة لنهضة الممالك الإسلامية ، حتى يغلب الجاحدون على أمرهم فيدخلوا فى دين الله أفواجا أفواجا من حيث لا يشعرون !

نريد أن نمحو الوساوس التى دخلت فى العلوم العربية وأصول الفقة وعلم التوحيد ، ولا يضيرنا أن يخمل بذهاب هذه الوساوس مئات المتصدرين فى العلم والدين ! فهل نحن واجدون من بين العلماء من يسمع هذه الكلمة التى اضطررنا إليها اضطرارا وألجأتنا إليها الغيرة على الدين الذى مات فى تأييده الآباء والأجداد ؟؟

* * *

درس الأدب فى الأزهر الشريف[1]

نريد أن نعرف لم يحرم طلبة الأزهر من دراسة الآداب العربية ، ونريد أن نعرف متى تدول دولة المؤلفات السقيمة التى وضعها قوم أقل عيوبهم أنهم لا يفقهون لغة القرآن المجيد ، ونود لو تفضل القائمون بإدارة المعاهد الدينية فدلّونا على الغرض الذى رموا إليه حين ألقوا بالطلاب فى بيداء من الخلط والتعقيد ، لنطمئن كما اطمئنوا .

ولنترحم مثلهم على المؤلفين الأغبياء الذين أفسدوا ما للطلبة من قلوب وعقول !

لا تنتظر أيها القارئ من كاتب مثلى أن يحدثك عن جهود العلماء فى نشر الآداب العربية فى ذلك البيت العتيق ، فإنى لا أريد أن أفجعك فى آمالك وأحلامك ، ولا أريد أن تعلم ما أعلم من أمر أولئك الذين يحسبون أنهم حارسو لغة القرآن وهم يفعلون بها مالا يفعل الأعداء ! وما ظنك بقوم يخطئهم العد من حملة الشهادة العالمية تمضى السنون والقرون وما تظهر لهم رسالة فى اللغة أو مؤلف فى البيان !

وحسبك أن تعرف أن الإحاطة بالأدب أو الفهم فيه ، مما يغض هناك من أقدار الرجال ، فإن كنت فى ريب من ذلك فأت بشاهد واحد يدل

---

(١) نشرت فى جريدة اللواء فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ .

على أن الخبرة بالآداب العربية كانت مرشحًا للدخول فى هيئة كبار العلماء !

وهل سمعت يوما أن طالبا أخطأه النجاح لأنه لم يعرف منازل الخطباء فى الدولة الأموية ، أو مراتب الشعراء فى الدولة العباسية ؟ وهل تحدث العلماء فى ناديهم بأن فلانا غير كفء لدراسة التفسير أو الحديث ، لأنه لم يفقه ذوق العرب الذين تلقوا كلام الله وكلام الرسول ؟ وهل كتب واحد من المفتشين فى الأزهر والمعاهد الدينية كلمة واحدة فيها ملاحظة وجيهة عن دروس المطالعة والإنشاء ؟ وهل يجرؤ مدرس واحد ممن يدرسون للطلبة كتاب العقد الفريد فيدعى ولو كذبا أنه خبير بما فيه من مظان الخطأ والصواب ؟ وهل نجد من بين الذين تصدوا لبيان ما فى كتاب الله من الحرام والحلال من درس الشرائع الوضعية والسماوية لذلك العهد حتى يدرك حكمة التشريع ، وهذا أول واجب على من يدرس قصيدة قيلت فى غرض خاص ، فضلا عن كتاب أخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ وهل تألفت فى الأزهر جمعية أدبية كما تألفت فيه الجماعات للطرق الصوفية من جميع الأشكال والألوان ؟ أليس فى كل أولئك دليل على أن الأدب لا نصير له فى ذلك المعهد الذى تحتشد فيه الآلاف المؤلفة من الشباب والكهول ؟ أو ليس فى بعض ما ذكرت ما يجعل تنبيه هؤلاء الغافلين فرضا على من يغار على لغة القرآن والحديث ؟.

* * *

الأزهر الشريف

١

فى نهاية السكة الجديدة ، من الناحية الشرقية ، على يمين السائر حارة ضيقة توصل إلى مسجد جامع عتيق : هو الأزهر الشريف(*)

لا خلاف بينى وبين أهل مصر ، فى أن هذا هو الأزهر . فقد زاره بعضهم لطلب العلم وزاره آخرون ابتغاء الاستطلاع . ومن لم يره منهم لا يجهل أنه فى هذا الموضع وعلى تلك الحال .

ولكنى على يقين من أن الأجانب فى شك منه ، فإنهم يسمعون فى بلادهم أن الأزهر أكبر الجامعات الشرقية ، ومن أعظم المساجد الجامعة الإسلامية ، وأنه إن لم يكن أجمل مكان فى الشرق فهو جدير بعناية الأمراء ، ورعاية العظماء ، فلا بد أن يكون قريبا من جامعات برلين ومدارس مونبلييه ، وما إلى ذلك من تلك المعاهد ، التى ورثت عن منشئيه العلم ، وتلقت عن مبدعيه البيان .

لا يهمنى أصدَّق الأوربيون أن هذا هو الأزهر إيمانا بإغفالنا لــه وانصرافنا عنه ، أم حسبوه مكانا غير هذا المكان ولو فى سماء الخيال ، ظنا

(*) البدائع / الطبعة الثانية جـ١ / المكتبة المحمودية بميدان الجامع الأزهر بمصر ص ٢٦٧ .

منهم أن المصريين أكرم من أن يهملوا مسجدا جامعا مثل هذا المسجد الجامع وأجل من أن يغفلوا معهدا كهذا المعهد .

نعم لا يهمنى ذلك ، لأنى لا أشك فى أن هذا هو الأزهر الذى نفتخر به ، ونغضب له ، وإن كنا عنه معرضين .

تدخل فى هذا المسجد الجامع فلا يروقك فيه شيء ، أرض منخفضة وسقف غير مرفوع ، وأعمدة قصيرة كأعمدة المقابر ؛ وحيطان قاتمة كحيطان الأجداث ، ونوافذ بخيلة بالضوء ضنينة بالهواء ومصابيح ضئيلة لا تقتل الظلمة ولا تكشف الغمة ، وهو أحوج إلى أكبر منها فى النهار المبصر . فكيف به فى الليل المظلم ! لا فرش له إلا الحصير الممزق والتراب المكدس . والناس فيه ما بين آمل غير واجد ، أو زارع غير حاصد ، لا طمع لهم فى مناصب الحكومة ولا أمل لهم فى إسعاد الأمة ، وقد يئسوا من إنصاف الوزراء وإنجاد الأمراء .

ثم تراهم لا يصدقون أن لهم شيوخا يعطفون عليهم ، أو رجالا يرأفون بهم ، فهم لا يعرفون آباء غير آبائهم ، ولا أعماما غير أعمامهم . وكذلك ينكرون جميعا قول الشاعر :

أقـدم أستـاذى على نـفس والـدى
وإن نالنى من والـدى العـز والشرف
فـذاك مـربى الـروح والـروح جوهـر
وهـذا مـربى الجسم والجسم كالصدف

إنهم لا يعرفون هذا الشعر ، لأن الشيخ الذى سلف ، والشيخ الذى خلف ، لم يرفعا عنهم شيئا من الضر ، ولم يسوقا إليهم نوعا من الخير ، فهم

اليوم مثلهم بالأمس أكثر شقاء وهما ، وأكبر عناء وغما ، لأنهم يرون الناس فى تقدم ويرون أنفسهم فى تأخر ، ويرون المدارس يعمها العدل والأزهر يخصه الظلم ، ثم يرون لكل شهادة أثرا فى الحياة وقيمة فى الوجود ، ويرون شهادتهم ورقة لا كالورقة فهى مزينة ولكن بالمواعيد الكاذبة ، ومزخرفة ولكن بالأيمان الحانثة ، حتى كأنها قطعة من معاهدة الصلح لا يضمن لمن أنصفته سلام ، ولا يرجى لمن نصرته قيام ، وكأن مجلس المشيخة هو مجلس الشيوخ ، وهم قد شبعوا من المجد الموهوم ، والشرف المعدوم ، فما عادوا يصدقون بأن شهادة الأهلية أو شهادة العالمية حرز من الفقر وأمان من الدهر .

ثم هم فكروا طويلا فى انتسابهم إلى الأمة المصرية والسلالة العربية ، ولولا أن الأجانب يصفو عيشهم على ضفاف النيل وفى سفح الأهرام ، لظنوا أنفسهم من الجاليات الأوربية أو الأمريكية .

وقد بحثوا كذلك فى سبب شقائهم ومصدر بلائهم فلم يهتدوا إلى موجب صحيح ، أو داع معقول ، اللهم إلا حياء ظنه الناس من الجبن ، وحلما حسبوه من الذلة ، وهم لا يستطيعون أن يرجعوا ذلك إلى حبهم للوطن ، وعشقهم للحرية ، وبغضهم للظلم ، فإن ذلك مشترك بين عامة الناس وشائع فى كافة الأجناس .

فلم يبق إلا أن يكون الأزهر شقيق الهم ، وحليف الغم ، لا يدخله امرؤ إلا تقوس ظهره ، وتقوض عمره ، ولا يفزع إليه فتى إلا تزعزع كيانه ، وتضعضع بنيانه .

وهو بفضل إغفال الحكومة جدير بأن يقتل كل شاب تضمه

جدرانه ، ويذهب بكل بصر ينظر فيه صفحة من كتاب ، أو فقرة من خطاب ، وكذلك لن يزال بفضل الشيوخ ، مبعثا لظلم العواطف ، وقتل المشاعر ، يقرأون فيه العلم ، فيتعرفون به الظلم ، ويتدارسون فيه أخبار الأسلاف ، فيئنون من جور الأخلاف .

كانت مدة الدراسة فى الأزهر الذى وصفناه اثنى عشر عاما ، فرأت المشيخة أنها لا تكفى لتضييع العمر ، وتقويس الظهر ، فزادتها أعواما ثلاثة ، فصارت خمسة عشر .

من هذا يشكو إخواننا طلبة الأقسام النظامية فى المعاهد الدينية ، وقد رأت لجنتنا الجديدة ، أن لا تنام لها عين ، ولا يهدأ لها قلب حتى ترجع المشيخة عن هذا القرار الظالم ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

٢

إن طلاب الأزهر لا يعرفون غير متاعب الحياة : فهم فى سنى الدراسة يعانون الآلام بين الكتب المعقدة ، والدروس المتعددة . ثم إذا اجتازوا عقبات الامتحان بعد العمر الطويل والهم الجزيل ، دخلوا فى حياة لا حظ لهم فيها غير حظ الأعزل من النصر ، فى ميدان كله رماح طوال ، وسيوف صقال ... وهل بعد ذبول الأغصان ، وكلال الأجفان ، وتقوس الظهر ، وتقوض العمر ، غرض يرجى نواله ، أو هم يبتغى زواله !

هؤلاء هم الأزهريون الذين كانوا يملأون البلاد علما وحكمة لو أتيح لهم التغلب على مصاعب النظام القديم والحديث . هؤلاء هم الأزهريون الذين كانوا مادة الحياة العلمية فى عصر الظلمات ، وهم أصل النور فى هذا العهد الجديد . هؤلاء الأزهريون ينادون بملء أفواههم أن خذوا بيدنا أيها القائمون بالأمر ، فلا يستمع لهم أحد ! ولكن أيغلب اليأس الرجاء ، ويغدو الأمل صريع القنوط ؟ إن هذا لبعيد .

٣

نقول الآن — وسنظل على هذا الرأى حتى حين — إن النبوغ الذى امتاز به بعض الأزهريين فى الزمن القديم أو الحديث ، ليس أثرًا من آثار الإدارة التى تولاها زعماؤه الأقدمون أو المحدثون ؛ ولكنه أثر من آثار الذكاء الذى انفرد به بعض الشبان الذين هيأت لهم ظروف خاصة أن يخرجوا على التقاليد البالية ، وأن يشاركوا جمهور المبدعين فى العلم والأدب ، وأن يتركوا لأنفسهم أثرًا يذكرون به فى العالمين .

فإن كنت فى شك من صواب هذا الرأى ؛ فاقرأ إن شئت تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، وانظر كيف تأثر بالتعاليم الحديثة حتى صار علمًا يهتدى به ، أو احضر دروس الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى لترى كيف استعان الفلسفة الحديثة لفهم الفلسفة القديمة ، أو خالط النابغين من علماء الأزهر الآن ، فإنك لن ترى نبوغهم مصبوغا بصبغة العلوم التى يتلقونها فى ذلك المعهد القديم ، بل تراه مطبوعا بطابع الزمن الذى

يعيشون فيه ، والذى كان يجب أن يكون التعليم فى الأزهر مصبوغا به ومطبوعا عليه ، لو وجد هذا المعهد من يعنى به من زعماء الإصلاح .

فى الأزهر الآن جماعة من عشاق النهوض ، تراهم إذا زرت الجامعة المصرية ، أو مدرسة الأزهر الفرنسوية ، تراهم فلا تشعر بغير الإعجاب بهم والإعظام لهم ، ولكنك تشعر بعد ذلك بكثير من الألم الممزوج بالإشفاق ، إذا قيل لك إن هؤلاء قد يحسبهم زملاؤهم وأشياخهم غير مهتدين !!

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر   لنفسى تقاها أو عليها فجورها

هؤلاء الشواذ — فيما يرى بعض الشيوخ — هم زينة الأزهر فى القديم والحديث ، وهم الذين اضطروا القائمين بالأمر فى المعاهد الدينية إلى أن يتأملوا قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه « علموا أبناءكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم » وهم الذين تذهب نفسهم حسرات كلما رأوا وقوف الأزهر عند مبدئه العهيد ، وشهدوا الزمن يمشى بأهله إلى ذرى المجد الشامخ — ألا إن التقدم حركة ، فويل للواقفين !.

كل ما فى الأزهر من علم وكل ما فيه من أدب ، إنما هو من آثار الذكاء الذى قبره الزمن فى تلك البقعة المحجوبة عن النور والضياء ، وليس لتلك الإدارة المهدمة الجوانب غير ما نراه من عموم الجمود وشمول الخمود ! فمتى يبعث الله لهذا البيت العتيق من يأخذ بيده من تلك الهوة التى تردى فيها بفضل ما لأبنائه من عقوق ؟ ومتى يتحقق الأمل فى عشرين ألفا من الرجال ، قضى عليهم الجد العاثر والنجم الآفل ، أن يكونوا وقودًا للهيب الهمجية ؟.

اللهم غفرًا ! يزهر العلم فى كل بلد ؛ ويتقدم أهله فى كل قطر ويكون حظ الأزهر من بين جامعات العالم ، كحظ مصر من بين الأمم . ثم يعيش الأزهريون عيشة النائمين : لا هم أحياء فينتفعوا بما فى الكون من مظاهر الحياة ، ولا هم أموات فيحظوا بما بعد الموت من نعيم !.

تلك آمالنا قضى عليها الإهمال ، وهذى آلامنا يضاعفها إصرار « المصلحين » على دفننا أحياء فى تربة اليأس القاتل ، ولكنا سندفنهم بحول الله فيما ندفن من بقايا الخمول ! فهل أدلكم على سبيل النجاة أيها الرفاق المتألمون ؟.

عليكم بالنظر فى كتب المتقدمين من الشرقيين ، والمتأخرين من الغربيين ، ثم اتركوا الحثالة التى جاءت بين هذين العهدين لحضرات الزاهدين فى التجديد ، إنكم إن فعلتم ذلك ظهرتم عليهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا .

٤

لقد آن للأمة المصرية أن تنظر فى نظام الأزهر ، وحياة الأزهريين ، فإنه لم يبق شىء من خرافات العصر المنصرم ، يوم كان الناس يظنون أن الأزهر باب الرحمة ، ويوم كانوا يحسبون أن الجلوس فى حلقات العلم ضمان من الفقر وأمان من النار ؛ ويوم كان العامة ينسبون لشيخ الجامع حركات الأفلاك ونظام الكواكب . كل ذلك قد تبدل ، وأصبح الناس أمام أمر واقع ، وهو أن الأزهر معهد علمى يجب أن ينال من الأنظمة النافعة

ما يضمن له البقاء والثبات .

جالس من شئت من العلماء ، وحادث من أردت من الطلاب ، فلن تجد غير اليأس القاتل ، والهم الشامل ، ولن ترى لهم من أمل فى غير الحياة الثانية ، وهم الذين خلقوا ليكونوا زينة الآخرة والأولى .

هل تتفضل المشيخة الجليلة فترينا قائمة الأعمال التى أصلحت بها نظام الأزهر فى العهد الأخير ؟ وهل يتفضل القائمون بالأمر فيفصحوا لنا عن نياتهم فى الإصلاح المنشود ؟ وهل همّ جماعة منهم بدرس نظام الجامعات حتى يعرفوا ما هم عليه ، وما يحتاجون إليه ؟ وهل راقبوا الله فى النفوس التى قضى عليها أن تكون تحت إدارتهم ؟ وهل فكروا فى نتائج التهاون الذى يرتعون فى أرجائه الفسيحة ؟ ثم هل آن لهم أن يعرفوا أن الأزهر إنما أنشىء ليكون مصدرًا للسعادة لا منبعًا للشقاء ؟!

أيروقكم أن نحسبكم مشغولين بما أسبغ الله عليكم من النعمة ، كما يتحدث بذلك من يتأمل فى حاضر الأزهر وماضيه ؟ فهل أنتم ناظرون فيما منى به هذا المعهد من التأخر والانحطاط ؟ وهل تبيض وجوهكم أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ بما تعتزمون المضى فيه من إلحاق الأزهر بالجامعات التى سامته فيما سلف حتى سمت عليه ؟ وهل نجد فى المستقبل الباسم ، ما ننسى به هذا الحاضر العابس ؟.

لقد طفح الكيل ، وأغرقت الأمانى فى بحور اليأس ، وأصبح الأزهريون وكأنهم من أمة غير هذه الأمة ، وقطر غير هذا القطر ، وإلا فلماذا يحرمون وحدهم مما يتمتع به غيرهم من الأمل الضاحك والعيش النافع ؟.

هذه كلمات نكتبها ونحن آسفون ، وكنا نود لو أن شيوخنا أغنونا عن التفكير فى غير العلم ، ولكنهم أرادوا ألا نقرأ صحيفة فى كتاب إلا ونحن محزونون ، وأن لا نخط سطرًا فى صحيفة إلا ونحن متألمون !.

فيارب هل إلا بك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعـول

٥

رغب المسيو فرناند فور الأستاذ بجامعة باريس ورئيس الجماعة التى استقدمت لامتحان الحقوق الفرنسوية بمصر أن يزور الأزهر الشريف ، فسألنى حضرة أستاذى المسيو بابانى المحامى أن أرافقه فى هذه الزيارة فقبلت ذلك ؛ واقترحت تأخير الزيارة أسبوعا حتى يعود الطلبة إلى الدروس وكانوا إذ ذاك فى مسامحة المولد النبوى . وحددنا للزيارة يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٠ فى اليوم الثانى من عودة الدراسة ، وكنت أظن أن الدروس إن لم تكن تكاملت فى اليوم الأول فلا بد أن تتكامل فى اليوم الثانى ولكن خاب هذا الأمل ، وتبين أن الأزهر لا يزال مطلق العنان وأن الطلبة إلى الكسل مخلدون !.

دخلنا الأزهر بعد الظهر ، ثم مشينا معا بعد أن تبودلت التحيات بين القادمين والمستقبلين . وكنت عزمت أن أتأمل نظرات هؤلاء الزائرين لهذا البيت العتيق عسانى أعرف ما نحن عليه ، وما نحن فى حاجة إليه ، ولكنى لم أمش بضع خطوات حتى خيل إلى أن هذا المعهد بقية من بقايا العصور الذواهب ، وأنه يجب علىّ أن أفهم هؤلاء الناس أن الجامع الذى

يجوسون خلاله ليس معهدا للعلم ولا مسجدا للصلاة ، ولكنه طرفة عادية « أنتيكة » يؤمها المتشوفون لآثار الزمان الغابر !.

وما ظنك أيها القارئ بمسجد ليس فيه من الحصير ما يقى الجالسين عنت الرطوبة ، التى تكمن فى مثل هذا المكان الذى ينخفض عن الشارع مترين فى بعض نواحيه ؟ وماذا عسى أن أجيب به هؤلاء الزائرين إذا قال قائلهم : ما بال طلبة العلم عندكم يجلسون على الحجر العارى من الغطاء ؟ وكيف أصبر على نظراتهم إلى الطلبة الذين يتململون من قسوة المكان الذى يجلسون فيه ساعات وهو قاتل ؟.

وكم تمنيت وقتئذ لو أن أعضاء المجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية حضروا هذه الزيارة الجميلة ، ليشرحوا لهؤلاء الأجانب السبب فى جعل الأزهر مقبرة لطائفة كبيرة من الطلاب ! ولعل منهم من درس فى الجامعات الأوربية أو الأمريكية ، ورأى فى أبهة تلك الجامعات ما يصرف الطلبة عن العلم الصحيح ؛ فيبين للزائرين فضل الخشونة على العلم ، ويكشف الغطاء عن الصلة بين الظلمة التى تغشى جوانب الأزهر ، وبين نور العلم الذى يهديه للناس !!.

هاتوا شبابى أيها الرؤساء . فقد ذهبت به أيام الأزهر السوداء !. هاتوا أملى فقد ذوت أغصانه فى ذلك البيت العتيق !.

كانت هذه الخطرات تمرح فى ثنيات نفسى وأنا أصحب أولئك الزائرين ، وكنت كلما غلب على الخجل لبعض دلائل الإهمال ، أرفع بصرى إليهم وأقول بصوت خافت : « لقد فكر أولو الأمر فى إصلاح الأزهر وسيفرشونه بالأبسطة الفارسية بعد حين ! » غير أن هؤلاء الفرنسويين على جانب عظيم من أدب الخطاب فكانوا يقولون : « إن

التجهم الذى يستقبل به الأزهر زائريه قطعة من جماله ، لأنه يمثل عهدا من عهود التاريخ » .

مرحى مرحى ! يسركم منظر الأزهر لأنكم ترون فيه مظهرًا من مظاهر الحضارة القديمة ، وما يضيركم لو أصبح الشرق كله رواية تاريخية تقرؤون حديثها فى كتب الغرب ، وتنظرون أشخاصها فى مصر وفى فارس !!.

٦

وإن تعجب فعجب قول بعض الأزهريين : اجتهد فى أن تفهمهم أن الأزهر أقدم جامعة علمية . ألا فلتطمئنوا — من هذه الناحية — فقد أفهمتهم أن الحضارة الشرقية أصل للحضارة الغربية ، وأن الأزهر مصدر العلم الذى ينعمون به الآن.. ولكن هل أستطيع أن أقول لهم إن نظام الأزهر خير من نظام السوربون ، وإن الحصير الممزق الذى يجلس عليه الطلبة هنا خير من الأرائك التى تتكئون عليها هناك ، وأن الأحجار المنثورة حول الأزهر يتعثر فيها الطلبة فى الغدو والرواح ، أجمل من الحدائق المحدقة بالسوربون يشم شذاها الطلبة فى الضحى والأصيل ، وإن الكتب المملوءة بالأغلاط والتى ترد البصر وهو حسير ، أنفع من الكتب الممتعة النفيسة التى يقرؤها الفرنسيون ، وهل أستطيع أن أقول : إن جامعة الأزهر فى بؤسها الفتاك ، خير من جامعة باريس فى نعيمها المرموق ؟.

حقا إن فينا من يقنع من المجد بالطلل الدارس ، والرسم الطامس ،

وفينا من يرضى باللفظ وإن باد معناه ، ويقنع بالاسم وإن ضاع مسماه ! فيارحمة الله لهذه الأمة الآفلة النجم العازبة الحلم !!

٧

مشينا ننظر ذات اليمين وذات الشمال ، لنتبين فى وجوه الطلاب دلائل الجد والنشاط ، وأنا أعلم أنه ليس للطالب الأزهرى مثيل فى صبره على أعباء الحياة العلمية ، وكذلك راقنا منظر أولئك الجادين فى البحث والتنقيب ، وسرنى أن ليس لهؤلاء الفرنسويين معرفة باللغة العربية ، حتى لا يصح لديهم أن الكتب التى بأيدى الطلاب تماثل ما فى شكل الأزهر من الغلظة والجفاء !

ولقد بدا لنا أن نزور دار الكتب الأزهرية ، وكانت الساعة لم تصل إلى النصف بعد الظهر ، ففوجئنا بأن المكتبة أغلقت ، وأن لا سبيل إلى زيارتها إلا فى ضحى الغد ، فأخذت أفكر فى أمر هذه المكتبة التى لا يتمتع بها أحد من الناس ، والتى تشبه دار الآثار فى أن لا حظ لأحد منها إلا أن ينظر ما اشتملت عليه بدون أن تنالها يمناه ، أستغفر الله ! بل تشبه الرسوم الدوارس ، ليس للمرء من حظ إلا أن يعرج عليها فى الغدو والرواح .

٨

عدنا فى اليوم الثانى مبكرين لزيارة المكتبة الأزهرية ، فدخل الزائرون وهم يتحرقون شوقا إلى الوقوف على حركة التأليف عند العلماء ، وأخذوا يسألون عن الكتب القديمة والمؤلفات الحديثة ، فقلنا لهم : إن هذه المصنفات يغلب عليها القدم إلا بعضًا منها مثل كتاب التوحيد للأستاذ الشيخ حسين والى ، ولكن الأزهريين لا يعرفون شيئا عنه لأنه فى رأيهم قد خلص المسائل العلمية من المناقشات اللفظية ، وهم لا يزالون مضطرين إلى طرائق البحث القديمة ليجتازوا الامتحان !

وهنا أكل إليك أيها القارئ وصف ما يجده مثلى من الخجل فى مثل هذا الموقف ، فقد تعرف أن الفرنسويين يعدون الكتاب قديما إذا مرت عليه ست سنوات ، وهم لا يرضون عن العالم إلا إذا ترك ثروة علمية ، فأما علماء الأزهر فقلما يعنون بالتأليف ، وكذلك كانت المكتبة خالية من كل ما يصل بين الماضى والحاضر !.

٩

كنت رأيت أن لا أتم وصف زيارة أولئك الفرنسويين للأزهر الشريف مجاراة لمن يرون فى هذا الوصف خروجا على الأدب ومروقا من الوفاء ، لولا أن لقينى بعض العلماء وشرح لى ما فى التغاضى عن النقد من الفساد العاجل ، والكساد الآجل ، ورغب فى أن أذكر هذه الزيارة

بالتفصيل ، وأنا أذكر هنا ملاحظة واحدة وأعتذر عن البقية ، فإن النفوس لم تتهيأ بعد لأن تتقبل كل ما ينفع وتتجنب كل ما يضر .. وخذ من جذع ما أعطاك !.

كان هؤلاء الناس يسألون برفق عما لم يهتدوا إلى فهم معناه ، ولقد تعرف أن كل ما فى الأزهر يستوقف النظر حتى كأنه كتلة من ألغاز الحياة لا يفهمها إلا من كتب عليه أن يكون جزءًا متصلا بهذه الجماعة التى تتكون منها مجموعة الشقاء ، وكذلك كنت أعرف مواقع الألم من نفوس الأزهريين ، ومواضع العجب من أفكار الفرنسويين ، لأن التنافر ظاهر بين معاهد العلم هنا وهناك ، ولأنى أعرف الفرق بين حياتين تتفجر من أحداهما ينابيع الأمل الباسم والعيش الوادع ؛ وتثور من أخراهما براكين اليأس والقنوط !!.

ما مررنا بدرس من تلك الدروس إلا وجدنا من بين الطلبة من هجم على رأسه الشيب ، وأنقض ظهره التقوس ، وآذن نجم شبابه بالأفول .

ويكاد المسيو فور يتبين بيده ما رأت عيناه ثم يقبل على ويقول :

— أصحيح ما أرى من أن ثلث الأزهريين فارقوا سواد الشباب ؟

وهل تجدب أرض العلم عندكم حتى يشيب المرء وهو ينتظر الإزهار والإثمار ؟ ومتى يخلص هؤلاء من التحصيل ، حتى يفرغوا لتعليم الجهال ؟.

كان يقدم إلى هذه الأسئلة وهو يبتسم ، فبدا لى أن أنشده قول ابن الرومى :

شاب رأسي ولات حين مشيب　　وعجيب الزمــان غير عجــيب
قد يشيب الفتى وليس عجيبا　　أن يرى النور فى القضيب الرطيب

فأخذ يحاورنى ويقول : إنى لا أشك فى أن فيهم من جاوز السبعين ، فأقسمت بالله جهد يمينى أنهم شباب ، وأن نظام الأزهر هو الذى عجل لهم المشيب ! ثم هممت أن أذكر له الحديث « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » ولكنى لم أشأ أن أدله على أن نظام الأزهر مما يرضى عنه الله ورسوله ، وإلا كنت من الخاطئين !

* * *

صدر حديثا

مستقبل الثقافة فى مصر

فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١٩٣٠ نشر الدكتور زكى مبارك مقالا فى مجلة الرسالة حول كتاب الدكتور طه حسين « مستقبل الثقافة فى مصر » ، والمقال على صفحات الكتاب الذى أعدته وقدمته الكاتبة كريمة زكى مبارك ، ونشرته دار الجيل ببيروت تحت عنوان « زكى مبارك وهؤلاء » .

وما يهمنا هنا هو كلام الدكتور زكى مبارك عن مهنة التعليم فماذا قال زكى مبارك ؟.

ناقش طه حسين فى كلامه عن النزاع بين الأزهر ودار العلوم فقال :
يجب أن يكون مفهومًا أنك أَلَّفت كتابك لغاية بريئة من الهوى لأنك عميد كلية الآداب ، وعميد كلية الآداب يشرع للناس مذاهب الحق .
وقد تأملت كلامك فوجدته يحتاج إلى تصحيح .

ولعلك تعرف أن هواى ليس مع الأزهر ولا مع دار العلوم ، وإنما هواى مع الجامعة المصرية ، والفرق بينى وبينك أنى لا أكتم هواى كما تكتم هواك . وما أعارضك فى هذه القضية إلا لأنك سلكت فيها مسلكًا يخالف العقلية التى صبغتنا بها الجامعة المصرية ، وهى التعمق فى درس الأغراض والمعانى .

أنت وازنت بين الأزهر ودار العلوم والمعاهد المدنية ، وقام عندك الدليل على أفضلية الأزهر ، لأنه أخرج للناس : محمد عبده وسعد زغلول

ومصطفى عبد الرازق ؛ وأفضلية المعاهد المدنية لأنها أخرجت للناس : إبراهيم عبد القادر المازنى ، وأحمد لطفى السيد ، ومحمد حسين هيكل ؛ وسقطت عندك دار العلوم لأنها لم تخرج أمثال هؤلاء .

صدقت يا دكتور بعض الصدق ، فدار العلوم لم يكن لأبنائها ماض فى السيطرة على الحياة الأدبية على نحو ما يسيطر : هيكل ، والمازنى ، والعقاد ، وطه حسين ، والزيات .

ولكن كلامك على صدقه أحزننى ، وليتك استشرت عميد كلية الآداب قبل أن تنشر هذا الكلام المحزن الموجع .

أحزننى كلامك لأنه اصطبغ بالمغالطة والإسراف .

أنت رجل معلم يا دكتور ، ومن العيب عليك أن تؤذى إخوانك المعلمين . أتراك تؤمن فى سريرة نفسك بأنك لم تحكم فى هذه القضية بغير العدل ؟.

تعال أناقشك الحساب .

إن رجال دار العلوم قد اشتغلوا جميعًا بالتعليم ، ومهنة التعليم تقتل الأديب أبشع القتل . وأين المعلم الذى تسمح له وزارة المعارف بأن يستوحى الحياة كما يستوحيها الأدباء الذين سيطروا على هذا الجيل ؟

أين المعلم الذى تسمح له وزارة المعارف بأن يصف جمال السابحين والسابحات فى شواطئ الإسكندرية وبورسعيد ، كما صنع الشاعر فلان ؟

أين المعلم الذى يستطيع وصف الصراع بين الهدى والضلال بدون أن يخاطر بمركزه فى الحياة التعليمية كما وقع ذلك للدكتور فلان ؟.

أنت تعرف أنى جاهدت أعنف الجهاد لأخلق لنفسى شخصيتين :

شخصية المدرس وشخصية الأديب ، ومع ذلك لم أسلم من عدوان السفهاء .

ومتى سيطر لطفى السيد على الحياة الأدبية ؟.

كان ذلك يوم كانت حياته خالية من قيود التعليم ، فلما صار مديرًا للجامعة المصرية توقّر وتزمت حفظًا لحرمة التعليم .

ومتى سيطر المازنى على الحياة الأدبية ؟.

كان ذلك بعد أن ترك مهنة التدريس وتفرغ لاستيحاء الحياة ، ولو بقى المازنى معلمًا لكان مصيره مثل مصير زميله عبد الرحمن شكرى الذى كان يحس مثل لسع العقرب كلما أشار كاتب فى جريدة إلى أن له أشعارًا فى الغزل والتشبيب .

ومتى سيطر مصطفى عبد الرازق على الحياة الأدبية ؟.

هل يعرف الجمهور شيئًا من تلك السيطرة ؟ وهل يجرؤ مصطفى عبد الرازق على إعلان ما كتب من الوجدانيات ؟.

إن مصطفى عبد الرازق كتب أجمل ما كتب بإمضاء مستعار لا يعرفه غير الخواص ، وكان ذلك لأن حياته فى التعليم الدينى والمدنى قضت بأن ينسحب جهرةً من الحياة الأدبية .

الحق يا دكتور أن رجال دار العلوم لا يطلب منهم إلا أن يكونوا معلمين صالحين ، وقد كانوا بالفعل .

وهنا أوجه إليك كلمة مرة ستؤذيك أشد الإيذاء : من الذى زين لك أن تعتدى على الجنود المجهولين ؟ أنت تعرف أن الفرنسيين يسمون التعليم Métier sans gloire .

وما أشقى من يعانى مهنةً بلا مجد !.

لك يا دكتور زميل فاضل اسمه إبراهيم مصطفى ، وهو كالفراء سيموت وفى نفسه شئٌ من حتى .

فهل يرضيك أن تتجاهل مثل هذا الرجل لأنه لم يسيطر على الحياة الأدبية و لم يشترك فى تكوين الجيل الجديد ؟.

و من الذى يسمع اليوم باسم أستاذى وأستاذك سيد بن على المرصفى وله علّى وعليك فضل لا ينساه إلا الجاحدون ؟.

أكتب هذا وأنا متألم متوجع لأنى أرى عميد كلية الآداب يتجاهل تضحيات المدرسين ، ولأنى أشعر بأن هذه الأحكام الجائرة ستسقط من ميزان الحسنات أعمالى فى التدريس . ولن يعرف الجمهور غير أعمالى فى التأليف وهى لم تكن إلا ثمرات ما انتزعت من أوقات الفراغ .

وما أخافه على نفسي أخافه عليك يا دكتور ، فأنت هدف لحملات المعتسفين الذين شرعوا يقولون إن إنتاجك الأدبى قلّ وضعف ، وهؤلاء الذين لا يذكرونك إلا يوم تخرج كتابًا جديدًا ينسون كل النسيان أن لك شواغل تعليمية تفلّ نشاطك وتقل إنتاجك .

وأين المنصف الذى يذكر أننا نحدث تلاميذنا بأشياء لو دوّنت لخرج منها محصول أدبى نفيس يغمر المكاتب ويشغل الأندية والمعاهد ؟ أين المنصف الذى يذكر أن من يسيطرون على الحياة الأدبية مدينون أثقل الدَّين للمدرسين المجهولين الذين لا يعرف التاريخ أقدارهم إلا إن صاروا مؤلفين مشهورين ؟.

لك يا دكتور زميل فاضل يعيش فى زاوية مجهولة من زوايا الخمول هو

الدكتور أحمد ضيف ، وأنا أؤكد لك أن هذا الرجل يعدى صدور تلاميذه بالفكر والعقل ، وقد نفعتنى صحبته أجزل النفع ، ولكنه لا يستطيع أن يزاحمك لأنه لم يخرج من المؤلفات مثل الذى أخرجت . فمن واجبك وأنت عميد كلية الآداب أن تضع للتقدير الأدبى ميزانًا غير ذلك الميزان ، من واجبك أن تذكر أن الجمهور الفرنسى لا يعرف شيئًا عن المسيو تونلا أو المسيو مورنيه ، ولكن أمثال هذين الأستاذين لهم تأثير عظيم فى تكوين الأذواق الأدبية وإن جهلهم سواد الناس .

وسيأتى يوم ينعزل فيه الدكتور طه انعزالاً تامًا عن الجمهور ويعتكف فيما يسميه الفرنسيون Cours fermés ليحقق مع تلاميذه بعض الدقائق الأدبية والفلسفية . ويومئذ يحتاج الدكتور طه إلى من يعتذر عنه أمام الجمهور فيقول إنه يحيا حياة العلماء لا حياة الأدباء . وهل يجهل رجل مثلك أن هناك فرقًا عظيمًا بين أستاذ الأدب وبين الأديب ؟.

إن أستاذ الأدب تفسده الشهرة لأنها تشغله عن طول الأنس بالتعرف إلى الألفاظ والمعانى والأساليب . أما الأديب فيفسده الخمول لأنه يصدّه عن درس أسرار النفوس وسرائر القلوب ، ويعوقه عن معاقرة صهباء الوجود .

وأنت بحكمك الجائر تنسى أساتذة الأدب ولا تذكر غير الأدباء ، لأنهم على حدّ قولك استطاعوا أن يسيطروا على الجيل الجديد ... أترانى أفلحت فى إقناعك بخطأ رأيك ؟.

قل الحق مرة واحدة يا سعادة العِميد !.

أترك هذه الخواطر ، ثم أرجع إلى محاسبتك بصورة غير تلك الصورة .

أنت قلت إن الأزهر تخرّج فيه محمد عبده وسعد زغلول .

فهل تعتقد حقًا أن من طبيعة الأزهر أن يخرج رجالاً مثل محمد عبده وسعد زغلول ؟.

إن كان ذلك صحيحًا فأين الأزهرى الذى خلف محمد عبده ؟ وأين الأزهرى الذى خلف سعد زغلول ؟.

وما أقول به عن الأزهر أقول به عن المعاهد المدنية ، فابحث عن المنطق الذى يزكى حجتك إن استطعت ، وما أحسبك تستطيع وقد وقفت فى كلامك عند الماضى وبعض الحاضر .

فهل يحق لى أن أسألك كيف تجاهلت أقدار من أخرجت دار العلوم من الرجال الذين سيطروا على الحياة الأدبية ؟

أما يمكن أن يقال إن دار العلوم تخرج فيها عبد العزيز جاويش وحفنى ناصف ومحمد المهدى ومحمد الخضرى وعبد المطلب وعبد الوهاب النجار وأحمد السكندرى ؟ أتظن أن هؤلاء لم يسيطروا على الحياة الأدبية حينًا من الزمان ؟.

وقلت إن دار العلوم لم تغير نحو البصرة والكوفة ، فهل غيرت أنت نحو البصرة والكوفة وأنت أستاذ بالجامعة المصرية منذ عشرين سنة ؟

أنت رجل مقتحم يا دكتور ، وهذا أجمل ما فيك من شمائل وخصال ، فامض فى اقتحامك إلى غير نهاية ، فمصر لا ينجح فيها غير المقتحمين !

من حقك أن تدوس دار العلوم لأنك مقتحم ، وسيكون من واجبى أن أفرح بانتصارك ، لأنى متخرج فى الجامعة المصرية وسأقاسمك الغنائم

والأسلاب ، فآخر شهادة ظفرت بها من الجامعة المصرية مذيلة بإمضاءات أحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل وطه حسين . ولكن يعزّ علىّ وعليك أن تنهزم دار العلوم بعد أن صنعت فى التاريخ الحديث ما لم يصنع الأزهر ولا الجامعة المصرية ، مع الاعتراف بفضل هاتين الجامعتين العظيمتين .

يعزّ علىّ وعليك يا دكتور أن ينهزم معهد كان من رجاله أساتذتى وأساتذتك . أنت تعرف يا دكتور أن كلية الآداب انتفعت بأساتذة دار العلوم .

وتعرف يا دكتور أن كلية اللغة العربية انتفعت بأساتذة دار العلوم . فأرجوك باسم الأدب العالى أن تذكر ذلك المعهد بكلمة رثاء يوم يموت !.

أيها الأستاذ الجليل .

فى كتابك كثير من مواطن القوة ، ولكن يعوزه المنطق ، أنت تتحسر أشد التحسر على الفرصة التى ضاعت على دار العلوم فى الانضمام إلى الأسرة الجامعية ، ولكنك نسيت أن سلامة دار العلوم هى فى البعد عن تلك الأسرة الجامعية . وأنت نفسك تذكر أنك قلت غير مرة إنك لا تفهم أن يكون فى الجامعة باب يُغلق بعد ابتداء الدرس !

فما رأيك إذا حدثتك بأن دار العلوم معهد لا يقل خطرًا عن المدرسة الحربية ، وأن من الواجب أن يراعى فيه نظام المواظبة بالثوانى لا بالدقائق ؟

ما رأيك إذا حدثتك بأن طلبة دارِ العلوم يجب أن يُراضوا على الأنظمة العسكرية فلا يعرفوا من الحرية الشخصية ما يعرف أمثالهم فى كلية

الآداب ؟ يجب أن يكون مفهوما بينى وبينك أننا لا نفكر فى منافعنا الذاتية ، فأنا أدفع ما يتهمكُ به خصومك من حب السيطرة على أكبر عدد ممكن من المعاهد .

وإذًا يكون من المنفعة الوطنية أن نفكر جميعًا فى إعداد معلم اللغة العربية إعدادًا فنيًا ، لا جامعيًا ، فإن لم نكتف بذلك فلا بأس من أن نقترح أن يظفر مدرس اللغة العربية بدرجة جامعية بعد التخرج فى دار العلوم على الأساليب التعليمية .

وتجاريبى فى التفتيش أقنعتنى بصحة ما أقول ، فقد لاحظت أن المدرسين المتخرجين فى كلية الآداب يتفوقون فى أشياء ويقصرون فى أشياء ، كما لاحظت أن المتخرجين فى دار العلوم يتفوقون فى أشياء ويقصرون فى أشياء ، ولذلك تفصيل يضيق عنه هذا الحديث ، فإن أمكن أن يجمع مدرس اللغة العربية بين المزيتين كان لذلك أثر بالغ فى تكوين الجيل الجديد .

وهذا الذى أقول به لا يوجب إلغاء دار العلوم ولا تغيير نظام كلية الآداب ، وإنما يوجب أن يتعرف هذان الجيلان بعضهم إلى بعض بلا بغى ولا عدوان .

ويظهر من كلامك أنك راض كل الرضا عن الجامعة المصرية ، ولكنك نسيت أن هذه الجامعة لم تصنع شيئًا فى إصلاح ما سيطرت عليه من المعاهد العالية .

هل تعرف يا سعادة العميد أن لغة التدريس فى كلية الطب هى اللغة الإنجليزية ؟.

وهل تعرف أن لغة التدريس فى كلية العلوم هى اللغة الإنجليزية ؟.

لقد نشرتُ أكثر من سبعين مقالة فى دعوتكم إلى جعل اللغة العربية لغة التدريس فى جميع المعاهد العالية فلم تقابلونى بغير الصمت البليغ . وكانت النتّيجة أن تسبقكم الجامعة الأمريكية فى بيروت إلى تحقيق هذا الغرض النبيل .

وتكلمت يا سعادة العميد عن وجوب الإكثار من الترجمة ، وكان الظن أن تذكر أنى استطعت مرة أن أقنع وزارة المعارف بوضع نظام لخريجى البعثات يوجب ألا يظفر المتخرج فى البعثات بأية ترقية إلا بعد أن يترجم كتابين من غرر المؤلفات الأجنبية فى العلم الذى تخصص فيه . وقد أقرت وزارة المعارف ذلك النظام وأعلنته إلى مبعوثيها فى المعاهد الأوربية والأمريكية ، ويقول المرجفون إنك ساعدت على تقويض ذلك النظام بمعونة رجل من أصدقائك تولى وزارة المعارف ، وكان ذلك فيما يقال لأنه نظام اقترحه رجل اسمه زكى مبارك وأقره وزير اسمه حلمى عيسى باشا .

فهل يكون معنى ذلك أن الخير لا يكون خيرًا إلا حين تقترحه أنت ويقره وزير من أصدقائك ؟.

ونسيت يا سعادة العميد أن كلية الآداب تقول أكثر مما تفعل ، فإن لم يكن ذلك صحيحًا فحدثنى أين مجلة كلية الآداب التى لم نر منها غير ومضات ؟.

ونسيت أيضًا أنك تقول أكثر مَما تفعل ، فأنت تدعو الدولة إلى إعفاء الأدباء من أعمالهم الرسمية ليتفرغوا للبحث والدرس ، ثم ننظر فنراك

تساعد الدولة والدهر على ظلم الأدباء .

فإن لم يكن ذلك صحيحًا فحدثنى كيف اتفق ألا تتحدث فى الإذاعة اللاسلكية ، ولا تكتب فى الجرائد إلا عن مؤلفات من تصطفيهم من الباحثين ، مع أنك مسئول بحكم منصبك العالى عن الخلوص من شوائب الأهواء ؟.

كان الظن أن تذكر أن من واجب الجامعة المصرية أن تحاسب نفسها قبل أن تحاسب الناس ، ولكنك على كل حال مغفور الذنوب لأنك تتكلم فى أوقات يراها غيرك أوقات صمت وجمود .

أما بعد فإنى أعتقد أنى نوّهت بكتابك وبأعمالك أعظم تنويه ، فإن رأيت فى كلامى بعض ما لا يروقك فاعذرنى ، فقد أخذ علينا العهد ألا نقول غير الحق . وهل علمتنا الجامعة المصرية أن نصانع من يظنون أنهم يملكون من السيطرة الأدبية أكثر مما نملك ؟

سترى كيف نروضك على الاقتناع بأن القول المعسول لا يغنى عن الصُّنع الجميل .

* * *

دروس الأدب

فى المعاهد العالية

المعروف أن المعاهد العالية للتخصص : فهذا معهد يخرج الأطباء ، وذاك معهد يخرج الرياضيين والمهندسين ؛ وذلك معهد يخرج رجال الأدب أو رجال التشريع .(*)

والتخصص من مزايا هذا الزمان ، ومن آفات هذا الزمان .

هو من المزايا لأنه يقصر طوائف من الناس على طوائف من العلوم ، فنعرف إلى من نتوجه ومع من نتحدّث ، فيذهب من يشكو الرمد إلى طبيب العيون ، ويمضى مهيض الساق إلى الجرّاح ، ويتوجه الممعود إلى الطبيب المختص بالأمراض الباطنية ، وكذلك يفعل من تحرجه معضلة هندسية ، أو مشكلة قانونية .

وهو من الآفات لأنه يورث الناس ضيق الذهن ، وفقر العقل وخمود الإحساس ، فالمهندس لا يرى من واجبه أبدًا أن يفكر فى تهذيب ذوقه بالنظر فى بعض المؤلفات الأدبية أو الفنية ، والمشرّع لا يرى من واجبه أبدًا أن يحرص على تثقيف عقله بالنظر فى بعض المصنفات الرياضية أو الطبية ، والأديب يرى أنه لم يخلق إلا لدرس آثار الشعراء والكتاب والوقوف على

(*) من كتاب « وحى بغداد » طبعة أولى ص ١٠١ مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

ألوان الأساليب .

وقد انتهز المتخصصون فرصة الغفلة الفاشية فى هذا العهد فأعفوا أنفسهم من كل ما يعود بالنفع على الذهن والعقل والذوق ، فصار الأديب يجالس الطبيب فلا يحس أنه يخاطب رجلا من أهل هذه الأرض ، وإنما يخاطب مخلوقا من سكان المريخ ، وصار أستاذ الأدب ينكر على طلابه أن يوجهوا إليه سؤالا فى مشكلة نحوية أو صرفية ، لأنه فيما يزعم غير مسئول عن علوم المبرد والكسائى وسيبويه ، وإنما هو رجل تخصص فى درس آثار الكتاب والشعراء والخطباء ، وصار المحامى أو القاضى لا يسوءه أن يجهل الأوليات من المسائل الأدبية أو العلمية .

* * *

ذلك تصوير لمزايا التخصص ومساويه ، وتصوير لأحوال المتخصصين فى هذا الزمان .

وأقول بصراحة إنى ثائر على التخصص الذى يصل بأصحابه إلى ذلك الحد من ضيق العقل ، وقد حملت على هذا الضرب من التخصص أعنف الحرب ، وكلفت نفسى ما تطيق وفوق ما تطيق فى الطواف بعلوم كثيرة كان لها أثر ظاهر فيما أخرجت من المؤلفات الأدبية والفلسفية ، وأحب أن يكون طلاب العلم والأدب فى هذا الزمن من الثائرين على الإسراف فى فهم التخصص ومن المقبلين على المشاركة فى جميع الفنون ، وإليهم يساق البيان :

كان أقطاب العلماء فى الزمن القديم يجهلون التخصص ، أعنى أنهم لم يكونوا يقصدون إليه قصدًا ، وإنما كانوا ينتهون إليه وفقًا لوحى الفطرة

والطبع ، فالعلماء الخالدون من أمثال أرسطاطاليس وأفلاطون وابن سينا والفارابى وابن رشد والجاحظ وابن خلدون والقلقشندى ومحمد عبده وعبد العزيز جاويش ، هؤلاء العلماء فى التاريخ القديم والمتوسط والحديث لم يكونوا يعرفون التخصص ، وإنما كانوا يفهمون أن من واجبهم أن يطلعوا على ما يمكن الاطلاع عليه من المعارف الإنسانية .

ولا يجهل أحد أن أمثال أولئك العلماء كانوا على جانب عظيم من التفوق والبصر بحقائق الحياة .

وقد أشرت إلى أنهم انتهوا إلى التخصص بوحى الفطرة والطبع ولم يسمحوا لأذهانهم وعقولهم بأن تنصرف عمدًا عما تتطلع إليه الأذهان والعقول ، فكان لثقافتهم الواسعة أثر فيما تخصصوا فيه ، وكان اطلاعهم الشامل يفتح لهم فيما تخصصوا فيه أبوابًا للبراعة والسبق والتفوق .

وهل يستطيع المتحذلقون من شبان اليوم أن يفقهوا كيف كانت ثقافة ديكارت وباسكال ؟

وهل فيهم من يدرك كيف كانت ثقافة سبنسر أو كيف كانت معارف أناطول فرانس ؟

وما أدعو إليه اليوم كنا حاولناه مرة فى الجامعة المصرية ، ثم أخفقنا بفضل الحذلقة التى تغلب على شبان هذه الأيام ، فقد كان تقرر أن لا يدخل الطالب كلية الحقوق إلا بعد أن يمضى سنتين فى كلية الآداب ، وأن لا يدخل الطالب كلية الطب إلا بعد أن يمضى سنة فى كلية العلوم ، وسارت الجامعة المصرية على هذا النظام أعواما قليلة ، ظهر أثرها فى طوائف من المحامين والأطباء . ثم أسرف الطلبة فى الصراخ فأعفتهم

الجامعة من ذلك النظام المفيد ، ومن الواضح أن ذلك النظام كان فى جوهره حربًا على الإسراف فى فهم التخصص ، فقد كانت الجامعة تفهم أن طالب الحقوق لا يمكن أن يبرع فى فهم أسرار القوانين إلا إن أمضى سنتين فى كلية الآداب يدرس فيهما علوم اللغة العربية وعلم النفس وعلم الأخلاق ويتعمق بعض التعمق فى اللغات الحية وفى الجغرافيا والتاريخ .

وكانت الجامعة تفهم أن طالب الطب لا يعتمد عليه إلا إن أمضى سنة فى كلية العلوم يدرس فيها الطبيعة والكيمياء والرياضة درس الفهم والتثبت ليكون فى المستقبل من الأطباء العلماء .

* * *

ونحن اليوم نحاول أن نضع للحياة العلمية فى العراق أصولا من التقاليد الصالحات ، فهل ترون من الخير أن نحقق ما عجزت عن تحقيقه الجامعة المصرية ؟

ما الذى يمنع من ذلك ؟ أفى الحق أن وزارة المعارف العراقية قد تلاين الطلبة كما صنعت وزارة المعارف المصرية ؟

ولكن إلى أن يتحقق ذلك الغرض المنشود أرى أن يفرض درس الأدب العربى على جميع الطلاب فى المعاهد العالية ، وإليكم موجبات هذا الاقتراح :

أولاً — نحن فى العراق نحاول جهد الطاقة أن نعيد مجد الأسلاف فى حيواتهم العلمية والأدبية والفلسفية ، وكان أسلافنا جميعًا معروفين بالتفوق فى اللغة العربية . فما كان فيهم طبيب ولا مهندس ولا مشرع إلا وله آثار نظمية ونثرية تشهد ببراعته فى الأدب والبيان .

ثانيًا ــ نحن نحاول نقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية : وهذا يوجب أن يكون الرياضيون والمهندسون والمشرعون والأطباء قادرين أتم القدرة على التعبير باللغة العربية تعبيرًا يذكّر بابن سينا وابن رشد وابن البيطار والغزالى والكمال بن الهمام وإمام الحرمين .

ثالثًا ــ سيكون أكثر أبنائنا من شبان العراق مدرسين فى المدارس الثانوية والمعاهد العالية ، وهؤلاء لا مفرّ لهم من أن يشعروا تلاميذهم بأنهم يتكلمون لغتهم العلمية ، كما يتكلم المدرسون الأوروبيون لغتهم العلمية .

رابعًا ــ سيكون أكثر أبنائنا من شبان العراق مسئولين عن تثقيف الجمهور ، وهذا الجمهور لغته العربية ، وهو فى بعض أحواله يفهم لغته بأدق مما يفهمها المتحذلقون من شبان هذا الزمان .

* * *

أما بعد فإنه من العيب أن يقع ما عبته مرة على أستاذ مصرى ألف كتابا فى علم النفس فكانت مراجعه كلها إنجليزية ، ولم يشر مرة واحدة إلى رسائل إخوان الصفاء ، مع أن فى تلك الرسائل كثيرا من أمهات المسائل فى علم النفس وعلم الأخلاق .

ومن العيب أن يقع ما سمعت من أن مكتبة كلية الحقوق فى بغداد ليس فيها نسخة من شرح فتح القدير على الهداية ، ومن العيب أن يستغرب بعض الطلبة فى دار المعلمين العالية أن أكلفه درس مسألة فقهية ، مع أن الفقه جانب من الأدب يصور مشكلات المجتمع فى الحواضر الإسلامية .

ومن هذا يرى القرّاء أن أفق الأدب أوسع مما يظنون ، وأنه واجب كل الوجوب فى تثقيف جميع الطلاب . * * *

(الفكر التربوى)

التعليم العالى والتعليم الثانوى

يرى المفكر التربوى الكبير الأستاذ الدكتور زكى مبارك أن الشبان بين العاشرة والعشرين صالحون لفهم أصعب الدقائق ، وأنه يجب أن نجعل مرحلة التعليم الثانوى مرحلة حاسمة فى تكوين عقول الشبان ، بحيث لا يحتاجون إلى المعاهد العالية إلا إذا تساموا إلى الأستاذية فى مختلف العلوم والفنون . فالتعليم الثانوى يجب أن يكون إعدادا لخوض معترك الحياة بلا تهيب ولا إشفاق .

ويرى زكى مبارك أن يصبح التعليم العالى مقصورا على من يملكون الوقت والمال ولهؤلاء فرصة لن يظفر بها غير آحاد أو مئات ، وهم لن يكونوا أشرف من الشبان الذين يصارعون أمواج الحياة قبل العشرين . وأن مرحلة التعليم الثانوى هى الفرصة الحقيقية لتثقيف الشبان ، وتضييع هذه الفرصة إثم موبق .

كما يرى زكى مبارك أن من واجب كل مدرس أن يعد تلاميذه للحياة ، بحيث لا يحتاجون إلى شىء بعد التعليم الثانوى ، إلا أن يتساموا إلى الأستاذية .

ونكرر إن زكى مبارك يرى أن تكون مرحلة التعليم الثانوى هى المرحلة النهائية ، ثم يلتفت الشاب إلى حاله فيكون رجل عمل فى أى ميدان .

المؤلفان

علوم اللغة العربية

فى المدارس الثانوية

تمهيد :

جرت وزارة المعارف منذ أعوام على الاستفادة من إجازة نصف السنة بجعلها مؤتمرات للمفتشين يتبادلون فيها الآراء حول مناهج التعليم وأحوال التلاميذ .

وحديث اليوم عن الأسئلة التى وجهتها المراقبة العامة للتعليم الثانوى إلى مفتشى التعليم الثانوى ، وهى أسئلة دار حولها الجدال يومين ، وقيلت فيها أقوال تستحق التسجيل ، وقد استشرت زملائى فى إعلان بعض تلك الأقوال ، فأجابوا بالترحيب .

ظاهرة إنسانية(*) :

لا أعرف كيف دارت المناقشات بين مفتشى الرياضة والعلوم والمواد الاجتماعية ، ولكنى أعرف كيف دارت المناقشات بين مفتشى اللغة العربية .

كان الشوق إلى الكلام شديدًا جدًّا ، وكان كل مفتش يحب أن يتكلم

(*) هذا المقال على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ٢٩ / ٣ / ١٩٤٣ .

بإطناب ، وكأنه يريد أن يكون المتكلم الوحيد !

كان فى المفتشين من يقف ليخطب ، مع أن الجمهور الذى تألف منا لم يزد عن أحد عشر كوكبًا !

ومع أن شهوتى إلى الكلام قليلة لكثرة ما أعّبر بالقلم عما يجول فى صدرى ، فقد زاحمتُ بعنف لأتكلم أنا أيضًا ، وقد تكلمت حتى اشتفيت !

فما سرّ الشوق إلى الكلام حين يتلاقى الناس ؟

يرجع ذلك فيما أفترض إلى أن طرائق التفاهم عند الإنسان قد انحصرت فى طريق واحد : هو النطق ، وبذلك عُطّلت طرائق التفاهم بالرمز والإشارة والإيماء .

والظاهر أن انحصار التفاهم فى النطق فضيلة إنسانية ، فضيلة دعا إليها اشتباك الأغراض بصورة لا ينفع فيها غير التحديد بالألفاظ .

والظاهر أيضًا أن اختراع الكتابة من أعظم المخترعات الإنسانية ، لأنه يرمى إلى تسجيل الألفاظ قبل أن تضيع ، وإلى تقييد ما فيها من مسئوليات .

هل أريد أن أقول إن « المسجِّل » غاب عن اجتماعات المفتشين ، وأنهم لو كانوا يعرفون أن كلماتهم ستُسجَّل كما وقعت لاقتصدوا فى الخطابة بعض الاقتصاد ؟

إن الآداب الدينية توصى بأن نحترس ، وتوجب أن نفهم أن الإنسان ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد . فالخوف من تدوين الألفاظ بابٌ إلى أدب اللسان .

وليس معنى هذا أن المفتشين قالوا كلامًا لا ينبغى أن يقال — لا —

ولكن معناه أنهم لو عرفوا أن كلامهم سيسجَّل لأعدّوا كلامًا أقوى من الكلام الذى قيل ، مع أنه من الكلام النفيس .

كل شيء صائرٌ إلى التحديد ، فالإنسان كان يعبّر بالإشارة ، ثم ارتقى فصار يعبّر باللفظ ، ثم ارتقى فصار يعبّر بالكتابة ، وسيرتقى مرةً جديدة فتكون له لغة واحدة ، لغة محدودة لا يتطرق إليها لَبْس ، ولا يعتريها غموض .

من متاعب الإنسانية أن اللفظ الواحد فى اللغة الواحدة قد يختلف مدلوله باختلاف الأذواق ، بحيث يكون مدحًا عند هذا وقدحًا عند ذاك .

وأعصابنا تتأثر بالألفاظ ، أو باختلاف ما نفهم من مدلـولات الألفاظ ، فمتى تزول أسباب هذا الاختلاف ؟

الرأى عندى أن هذه البلبلة الخطرة من أعظم مزايا الإنسانية ، ولكن كيف ؟

القوة الحقيقية للإنسان هى قدرته الأصيلة على الظفر بأكبر محصول من اشتجار العواطف والأحاسيس والآراء والأهواء ، ولو توحدت اللغات والتعابير فزالت جميع أسباب الاختلاف لتحول الإنسان إلى صورة آليّة لا يسيّرها غير ضريم « البنزين » .

نحن نختلف أقل مما يجب ، ويا ويلنا إذا لم نختلف !

المثال الصحيح للاتفاق هو أمة النمل ، ونحن نكره التشبه بأمة النمل .

الاختلاف هو الذى خلق العلوم والمدنيات ، وهو الذى أوجب أن يكون لكل ثمرة مَذاق .

الاختلاف واجب ، أما التعادى فهو بلاء .

الإنشاء :

قالت مراقبة التعليم الثانوى : إن إنشاء التلاميذ لا تزال تكثر فيه الأغلاط النحوية والصرفية والإملائية ، ثم دعت المفتشين إلى أن يشيروا بما يرون لعلاج هذه الحال ، فماذا قالوا ؟

قال الأستاذ جاد المولى بك : إن أهم المظاهر لمعرفة اللغات هو إجادة الخطابة والكتابة ، وإن فى المدرسين أنفسهم من يصعب عليه الإنشاء ، ولعله يصعُب أيضًا على بعض المفتشين ! فمن الواجب أن يراض التلميذ على الكتابة والخطابة رياضة جدية وأن تكون قدرتهم على هذين الفنين أول ما يهم المدرسين .

وقال الأستاذ منصور سليمان : إن تعليم الإنشاء فى المدارس المصرية قد ابتُلى بآفة قبيحة ، آفة معوقة للفكر ، وهى الحرص على الزخرف وعلى الإطناب فى جميع الموضوعات . وقد رأيت فى أحوال كثيرة أن التلميذ يثاب على التطويل بأكثر مما يثاب على التدقيق . ومن هنا شاع القول بأن اللغة العربية تمتاز بالتهويل والإسراف . وشكوى المدرسين من التعب فى تصحيح دفاتر الإنشاء لا تستحق أى التفات ، لأنهم مصدر هذا التعب ، فهم الذين يوحون إلى تلاميذهم أن الإطالة من علائم البيان .

مشكلة الإنشاء :

كلام الأستاذ منصور سليمان يتيح الفرصة لأن أفصل رأيى فى هذه المشكلة ، وهى مشكلة أساسية ، فما الذى دعا إلى ضعف التلاميذ فى الإنشاء ؟

السبب الأول هو سيطرة المدرس على لغة التلميذ ، ومعنى هذا أن المدرس ينتظر دائمًا أن يعبِّر التلميذ عن غرضه بألفاظ مخزونة فى ذاكرة المدرس .

وتصحيحات بعض المدرسين تؤيد هذا القول ، فهم يدورون حول ألفاظ أعدوها لكل موضوع ، وهم يسجلون بالقلم الأحمر تلك الألفاظ تسجيلاً يظهر أثره فى جميع الكراريس .

بعض المدرسين يملون على تلاميذهم ألفاظًا وتعابير تصلح لكل موضوع ، كما يزعمون ، وهى طريقة عقيمة ، ولا يعتمد عليها غير المدرس الببغاء !

السبب الثانى هو تحكُّم المدرس فى عقل التلميذ ، فهو يطلب منه أن يفكر كما يفكر ، وأن يرى الدنيا بعينه ويسمعها بأذنيه ، ولا يخطر فى باله أن كل تلميذ له تصوُّر خاص ، وأن التلاميذ يختلفون فى الأفكار كما يختلفون فى الملامح .

وقد يتفق أن نرى التلاميذ فى الموضوع الواحد يثبتون أقوالاً وآراءً مقتربة كل الاقتراب ، فنفهم أن المدرس أنزل عليهم الوحى الكاذب أو الصادق ، وكنا نرجو أن يفكر فى تقوية مواهبهم تقوية سليمة ، وذلك لا يتم بغير دعوتهم إلى شرح ما يعتلج فى صدورهم من المعانى والأغراض شرحًا لا تهيمن عليه قوة خارجية .

السبب الثالث هو تقديم موضوعات بعيدة عن مدارك التلاميذ ، وأريد بها الموضوعات الميتة ، الموضوعات التى لا تأخذ وقودها من الحياة الواقعية .

ومَرَدُّ هذا إلى الجهل بحيوات التلاميذ ، فلهم اتجاهات فردية واجتماعية غير اتجاهات المدرسين ، ومن الواجب أن تكون موضوعات الإنشاء فى شرح تلك الاتجاهات .

وهل ينتظر المدرس أن يجيد التلاميذ فى كتابة موضوع تلقاه وهو تلميذ قبل عشرين سنة أو تزيد ؟

فى المدرسين من لا يختار موضوع الإنشاء ، وفيهم من ينقل الموضوعات التى ألقيت على تلاميذ المدرسة الفلانية ، وفيهم من يكرر الموضوع الواحد بضع سنين .

الإنشاء اسمه إنشاء .

فاختيار الموضوع إنشاء .

واللفتة الذهنية عند المدرس بابٌ من الإنشاء .

وخطأ التلميذ ، والخطأ المنقول عن طبيعته الذاتية فن من الإنشاء .

والمهمُّ هو أن نجد فى الصف المكوَّن من ثلاثين تلميذا ثلاثين صورة من التفكير والأداء ، لا صورة منسوخة من حضرة المدرس المفضال !

السبب الرابع إقبال المدرس على تصحيح الكراريس وفى ذهنه صورة محدودة للإجابات ، فهو يهمل كل فكرة منحازة عن تلك الصورة ، ولا يثيب التلميذ إلا بقدر محاذاته للعناوين التى فرضها عليه قبل الشروع فى الإنشاء .

وهذه الطريقة تقتل شخصية التلميذ ، وتميت فيه بواعث الابتداع والافتنان . وما ظنكم بتلميذ يرى الخير كل الخير فى محاكاة المدرس ، ويهمل ملكاته الإبداعية كل الإهمال ؟

ما ظنكم بتلميذ يراض على الإيمان بأن رأى المدرس هو الرأى ، وتقضى عليه التجارب المدرسية بأن يفهم أن نجاحه يقاس بمقياس رأى المدرس ؟

هذه الظاهرة موجودة بالفعل ، وهى السبب فى الإكثار من دروس الإنشاء الشفوى ، وهى دروس عقيمة ، لأن الغرض منها توجيه التلاميذ توجيهًا حرفيًا إلى الأفكار التى يحب المدرس ثباتها فى موضوع الإنشاء .

ومن أغرب ما يقع أن يقيد المدرس فوق السبورة ألفاظًا وتعابير تساعد التلاميذ على إبراز العناصر الأساسية ، وتكون النتيجة أن تكثر المبتذلات « الكليشيهات » فنرى فى الكراريس جميعًا صورًا موحدة فى الأداء ، وهذا نقل لا إنشاء .

وهنا أقترح أن تقصر دروس الإنشاء الشفوى على المدارس الابتدائية ، لأنها توجيه للمبتدئين . أما المدارس الثانوية فلا تجوز فيها دروس الإنشاء الشفوى ، لأنها تزيد فى اتكال التلميذ على المدرس ، والاتكال باب إلى البلادة والخمود .

وأقترح أيضًا أن تكتب أكثر الموضوعات فى الفصل ، ليعرف المدرس قوى تلاميذه على الوجه الصحيح .

وهل ننسى أن بعض التلاميذ يعتمدون على غيرهم فى الإنشاء ليَلقَوا المدرسين بأساليب مثقلة بالزخرف والتنميق ؟

وهل ننسى أن فى المدرسين من يغيب عنه ما فى كراس التلميذ من سرقات أدبية ؟

وهل ننسى أن فى المدرسين من لا يفكر فى الموازنة بين الموضوع

السابق والموضوع اللاحق ، ليعرف كيف يتطور تفكير التلميذ ؟

السبب الخامس غرام بعض المدرسين بالإكثار من التصحيحات كثارًا يشهد برغبتهم فى التفوق والاستعلاء .

وهذا الغرام ينفعهم عند بعض المفتشين ، لأنه دليل على التدقيق ، ودليل على الفهم لأسرار اللغة العربية ، ولعله الباعث على بعض الترقيات !

والحق أن الحبر الأحمر رخيص ، فما أذكر أنى استنفدت منه غير مثاقيل لا يزيد ثمنها عن بضعة قروش ، مع أنى قضيت أكثر من ربع قرن فى التدريس والتفتيش .

لو غلا الحبر الأحمر لا قتصد المدرسون فى تلك البرقشة الحمراء ، وهى برقشة ثقيلة الدم ، فهى تشعر التلميذ فى كل يوم بأنه تلميذ ، ولا تتيح له فرصة الشعور بأنه إنسان له وجود مستقل ، ولو بعض الاستقلال .

إذا كانت الكلمة صوابًا فى قول وخطأً فى أقوال فيجب تركها بدون تصحيح ، لأن ورودها على قلم التلميذ شاهد على أن هذا الخطأ أحيا من ذلك الصواب .

وإذا وردت كلمة عامية لها أصل بعيد من اللغة الفصيحة فيجب تركها بدون تصحيح .

دعانا الدكتور هيكل باشا مرة للتشاور فيما يجب لتقليل الأخطاء فى كراريس التلاميذ ، فقلت : إن المدرسين يوجبون حذف « الفوطة » وإثبات « القطيلة » .

فقال : وما القطيلة ؟

فقلت : هى كلمة يعرفها المدرسون ويجهلها وزير المعارف ، مع أنه من كتّاب الطبقة الأولى فى اللغة العربية .

ثم قلت : يوجد مؤلف كبير اسمه ابن الفُوطى بالفاء ، والجرائد تجهل اسمه فتسميه ابن القوطى بالقاف .

فما الذى يوجب الحذلقة بتسمية الفوطة منشفة أو قطيلة ؟

مهدوا الطريق للألفاظ الحية ، واتركوا الألفاظ الميّتة ، فما يموت لفظ إلا بعد العجز عن البقاء .

السبب السادس هو الهيام بتجميل الموضوعات بالباطل حيثما وقعت ، فملعَب الكُرَةِ فُرشَ بالبساط السندسى ، مع أن الأفضل أن يفرش بنبات النَّجيل ... والحديقة يجب أن توصف بأنها غنّاء ، ولو كانت فوق سطح البيت . وتحت يدى وثيقة تشهد بأن سطح الفندق الفلانى فى المدينة الفلانية وصف بالفرنسية مرة وبالعربية مرة فقيل بالفرنسية إنه مِنْظَر « Panorama » يرى به الناظر جميع الآفاق ، وقيل بالعربية إنه حديقة غنّاء ، مع أنه لا يتسع لغير شجيرات محبوسة فى زهريات !

ثم ماذا ؟ ... عندى كلامٌ كثير فى العوائق الذى تصد التلاميذ عن إجادة الإنشاء ، وأنا أكتب مقالاً لا كتابًا ، فمن الواجب أن أكتفى بالتلاميح .

وأنا أختم هذا المقال بالحقيقة الآتية :

هل يوجد مدرس يراقب ما يقرأ التلاميذ من الجرائد والمجلات ليجعل موضوعات الإنشاء فى حدود المشكلات التى تثيرها تلك القراءات ؟

اسمعوا ، ثم اسمعوا .

الإنشاء ليس تدريبا على إضافة لفظ إلى لفظ ، وإنما هو رياضة ذهنية يراد بها تقوية المواهب الروحية والذوقية والعقلية .

اخلقوا الشوق إلى الإنشاء بأن تقترحوا على التلاميذ موضوعات يحبون أن يكتبوا فيها . خاطبوهم بأذواقهم لا بأذواقكم وادعوهم إلى أن يكشفوا من سرائر الحياة ما تجهلون ، فهم أعرف منكم بسرائر هذا الزمان .

دعوهم يفكرون كما يريدون ، لا كما تريدون ، ورحبوا بجهلهم لأنه تباشير العصر المقبل ، ولا تنسوا أن الطفل لا ينمو إلا إن تركناه يتصرف فى حدود ما يريد .

عندى كلام وكلام فى تعليم الإنشاء ، ولكن المجال لا يتسع للإسهاب .

أما بعد فماذا قال مفتشو التعليم الثانوى ؛ سأرى وسترون فللحديث شجون .

مشكلة المشكلات(*) :

هى مشكلة الصراحة فى وزن الأمور التعليمية بالقسطاس .

وأنا مقبل على شرح تلك المشكلة بلا مبالاة ولا مداراة ، فما يهمنى أن يرضى فلان أو يغضب فلان ، لأن المنافع الوقتية لا تهمنى بشىء ، ولأن الخطة التى اخترتها لحياتى هى خطة الصدق الصريح فى جميع الشؤون .

(*) الرسالة العدد ٥٠٩ ٥ / ٤ / ٤٣ .

أقول هذا وقد شاع بين جمهور المدرسين أن مفتشي التعليم الثانوى قرروا تقليل موضوعات الإنشاء .

وأنا لن أعرض لتلك الإشاعة بنفى ولا إثبات ، لأنى لا أملك إعلان ما دار فى اجتماع المفتشين إلا باحتراس ، فما يجوز لرجل يشترك فى إحدى اللجان أن يذيع مداولاتها بأى حال .

ولكن ما الموجب لطى تلك المداولات والجرائد تنشر تفاصيل ما يدور فى مجلس الشيوخ ومجلس النواب ؟

لو كان مقامى مقام المترفق لطويت أقوال زملائى ، لأدفع عنهم تطاول المتطاولين من المتهاونين ، ولكن مقامى مقام الثائر الذى لا يرضيه غير الظفر بأكبر نصيب من أنصبة النضال ، فأنا أوذى نفسى ولا أوذى زملائى حين أعترض على الترفق بالمدرسين والتلاميذ .

بدعة مزعجة :

هى بدعة التخفيف ، تخفيف الواجبات المدرسية .

وعندى كلمة سأقولها مرة واحدة ثم أسكت عنها إلى آخر الزمان .

سأقول إن فى مصر ناسًا يظنون أن تلاميذ المدارس الثانوية أطفال ، وأن من الواجب أن تكون دروسهم هينات لينات ، لأنهم أطفال !

سأقول إن التخفيف يفضى إلى قلة الاهتمام ، والاهتمام هو أساس كل تفوق . وقد صارت علوم اللغة العربية فى المدارس الثانوية عرضة للتسهيلات والتخفيفات من عام إلى عام ، بصورة توجب الانزعاج .

لقد انعدم علم الصرف أو كاد ينعدم فى المدارس المصرية ، وصار من

النادر أن تجد تلميذا يعرف كيف ينتفع من المعاجم اللغوية .

ومضى التخفيف إلى النحو فحذف منه أبوابًا كثيرة ، وصار من النادر أيضًا أن نجد تلميذًا يفهم أسرار الإعراب .

وانساق التخفيف إلى علوم البلاغة فهو يقص حواشيها بلا تردد ، وقد نرى غدًا من يقترح حذف تلك العلوم ، بحجة أنها نشأت فى بيئات أعجمية !

وقرر المفتشون فى اجتماعهم الأخير حذف تاريخ الأدب ، وكان يجب أن أفرح لأنى اقترحت ذلك منذ سنين ، ولكن الطريقة التى احتجوا بها لذلك القرار قامت على القول بأن التلاميذ أضعف من أن يفهموا تاريخ الأدب ، لأنهم فى حكم الأطفال !

والواقع أن تلاميذ المدارس الثانوية يسايرون من حيواتهم عهدًا هو أخصب العهود ، فيجب أن ننتفع بتلك الفرصة فنزودهم بالمعارف التى تسندهم فى المستقبل ، ويجب أن نخلق فيهم الشوق إلى جميع المعارف ، وأن نجعلهم جنودًا سعداء بالجندية فى ميدان التعليم والتثقيف .

قلت لزملائى : أنا أستطيع شرح أصعب معضلة أدبية أو فلسفية شرحًا يفهمه أضعف تلميذ ، فلا تسيئوا الظنون باستعداد التلاميذ .

فقال الأستاذ مختار يونس : لم أفهم شيئًا مما تقول .

فقلت : لأنى أوجزت فى مقام يجب فيه الإطناب !

يجب أن نفهم أن الفرصة فى أيدينا ، وأن الشبان بين العاشرة والعشرين صالحون لفهم أصعب الدقائق . ويجب أن يكون فى نيتنا جعل مرحلة التعليم الثانوى مرحلة حاسمة فى تكوين عقول الشبان ، بحيث لا يحتاجون إلى المعاهد العالية إلا إذا تساموا إلى الأستاذية فى مختلف العلوم .

والفنون .

وأنا لا أعرف كيف قضينا أزمانًا بلا فهم للمراد الصحيح من التعليم الثانوى ، فهو عندنا إعداد للتعليم العالى ، وكان يجب أن يكون إعدادًا لخوض معترك الحياة بلا تهيب ولا إشفاق .

أنا أكره أن تدوم هذه الحال ، وأحب أن يصير الشاب رجل أعمال بعد العشرين ، وأتعجب من أن يعيش عالة على أبويه إلى الثلاثين .

وأنا أتمنى أن يصبح التعليم العالى مقصورًا على من يملكون الوقت والمال ، ولهؤلاء فرص لا يظفر بها غير آحاد أو مئات ، وهم لن يكونوا أشرف من الشبان الذين يصارعون أمواج الحياة قبل العشرين .

مرحلة التعليم الثانوى هى الفرصة الحقيقية لتثقيف الشبان . وتضييع هذه الفرصة إثم موبق .

والكلمة لحضرات المدرسين ، فماذا يقولون ؟

من واجب كل مدرس أن يدرك أنه مسئول عن إعداد تلاميذه للحياة ، بحيث لا يحتاجون إلى شيء بعد التعليم الثانوى ، إلا أن يتساموا إلى الأستاذية ، كما قلت قبل لحظات .

وما هذه الأستاذية التى توجب أنْ يكون فى معاهدنا العالية ألوف وألوف ؟

نحن نخلق لأبنائنا متاعب ثقيلة بفضل هذه الأحلام ، ونحن نصدهم عن الحياة بفضل هذه الأحلام ، ونحن نجنى عليهم جناية سنُسأل عنها يوم يقوم الحساب .

مرحلة التعليم الثانوى هى المرحلة النهائية ، ثم يلتفت الشاب إلى حاله

فيكون رجل عمل فى أى ميدان .

والمدرس مسئول عن تحقيق هذا المعنى ، ومن واجبه أن يهب تلاميذه جميع ثروته العلمية والأدبية فى أقصر وقت ، لينصرفوا إلى الحياة بعد أسابيع لا سنين !

والمهم هو أن نؤمن بأن الشبان فى مرحلة التعليم الثانوى رجال لا أطفال .

المهم هو أن نحدّث تلاميذنا فى جميع الشؤون حديث الزميل للزميل .

إن هؤلاء التلاميذ خلقٌ جديد ، وقلبى يحدثنى بأنهم يعرفون من حقائق الحياة أكثر مما نعرف .

والمدرس الحق هو الذى يسبق زمانه بعشرات السنين ، ليحاور تلاميذه فى أشياء تسبق زمانهم بأزمان .

فمتى نجد ذلك المدرس المنشود ؟

هو موجود بالفعل ، فعندنا جيوش من المدرسين الأكفاء ، ولعل مصر أغنى بلاد الشرق بالمدرسين الأكفاء .

ولكن الذى يعوز الحياة التعليمية فى مصر هو التوجيه السديد ، التوجيه الذى يشعر المدرس بأنه مسئول أمام الوطن عن تكوين جيله الجديد .

ومن الواضح أن هذا لا يتيسر إلا إذا تغيَّرت النظرة الحكومية والشعبية للمدرس .

ومعنى هذا أنى أنتظر أن تكون أبوة وزير المعارف للمدرسين أبوة

رفيقة إلى أبعد الحدود ، بحيث يجهلون المدلول من كلمات العلاوات والترقيات والدرجات ، لأن لهم أبًا ينوب عنهم فى فهم تلك الكلمات .

حدثنى صديق يساير مناقشات البرلمان بأكثر مما أصنع أن معالى الهلالى باشا قال فى مجلس النواب : « إن وزارة المعارف هى وزارة الدرجة السادسة » .

والعبارة صحيحة ، وإن جاز أنها من الكلام المنحول .

ونحن نقرأ من يوم إلى يوم أن الهلالى باشا مَعْنِيٌّ بتحسين أحوال المدرسين ، وهذا الذى نقرأ ليس كلامًا يراد به الدعاية ، وإنما هو صدق فى صدق ، فهذا الوزير يحب أن يكون له فى وزارة المعارف تاريخ نبيل ، وسيرى المدرسون بعد أيام أنه ضمن لهم طمأنينة تريحهم من القلق الذى يساورهم منذ سنين .

والمجال يسمح بتدوين الملاحظة الآتية :

كان يهمنى فى بغداد أن أسأل عن الطلبة الذين يتخلفون عن دروسى بدار المعلمين العالية ، وكان الجواب دائمًا أنهم تحولـوا إلى المدرسة العسكرية ، لأن مستقبلها مضمون .

والحال كذلك فى مصر ، فالشباب عندنا لا يؤمُّون المعاهد التى تُعد المدرسين إلا بعد اليأس من دخول المعاهد التى تُعد الضباط والمهندسين والأطباء .

ومعنى هذا أن يفهم الجمهور أن المدرس هو شخص فاتته المواهب التى تؤهل لتلك المناصب .

وأقول بصراحة إن المدرس لا يصلح لمهنته إلا إن كان غاية فى جمال

الصفات الجسمانية والروحانية .

ولن نظفر بمدرسين من هذا الطراز إلا إن ضمنا أن تكون حياة المدرس فى مثل حياة الضابط والمهندس والطبيب .

ولن يكون هذا إلا يوم يفهم الشبان أن مهنة التعليم مهنة مجد ، وليست « مهنة بلا مجد » Métier sans gloire كما يقول الفرنسيون .

وهل ننسى الصراع الذى يثور عند الانقلابات الوزارية ؟

هل ننسى أن الوزير لا يرضى عن مصيره إلا إن كان وزير الداخلية أو المالية ؟

يجب أن يكون وزير المعارف هو الوزير الأول فى الدولة ، لأنه المسئول عن تكوين العقول والقلوب .

قالت جريدة الأهرام إن الهلالى باشا استطاع بلباقته أن يظفر بألوف من الجنيهات لتحسين أحوال المدرسين .

ومعنى هذا أنه انتهب من أموال الدولة أشياء باسم التعليم !

الله أكبر ، ولله الحمد !

إن مصر رضيت الحياد فى الحرب ، ولكنها لم ترض الحياد فى العلم ، فهى تناضل فى الميادين العلمية نضال المجاهدين الفائزين ، فما الموجب لأن يقال إن وزير المعارف قد استطاع بلباقته أن يأخذ من أموال الدولة أشياء ؟

لن نسكت أو يصير وزير المعارف هو الوزير الأول ، ليصير المدرس هو الرجل الأول فى هذه البلاد .

نحن المدرسين نطالب الدولة بإقرار العدل ، لنصير مطمئنين إلى

ما تريد من تثقيف الجيل الجديد .

غايتنا واضحة وصريحة ، وهى أن يعرف الشعب أننا فى المقام الأول ، لأننا معلمون ، والمعلم هو الرجل الأول فى شِرعة الإنصاف .

مدرسى اللغة العربية(*)

كتبت عن هذا المدرس أربع صفحات ، ثم طويتها ، لأنه مدرس مظلوم ، فهل أعود إلى نشر تلك الصفحات ؟

لن أفعل أو أنشر أقوال المفتشين بالتفصيل .

وسأرى كيف أروض القلم فى المقال المقبل .

زكى مبارك

* * *

(*) الكلام عن المدرسين ص ٢٧ من هذا الكتاب وما يليها .

تلميذ المدرسة الثانوية

يتكلم زكى مبارك عن تلميذ المدرسة الثانوية على صفحات جريدة البلاغ فى أول ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، ويتساءل أين المدرس ؟ ويقترح زكى مبارك تقوية الروح الدينى فى المدارس الثانوية ، ويستهل الدكتور زكى مبارك مقاله عن تلميذ المدرسة الثانوية بقوله :

هو تلميذ متعب ، فقد فارق عهد الطفولة ، وبلغ عهد الرجولة ، فالرجل يعقل والطفل يطيع ، ولكن هذا التلميذ لا يعقل ولا يطيع .

يضاف إلى هذا أنه فى فترة تعتلج فيها النزوات الجنسية فتشغله عن الدرس فى بعض الأحايين .

وطور المراهقة طور مزعج ، ولكن رجال التعليم لا يلتفتون إليه لأنهم فارقوه منذ أعوام قصار أو طوال ، فهو فى حياتهم النفسية غير موجود .

فما الذى يصنع المدرس إذا لاحظ أن التلميذ فى حالة عصبية ؟

تلك معضلة المعضلات ، ومع ذلك فمن السهل أن نقترح بعض الحلول ، راجين أن يتفضل رجال التربية بعرض ما عندهم من الآراء ، فأنا أعتقد أن تلميذ المدرسة الثانوية فى خطر ، إن لم نسعفه بالعلاج .

الحل الأول : هو تقوية الروح الدينى ، وهذا ما تلجأ إليه المدارس الأجنبية ولا سيما مدارس الفرير والجزويت ، فالدرس هنالك يبدأ بصلاة ويختتم بصلاة ، وفى أكثرية المدارس كنائس ، وهم يوجبون على التلاميذ

حضور الصلوات فى صبيحات الآحاد .

وكانت المدارس الإسلامية كذلك إلى عهد قريب ، كان الدرس يبدأ بالبسملة ويختتم بالحمدلة ، وكان لا يجوز لطالب أن يلتحق بالأزهر إلا إذا أدى امتحانا يشهد بأنه حفظ القرآن ، وما كان يجوز لفتى أن يلتحق بمدرسة دار العلوم إلا إذا ثبت أنه يحفظ القرآن .

والدولة المصرية تعفى الشبان من الخدمة العسكرية إذا حفظ القرآن(*) . ومفتش اللغة العربية بوزارة المعارف لقبه الرسمى (مفتش اللغة العربية والدين الإسلامى) . وكان المألوف أن تكون الدروس فى الأزهر بعد الصلوات ، فدرس الصبح بعد صلاة الصبح ، ودرس الظهر بعد صلاة الظهر ، ودرس العصر بعد صلاة العصر ، ودرس المغرب بعد صلاة المغرب .. وهذه السنة الحسنة فى سبيل الزوال ولو شئت لقلت إنها زالت بالفعل أو كادت تزول .

وخلاصة القول إنى أقترح تقوية الروح الدينى فى المدارس الثانوية ، لعله يخفف ما يعترى الشبان من النزوات الجنسية ؛ فشعور الفتى بأنه مسئول أمام الله عن شبابه وعافيته وسمعته يحول دون اصطدامه بعقبات الشهوات .

ويجب أن نعرف أن الأنبياء الذين نهوا عن الإفراط فى الشهوة الجنسية كانوا على حق أمتن من رواسى الجبال .

ويجب أن يعرف كل شاب أنه فى دور التكوين إلى سن العشرين ،

(*) أظن هذه الميزة غير موجودة الآن

فكل قطرة من دمه يسفحها انفعاله الجنسى هى معول يهدم جانبا من بنائه الجسمانى ، وهو عدته للكفاح فى الحياة .

ونحن نلاحظ أن الأطفال الذين يولدون قبل نضج الآباء والأمهات مصيرهم غالبا إلى الموت .. فما سبب ذلك ؟

سببه أن الأب والأم لم يظفرا بالتكوين الواجب لإنجاب الأبناء . والعوام يلاحظون هذا ، ولكنهم يجهلون السبب فيقولون (أول بيضة للغراب) وما كانت أول بيضة للغراب إلا لأنها من دجاجة صغيرة لا تستطيع أن تنقر الغراب .. ولم يكن للزواج قواعد فى تحديد الأسنان ، فوضع قانون يحتم ألا تتزوج الفتاة إلا بعد أن تبلغ ستة عشر عاما . ولكن ما هو حال الفتى ؟

هل حدد القانون سنا لزواج الفتيان ؟ أنا لا أذكر شيئا من ذلك ، وتكون النتيجة أن القانون المصرى لم يلتفت إلى حقوق الفتيان ، وهم جنود الأمة فى جميع الميادين فمنهم الصناع والزراع والمهندسون ورجال الأعمال .

أنا أقترح أن لا يباح زواج الفتى أو الفتاة إلا بعد بلوغ سن العشرين لنضعف الشواغل الجنسية التى تشغل عن التفوق فى الحياة العلمية والأدبية والروحية .

الحل الثانى : أن نروض أولئك التلاميذ على حب العلوم والآداب رياضة قوية ، ورياضة تحقق عندهم الشوق إلى أن يصيروا من أكابر العلماء والأدباء . **وهذا لا يتيسر إلا إن غيرنا الطريقة المتبعة للتدريس فى مدارسنا المصرية . وهى طريقة التحفيظ** ، إنها طريقة عقيمة ، لأنها

تبدو وكأنها ضرب من ضروب التكليف ، وهو فى أجمل صوره غباء فى غباء .

يجب أن نتبع الطريقة المثلى فى التربية وهى طريقة التفهيم ، والتفهيم هو أن يفهم التلميذ فهما صحيحا ما يعرض فى الدرس من مختلف الأفكار والآراء .

عند ذلك يهتاج شوقه إلى مناقشة ما يسمع ، وتثور فيه رغبة التفوق ، فيناقش ويجادل ، ويضمر فى نفسه فكرة التغلب على الباحثين من رجال العلوم والآداب والفنون .

إن خلقنا هذه الرغبة فى صدر التلميذ فسنخرجه من كل أذى يمس حياته الأخلاقية ، لأنه سيرى أن مراجعة الكتاب أشهى وأطيب من مصافحة المرأة ، وأن إقذاء العيون تحت أضواء المصابيح فى سبيل العلم والأدب أكرم وأشرف من السهر فى ضيافة المصابيح الحمراء .. ولكن أين المدرس ؟

هذا هو السؤال ؟ لأجل أن نشوق التلميذ إلى مسايرة الحياة العلمية والأدبية يجب أن تشعره بأنك أنت أول المشغوفين بمسايرة الحياة العلمية والأدبية . وإذن ؟.. وإذن يجب أن تطلع على كل كتاب جديد ، وأن تدخل على تلاميذك وبيدك ذلك الكتاب الجديد ، وأن تقول إنك طالب علم وأن فى هذا الكتاب معانى لم يلتفت إليها من قبل .

عندئذ ينتبه التلاميذ إلى أهمية الكتاب فيبحثون عنه ويستفيدون ، وأنت الغانم أيها المدرس ، لأن تلاميذك سيصيرون الأوائل فى الامتحانات

العمومية ، وهذا يرفع من قدرك فى نظر وزارة المعارف وفى أنظار الآباء .

إننا حين نشعر تلاميذنا بأننا بلغنا الغاية من المعرفة وأنه لم تبق بنا حاجة إلى مطالعة كتاب جديد ، إننا حين نفعل ذلك نجنى عليهم أخطر جناية لأننا نوهمهم بأن العلم له حدود .

يجب أن نعرف جيدا أن الإنسانية فى معارفها العلمية والأدبية لا تزال فى دور الطفولة ، وأن من الغرور أن نحسب أننا وصلنا إلى الأعماق فى إدراك جميع الحقائق والمعانى . وليس الغرض أن نجعل تلاميذنا فلاسفة من أول يوم ، فهذا بعيد ، وإنما الغرض هو أن نوجههم إلى الجد فى الدرس والتحصيل ، عساهم ينصرفون عن سفك ما فى أبدانهم من القوى الحيوية ، وهناك حلول أخرى وهى الإكثار من الرحلات ، لأنها توقظ الغافيات من قوى الأدراك وتفتح عيون التلاميذ على بدائع الوجود . وأقترح الإكثار من زيارة المصانع لأنها تبعث على التفكير فى الاختراع والإبتداع والابتكار ، وهذا التفكير يخلق من الشاب قوة قد تجعله فى المستقبل من أعاظم الرجال وأقترح على وزارة المعارف أن تكثر من الأفلام التعليمة فلها مزايا تفوق الوصف ؛ لأنها سياحة فى ميادين الأفكار والآراء .

وأقترح الاهتمام بتواريخ العظماء ، فهم ناس كسائر الناس والفرق بيننا وبينهم انهم استغلوا مواهبم المكنونة أجمل استغلال . والله سبحانه هو الموفق .

***

فوائد نحوية وصرفية

يعاود الدكتور زكى مبارك الحديث عن تلاميذ المدارس الثانوية فيتعرض لدراسة علم النحو وعلم الصرف ، وعدم إقبال التلاميذ على درس اللغة العربية أصلا ، فماذا يقول زكى مبارك ؟

على صفحات جريدة البلاغ وفى أول يولية سنة ١٩٤٦ يقول زكى مبارك :

تمهيد :

تلاميذ المدارس الثانوية يكرهون علم النحو وعلم الصرف ، ولو شئت لقلت إن صدورهم تضيق بدروس اللغة العربية . فما هى الأسباب ؟

ترجع الأسباب فى جملتها إلى أن وزارة المعارف ترى أن كل من يحمل إجازة دار العلوم جدير بأن يُدَرِّس مواد اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وإنشاء . وقد اعترضت على ذلك يوم كنت مفتشا بالتعليم الثانوى ، واقترحت على مكتب التفتيش أن يراعى مواهب المدرسين ، فهناك مدرس يميل إلى علم النحو ، ومدرس يميل إلى علم الصرف ، ومدرس يميل إلى علم الأدب ، ومدرس يميل إلى تعليم الإنشاء .

وما أقترحه على مكتب التفتيش أخذته من حياتى ، ففى الأعوام التى

قضيتها مدرسا بكلية الآداب كنت أختار تدريس علم الصرف عند تقسيم الدروس ، مع أن تدريس الأدب سهل فلى كثير من المؤلفات ، ولكن كنت أريد أن أجذب الطلاب إلى علم الصرف لأنه هندسة اللغة العربية .

فهل تراعى هذا التوجيه مدارسنا المصرية فتنشئ منصب (**مدرس المادة**) فى كل مدرسة ، بحيث تكون مواهب المدرس هى الأساس فيما يتولاه من مواد التدريس ؟

دخلت مرة على مدرس فوجدته يقول : ما الفائدة من أن تعرف أن قال أصلها قول بالتحريك ؟ إن علم الصرف سخف فى سخف !

ودخلت مرة على مدرس فوجدته يقول علم النحو من إيحاء الأعاجم ، وهو من أكبر الأسباب فى بلبلة العرب !؟

لم يكن يجوز أن أحرج المدرسين بحضور التلاميذ ، فدعوت المدرس الأول لمقابلتى بعد الدرس لتدور بينى وبينه المحاورة الآتية :

ــ **المفتش** : أنت يا حضرة الأستاذ ترى من السخف أن نعرف السبب فى أن قال أصلها قول ، فما هو برهانك ؟

ــ **المدرس** : أن العرب لم ينطقوا بكلمة قول بمعنى قال ، فما هو الواجب لأن نقول تحركت الواو وفتح ما قبلها فقلبت ألفا ؟

ــ **المفتش** : كلمة (**مت**) فى القرآن قرئت مرة بكسر الميم ومرة بضم الميم ، والتلاميذ يسمعون هاتين القراءتين عن طريق المذياع ، فما الذى يمنع من شرح السبب فى هذا الاختلاف ؟

ــ **المدرس** : هذه دقائق تعلو على أفهام التلاميذ .

ــ **المفتش** : أصغر تلميذ فى الثانوى لا يقل عمره عن عشر سنين ، فهل يصعب أن نفهمه أن ضم الميم فى (**مت**) يرجع إلى أنها من مات يموت ، وأن كسر الميم يرجع إلى أنها من مات يمات ، وأن الألف فى (**يمات**) منقلبة عن ياء ؟

ــ **المدرس** : وماذا نقول عن (**خفت**) وهى دائما بكسر الخاء ، مع أن الاسم هو الخوف ؟

ــ **المفتش** : هو أيضا الخيف بالياء ، فكلمة يخاف أصلها يخيف وهو أصل مهجور ولكنه ملحوظ ، والعرب يكسرون الخاء من خفته عامدين ليفرقوا بين خفته بكسر الخاء وخفته بضم الخاء ، فالأولى معناها خفت منه والثانية معناها غلبته .

ــ **المدرس** : أشكرك يا دكتور ، وإن كان المنهج لا يحتم شرح هذه الدقائق .

ــ **المفتش** : لا تكتف بالمنهج يا حضرة الأستاذ ، لأنه قام على أساس التخفيف .

ثم دعوت المدرس الذى قال لتلاميذه إن علم النحو من إيحاء الأعاجم وأنه السبب فى بلبلة العرب ، فقلت له برفق : كيف يقبل تلاميذك على علم تقول أنت إنه غير مطلوب ؟ ولو كان هذا العلم ضلالا فى ضلال لكان من واجبك نحو نفسك أن تقول إنه أشرف العلوم لأنك به تعيش ... وما هى حجتك على أن علم النحو كان سببا فى بلبلة العرب

وفيه ضاعت أعمار أعاظم الرجال ؟

هل تعرف يا حضرة الأستاذ أن النحو أساس الثقافة الأدبية فى جميع اللغات ؟

ـ **المدرس** : الدكتور هيكل باشا فى مقدمته لديوان البارودى قال : إن البارودى كان يجهل علم النحو ، ولم يمنعه جهله بالنحو أن يكون من أكابر الشعراء .

ـ **المفتش** : هذا قول مردود ، وقد نقضته بمقالة نشرتها فى مجلة الرسالة(*) .

* * *

أما بعد فسأقدم لقراء البلاغ فوائد نحوية وصرفية بأسلوب جديد ، راجيا أن أثير الشوق إلى علوم كادت تموت ، وإذا كان الأستاذ خليل بك ثابت رجانى فى سنة ١٩٢٦ أن أطوى مقالاتى (**عن أغلاط سيبويه**) لأنها أبحاث لا تحتملها جريدة يومية ، فنحن اليوم فى سنة ١٩٤٦ وفى جريدة البلاغ .

وغاية ما أرجوه أن يتفضل أساتذة اللغة العربية بمعاونتى على تمهيد هذا الطريق ، أما العون الأول والأخير فهو الله ، إنه وحده المستعان على جعل قواعد النحو والصرف مما تسيغه جريدة يومية .

(*) نقد كلام الدكتور هيكل ومقدمة البارودى فى كتاب « زكى مبارك ونقد الشعر » إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك ، والكتاب طبع ونشر فى دار الزهراء للإعلام العربى .

المدرسة الابتدائية

تحت هذا العنوان يعاود الدكتور زكى مبارك الحديث عن الحياة المدرسية على صفحات جريدة البلاغ فى العاشر من أكتوبر سنة ١٩٤٥ فيقول :

وعدت قراء البلاغ بتقديم صور صحيحة عن الحياة المدرسية فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية .. والغرض هو تشريح أحوال المدرسين والتلاميذ من الوجهة النفسية ، لتكون وزارة المعارف على بينة مما تتطاير به الأهواء فى تلك الأجواء .

والواجب الوطنى هو الذى يوجب تقديم تلك الصور ، وسأقدمها بأسلوب واضح يقنع رجال المعارف ، راجيا أن يفكروا فى تغيير هذه الأحوال .

وأبدأ بالمدرسة الابتدائية فأقول : إنها مكونة من شخصيتين ، شخصية المدرس وشخصية التلميذ .

فمن هو المدرس فى المدرسة الابتدائية ؟

هو شاب تخرج فى مدرسة دار العلوم أو فى كلية الآداب أو فى كلية العلوم ، وهؤلاء الشبان لا ينبغى أن يختاروا للتدريس فى المدارس الابتدائية ، ولكن كيف ؟

إليكم أسوق الحديث فاسمعوه متفضلين :

هذا شاب كان فى السنة النهائية بمدرسة دار العلوم ، وكان له أساتذه من أمثال الأساتذة محمد عطية هاشم يتلقى عنهم دقائق الأبحاث فى اللغة والأدب والنحو والصرف ، وقد ظفر بالدبلوم من مدرسة دار العلوم ، دبلوم أمضاها وزير المعارف ، وقدمت إليه فى ورقة مزخرفة بالألوان ، فمضى إلى أهله فى نشوة روحية .. وهل من القليل أن يظفر شاب بدبلوم دار العلوم ؟

ولكن العقدة النفسية تصورها الأسطر الآتية :

ـــ هذا الشاب المتوثب الطموح تعينه الوزارة فى مدرسة ابتدائية ليحاور تلاميذه بهذه الصور الظريفة :

المدرس : قل يا شاطر : قطع محمود الغصن .

التلميذ : قطع محمود الغصن .

المدرس : من الذى قطع الغصن ؟

التلميذ : الذى قطع الغصن هو محمود .

المدرس : والغصن يا شاطر ؟

التلميذ : هو المقطوع .

المدرس : اسمع يا شاطر ، إذا كان محمود هو الذى قطع الغصن فهو الفاعل ، وإذا كان الغصن هو المقطوع فهو المفعول به .

* * *

اسمعوا يا رجال المعارف :

إن هذا الشاب يشعر بخيبة الأمل حين ينتقل من تحقيق الخلاف بين البصريين والكوفيين إلى تحقيق الخلاف بين محمود الذى قطع الغصن والغصن المقطوع ، مع أن محمودًا لم يقطع الغصن ، وإنما هى إشاعة وهمية !!

ولهذا يدخل المدرسة بلا قلب وبلا نفس وبلا روح .

أنا أقترح أن يعين الشبان المتخرجون من مدرسة دار العلوم فى المدارس الثانوية ليجدوا تلاميذ يفقهون عنهم بعض ما تعلموه عن أساتذتهم المتفوقين .

صورة ثانية : هذا شاب تخرج فى كلية الآداب بقسم الجغرافيا والتاريخ ، لنفرض مثلا أنه تلميذ الأستاذ محمد مصطفى زيادة أو الدكتور سليمان حزين أو الدكتور إبراهيم نصحى .

هذا الشاب تعينه الوزارة فى مدرسة ابتدائية ليحاور تلاميذه بما يأتى :

المدرس : قل يا شاطر .

التلميذ : ماذا أقول ؟

المدرس : مصر العزيزة فى إفريقيا أو آسيا أو أوربا ؟

التلميذ : سمعت من أبى أنها فى إفريقيا .

المدرس : أحسنت يا شاطر ، اجلس يا شاطر !!!

أنا أقترح أن يعين المتخرجون بقسم الجغرافيا والتاريخ أساتذة فى المدارس الثانوية لتكون الصلة قريبة بين ما تعلموه بالأمس وبين ما يعلمونه اليوم ، فما يجوز أن ينتقل الشاب من تحقيق المشكلات الجغرافية

والتاريخية إلى — البسائط فى الجغرافيا والتاريخ .

صورة ثالثة : هذا شاب تخرج فى كلية العلوم وله أساتذة من أمثال الدكتور أحمد زكى والدكتور على مشرفة ، والدكتور والى من أئمة زمانهم فى العلوم .

هذا الشاب يعين فى مدرسة ابتدائية ليحاور تلاميذه بالصور الآتية :

المدرس : قل يا شاطر .

التلميذ : تسألنى ؟

المدرس : أسألك !

التلميذ : ما هو السؤال ؟

المدرس : هل تعتقد أن القطط تخيف الفيران ؟

التلميذ : ليس فى بيتنا قطط ولا فيران ، فأنا أجهل الجواب .

أنا أقترح أن يعين هؤلاء الشبان فى المدارس الثانوية ليجدوا صلة بين ماضيهم القريب وحاضرهم العتيد .

أكتفى بهذه الصور وأسأل برفق : **على من نعتمد فى تعليم التلاميذ بالمدارس الابتدائية إذا لم نعتمد على هؤلاء الشبان ؟**

أنا أقترح أن يوكل تعليم المبتدئين إلى رجال أشترط فيهم شرطين : الشرط الأول أن يكونوا جاوزا الثلاثين ، والشرط الثانى أن يكون فى بيوتهم أطفال ، ولكن ما الموجب لاشتراط هذين الشرطين ؟

أنا فى الحقيقة أرى أن المبتدىء يحتاج إلى معلم فيه معنى الأبوة ، والمعلم الذى فيه معنى الأبوة يصبر على الطفل ، ويروضه برفق ، ويتلقى أخطاءه، بالابتسام ، فلا يحقد عليه ، ولا يؤدبه بالضرب .

والنظرية صحيحة فرياض الأطفال توكل دائما إلى نساء ، وإن كن صغيرات ، لأن المرأة مفطورة على الأمومة ، وإن كانت صبية لا تصل إلى العشرين .

إن الأنثى أم بالفطرة ، فهى فى العام الثالث من عمرها تتلفت لتجد (عروسة) تحملها على صدرها وتناجيها بأرق معانى الحنان . ولا كذلك الرجل فهو بفطرته حيوان مفترس ، ولا يراد إلا حين يكون له أطفال والنتيجة ؟

النتيجة أننى أقترح أن نحول المفتشين والمراقبين إلى معلمين بالمدارس الابتدائية لنضمن سلامة الأساس .

ليس المهم أن تكون وزارة المعارف مباءة لوظائف رسمية ، .. مباءة لوظائف رسمية ، (وأنا أقصد هذا التوكيد اللفظى) إنما المهم أن نخلق جيلا جديدا يتولى أعمال الدولة فى المستقبل القريب أو البعيد .

إن وزارة المعارف صارت إلى شكليات فهذا وزير ، وذاك وكيل ، وذلك مستشار والأمر كله إلى تلك الشكليات !!

أين الطفل الذى نعلمه ، وأين اهتمامنا به ، وأين عطفنا عليه !؟؟

اسمعى يا وزارة المعارف ثم اسمعى : إن المدرسين فى المدارس الابتدائية شبان يعتقدون أنهم مظلومون ، لأنهم انتقلوا من الأجواء العالية إلى أجواء هى فى أنظارهم غير عالية ، وتكون النتيجة أننا نقتل هؤلاء الشبان بعد أن أنفقنا عليهم الملايين .

أما الأساتذة الذين جاوزوا الثلاثين وصاروا آباء فقد استقامت لهم طريقة الحياة ، ولم يعودوا فى احتياج إلى التشجيع ، ولهذا يسهل عليهم أن

يدرسوا فى المدارس الابتدائية بدون شعور بالامتعاض .

إن وزارة المعارف تخطىء حين تجعل الترقية متمشية مع الانتقال من الابتدائى إلى الثانوى ، والصواب أن تكون الترقية متمشية مع كفاءة المدرس ولو كان فى مدرسة أولية ، فبذا نضمن وجود مدرسين يرتاحون إلى التعليم بالمدارس الابتدائية وهى أساس البناء فى الحياة التعليمية .

صدر حديثا

ديوان : أطياف الخيال : للشاعر زكى مبارك .
عن دار مصر للطباعة ، توزيع مكتبة مصر بالفجالة .
ديوان : أحلام الحب : للشاعر زكى مبارك .
: عن دار الزهراء للنشر : توزيع مدبولى .
كتاب : زكى مبارك ونقد الشعر .
اعداد وتقديم : كريمة زكى مبارك .
عن : الزهراء للاعلام العربى ت : ٦٠١٩٨٨
كتاب : زكى مبارك بقلم زكى مبارك .
اعداد وتقديم : كريمة زكى مبارك .
توزيع : مدبولى .

تلميذ المدرسة الابتدائية

على صفحات جريدة البلاغ أيضا وفى الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٤٥ يحدثنا الدكتور زكى مبارك عن نفسية تلميذ المدرسة الابتدائية وما يجب أن يكون عليه المدرس ، فيقول :

أوجه كلامى إلى رجال وزارة المعارف وإلى جميع الآباء فأقول :

إن النظام المدرسى بوضعه الحاضر هو بدعة جديدة فى الحياة الإنسانية ، وهو يعوق النمو الجسمانى عند الأطفال ، وفقد أعمار بعض الشبان . وأذكر الحادثة الآتية تمهيدا لهذا الحديث :

فى سنة ١٩٢٩ كنت أستاذا فى إحدى المدارس الثانوية ، ورأى مدير المدرسة أن يعهد الفصل الذى يعد للبكالوريا(*) إلى رجلين : الأول مدرس ممتاز فى النحو والصرف وله خبرة قديمة فى التدريس ، والثانى مدرس ممتاز فى الأدب ، واسمه فيما أتذكر : زكى مبارك ... هو فصل واحد مؤلف من ستة عشر تلميذا ، ويجب أن ينجح جميع تلاميذ هذا الفصل ، لماذا ؟

إن المدرسة تريد أن تكون الأولى بين المدارس الأهلية فى الامتحانات العمومية ، فما الذى تصنع ؟

تزيد حصتين إضافيتين ، حصة فى الصبح ، وحصة فى العصر ، ومعنى ذلك أن هؤلاء التلاميذ يحضرون قبل رفاقهم بساعة وينصرفون بعدهم بساعة .

(*) البكالوريا تعادل الثانوية العامة .

لقد وصلنا إلى الغاية فنجح الفصل كله فى البكالوريا ، وصارت المدرسة أولى المدارس الأهلية فى الامتحانات العمومية ... آه ، ثم آه !!

ما ذكرت تلك النتيجة إلا تحزنت وتفجعت ... ولكن كيف ؟

مات من أولئك التلاميذ أربعة فى أثناء الإجازة الصيفية ، ماتوا لأننا قتلناهم بالإجهاد العنيف وللطاقة البشرية حدود .

ومن حسن الحظ أن آباء التلاميذ لم يتنبهوا إلى جريمتنا فى قتلهم ، و لم يقدمونا إلى محكمة الجنايات ... إنما الأعمال بالنيات ، فنحن أمام الله أبرياء ، ولو كنت فى سنة ١٩٢٩ أعيش بعقلى فى سنة ١٩٤٥ لوقفت فى وجه مدير المدرسة ومنعته من إجهاد التلاميذ .

***

نعود إلى تلميذ المدرسة الابتدائية فنذكر أنه يعيش فى غربة موحشة لأن بعض المدرسين لا يعرفون أمواجه النفسية .

نظر المدرس فرأى تلميذا يضحك فنهره وقال : (**الضحك من غير سبب قلة أدب**) من أين عرفت يا حضرة المدرس أن التلميذ يضحك من غير سبب ؟

إن **للطفل** أمواجا نفسية تخفى عليك ، فلعله تذكر حادثة مضحكة وقعت فى البيت ، أو لعله تذكر منظرا سينمائيا فيه ضحكات . ومع ذلك فالضحك فى ذاته تمرين على الفرح بالحياة ، فيجب أن نعلم أبناءنا كيف يضحكون . يضاف إلى هذا أن الضحك دليل على الصحة والعافية ، فإن رأينا تلميذا يضحك فلنعرف أنه بخير ، وأن طبيب المدرسة لن يشغل به ولن يفكر فيه .

***

توضيح :

التعليم فى أصل نشأته مهنة الرهبان ، وحياة الرهبان تقوم على الحزن الوجيع لأنهم يخافون من يوم الحساب . وما يوم الحساب أيها الناس ؟

إن الله أكرم وأسمح مما تتصورون ، وهو حين يعاقب يعاقب برفق وبإقناع ، ولهذا ينصب الميزان فى يوم القيامة ليعرف المذنبون أنهم غير مظلومين بالعقاب ، وإذا جاز لله إن يكون منتقما جبارا ، فمن أنتم يا بنى آدم حتى تكونوا منتقمين جبارين ؟

اتركوا الطفل يضحك بملء شفتيه ، وساعدوه على الضحك ليأنس بالمدرسة ويعرف أنها أحب إليه من البيت .

أدخلت أحد أطفالى فى مدرسة من مدارس الفرير وأوصيت الناظر بالرفق به فقال : (**سيكون عند ماما**) وأردت أن أعرف تلك (**الماما**) فكانت (راهبا) يتمثل فى وجهه روح الرفق والحنان .

إن الرهبان تركوا الحزن فى تعليم الأطفال ، ولكن جماعة من المدرسين فى مدارسنا يلتزمون الحزن فى تعليم الأطفال .

* * *

حقائق مجهولة :

إن الطفل كثير التطلع والتشوف لأنه حديث العهد بالوجود فكل شىء عنده جديد ... وفى اللغة المصرية لفظة ظريفة هى كلمة (**التهبيش**) ... فالطفل (**يهبش**) فى كل ما تراه عيناه ، والتهبيش عند الطفل هو أسلوب من أساليب الاختبار ... ويتفق أحيانا أن يختبر الطفل

الأشياء بفمة وإن لم يكن فى فمه أسنان .

وأكاد أقول إن طبيعة الطفل طبيعة كلبية ، فالكلب حين يدخل بيتا يحاول أن يرى جميع حجراته وغرفاته فى لحظة واحدة ، والطفل كذلك فهو حين يزور مع أمه أو أبيه بيتا جديدا عليه ، يحاول أن يرى جميع محتويات البيت .

وإذا دخل الطفل مع أبيه سوقا طلب من أبيه أن يشترى له جميع الأشياء ... ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أريد أن أقول إن التلميذ فى المدرسة الابتدائية يعيش مع مدرس رأى ألوان الحياة من قبل ، فهو غير متطلع إلى ما فيها من غرائب الألوان . ولتوضيح هذه الفكرة أذكر أنى فى قطار (**المترو**) أقرأ جرائد الصباح فى الذهاب وأقرأ جرائد المساء فى الاياب ، ولا أنظر ذات اليمين ولا ذات الشمال ، لأنى ألفت الطريق ، وعرفت ما حواليه من الأشياء ، ولكن الذى يركب قطار (**المترو**) لأول مرة لا يقرأ فيه جريدة ، وإنما ينظر ليرى الجديد عليه من جوانب الطريق ، فهذه عزبة (**الدمرداش**) وهذا قصر الزعفران ، وتلك منشية البكرى ، وهذه حمامات مصر الجديدة ، وذلك قصر البارون أمبان ... لقد وضحت الفكرة فلأرجع إلى الموضوع من جديد .

تلميذ المدرسة الابتدائية يريد أن يرى جميع الأشياء ولكن بعض المدرسين قد لا يريدون . والتلميذ قرأ وصف (**القناطر الخيرية**) فى كتاب المطالعة فهو يحب أن يرى القناطر الخيرية ، ولكن المدرس رأى القناطر الخيرية مرة ومرتين ومرات فهو لا يشعر بالشوق إلى رؤية القناطر الخيرية .

والتلميذ قرأ وصف الأهرام وحفظه المدرسون قصائد فى وصف الأهرام

فهو يشتاق إلى رؤية تلك الجواسق التاريخية ، ولكن المدرس لا يشتاق لأنه زار الأهرام مرات وهو تلميذ ، وقضى فى سفحها سهرات فى ليالى صباه .

* * *

والنتيجة :

اسمعوا النتيجة يا حضرات المدرسين بالمدارس الابتدائية :

لا يمكن أن نعلم الأطفال إلا إذا ألبسنا أرواحنا أحلام الأطفال ، فنزور معهم حدائق الحيوان وكأنها عندنا شيء جديد ، نفرح معهم ، لرؤية الطيور والسباع ... ولا بأس من أن نزور معهم حديقة الشاى ومعنا أرغفة نفتتها تفتيتا لنفرح معهم بمرح الطيور المائية ، ولنرى منظر قتال الأسماك حول تلك الفتافيت .

آه ثم آه !

إن معلمى الأطفال فى المدارس المصرية قليلون ... وكيف يكثرون والجو المصرى لا يعطى المدرس حقه إلا إن كان أستاذا بكلية من كليات الجامعة المصرية ؟

إلى رجال وزارة المعارف أقدم هذه المعانى والله سبحانه هو الموفق .

* * *

بين الآباء والأبناء

الكلمة التالية بعنوان « بين الآباء والأبناء » وهى بإمضاء سليمان زكى مبارك » وهى من ابن إلى أبيه ، ثم رد الأب عليه ؛ والأب هو المربى الفاضل الأستاذ الدكتور زكى مبارك ، وإليكم كلمة سليمان زكى مبارك : [1]

١

قد يعتقد الكثيرون أننى عندما أكتب عن أبى أو أتحدث عنه ، إنما أكتب ما أكتب وأقول ما أقول متأثرًا بما بين البنوّة والأبوة من صلات . ولكننى فى الواقع إذا كتبت اليوم عن أبى فإنما أكتب عن صدق ، فأنا الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يتحدث عن الدكتور زكى مبارك كرجل من رجال التربية والتعليم .[*] .

نشأ أبى نشأة ريفية وسط عائلة قوية الجانب ؛ لا تعرف غير القوة والجبروت ؛ فاكتسب صلابة الرأى ، وقوة الإرادة ، وبعد النظر ، وسلامة الذوق ... ثم تحول إلى المدنية الحديثة فى إبان شبابه ، فلم يتأثر إلا بأصولها الحقيقية ، فجمع مع سلامة العقل ، سلامة الجسم ، وقوة الروح ، وصفاء الضمير . فكان لذلك أثر كبير فى تربيته وتعليمه ، وقد راضنا أبى على القوة ، فنشأنا بفضل الله أقوياء ، وقد كتب عن ذلك يقول[2] « أترونني أبكى على

(*) وحى بغداد ص ١٥٣ . (١) شهرته : فهمى زكى مبارك .

(٢) فى مقاله المشهور الذى عنوانه (عندما يوافينى الموت) .

أطفالى ؟ هيهات ! لقد ورّثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة ، وحين أفهمتهم أنّ العالم لا يسعد فيه غير الأقوياء ، فإن تسلحوا بالقوّة فقد انتفعوا بما ورّثتهم ، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة ، وأنا منهم برىء .

وقد عوّدت أطفالى أكل اللحم فى كل يوم لينشأوا على قسوة الحيوان المفترس . فإن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا ، وللضعيف الضيم والهوان .

وقد نشأت فى قوم أقوياء ، وكان أبى أشجع رجل رأته عينى ، وكان أجدادى وأعمامى من نماذج القوة والبطش ، ولم يكن فيهم رجل مظلوم ، وإنما كانوا دائمًا ظالمين ، فإن شاء أبنائى أن يكونوا لأبيهم وأجدادهم وأعمامهم ، فالدنيا أمامهم واسعة الأرجاء ، وإن ضعفوا فليذهبوا غير مأسوف عليهم ... وفيهم بحمد الله فتيان يقرأون هذا الكلام ، فليعرفوا أنّ أباهم عاش عزيز الجانب لأنه كان قوى النفس ، وليتذكروا أن أباهم لن يموت يوم يموت إلا وهو أشجع الرجال » .

وقد يدهش الكثيرون إذا عرفوا أنّ أبى مع قوته وجبروته ، رجل كله كتلة من الإخلاص والوفاء والكرم ، فطالما ظللنا بسحائب العطف وسقانا أكواب الشهد وغمرنا بكرمه وحنانه ، وأقسم صادقًا أنّ أبى لم يجرح إحساسى مرة واحدة فى حياتى وإن كنت مخطئًا ، بل كان يعاملنا معاملة تدل على حسن التصرف وبعد النظر فهو يدفعنا إلى بحر الحياة لنجرب حلوها ومرها ، ثم يراقب أعمالنا عن بعد ، فإن أخطأ أحدنا أعاده إلى الصواب بكل شفقة ورأفة قائلا « أنا لا أرضى لكم بغير التفوق المطلق لأنّ الرجل الخامل

المتوسط لا يستطيع العيش فى العصر الحديث » وكان لهذه التربية أثرها فى أنفسنا ، فأنا لا أذكر يومًا عبث فيه أخى الصغير فى حضرة أبى مع أنّ أبى يعامله معاملة كلها عطف وحب وإخلاص ، ويخيل إلىّ أن هذه الطريقة من طرق التربية تبعث فى نفس الطفل أصدق آيات الإخلاص والولاء لأبيه ، وأروع صور الوفاء لوالديه ، وتعوده الاعتماد على النفس والشعور بالشخصية .

وقد راضنا أبى كذلك على العمل وهو رجل بمعنى الكلمة ، فقد يقضى فى أيام فراغه وفى إجازات الصيف ثلاثة أيام متواصلة لا يغادر خلالها مكتبه بل يظل ساهرًا ليصل الليل بالنهار فى العمل والتحصيل . ولعل القارئ يوافقنى على ذلك إذا اطلع على كتاب النثر الفنى . ورجل هذه أخلاقه يبعث فى روح أولاده حب المثابرة والكفاح بكل تأكيد . وكان من جراء ذلك أن ورثت عنه هذه العادة ، فلا أكون مبالغًا إذا قلت إننى كنت فى التعليم الثانوى أقوم بجانب دراستى المدرسية بالكتابة فى الصحف ، ودراسة الهندسة اللاسلكية والكهربائية والميكانيكية بجانب الشعر والقصص والموسيقى .

وقد عودنا أبى الصبر ومواجهة الحقائق ، فهو رجل قلما ييأس ، وإنما يواجه الحقائق بالحقائق فلا أنسى مطلقًا مساء يوم وفاة جدى رحمه الله فقد عاد أبى من سنتريس فى مساء ذلك اليوم يحمل إلينا الخبر المشئوم ويبدى أسفه بقوة جبارة تغلب بها على حزن نفسه ، وكبت بها عواطفه .

وقد سافر أبى إلى العراق ولا أنسى ساعة وداعه ، فقد وقفت أبكى كالطفل بينما راح هو يبتسم .

وبعد فهذه صورة سريعة صادقة عن أبى رجل التربية ، فإليه وحده أبعث بأصدق تحية .. وإليه أرفع آيات الحب والإخلاص .

ابنه الوفى

سليمان زكى مبارك

(هذه الكلمة نشرت أولا على صفحات مجلة الصباح لصاحبها الاستاذ مصطفى القشاشى) .

٢

صديقى

لقد شاء لك وفاؤك أن تمتعني بخطاب خاص تبدد به ما فى صدرى من ظلمات ، وكأنك لم تكتف بالأفراح التى يذيعها « الصباح » يوم وصوله إلى بغداد .

وقلت فى خطابك :

« أهنئك بأن لك خليفة فى الأدب والعلم والذوق والأسلوب والإدراك هو سليمان زكى مبارك »

فهل تدرى أيها الصديق أن هذا الخطاب أزعجنى ؟

هل تعلم أنه ساءنى أن أعرف أنك ستنشر له كلمة عنى ؟

أنا أشهد غير مخدوع ولا مفتون أن هذا الشاب عنده بوارق من الفكر والذكاء .

ولكننى أنظر إلى مصيره نظر الخوف والجزع ، لأنه يسارع إلى الشهرة كما يصنع أكثر الشبان فى هذا الجيل ، والشهرة المبكرة تفتن الشبان أشنع الفتون ، وتصرفهم عن التخلق بأخلاق الأبطال .

فإن كنت فى ريب من ذلك فتذكر أن فى مصر شبانًا تعجلوا الوصول إلى الشهرة فوصلوا إليها قبل الأوان ، ولكنهم سيعيشون أطفالا ويموتون أطفالا ، وسيكون مصيرهم مصير الصحفى الذى اشتغل بالتحرير فى الجرائد المصرية أربعين سنة ثم مات قبل أن يشهد القراء بأنه صار من الكتاب !

وكان عندك فى جريدة « الصباح » محرر أنقذته أنا من هذا المرض ، فقد كان أخرج ديوانًا شعريًا منذ سنين ، وطنطنت به الجرائد والمجلات ، ولكنى أبيت أن أشير إليه فى مقالاتى بجريدة البلاغ ، فلما عاتبنى قلت له : لن أعرفك إلا يوم تظفر بالدبلوم من كلية التجارة . ومن حقى أن أعتز بأننى أنقذت هذا الشاب من جنون الشهرة فكانت النتيجة أن يظفر بدرجة عالية من درجات الجامعة المصرية .

ولعل من واجبى أن أتجاهل مكانته الأدبية إلى أن يصبح من رجال الاقتصاد .

لقد ذهب ابنى سليمان منذ أعوام إلى جريدة البلاغ لينشر بعض اختباراته فى اللاسلكى فرحبت به الجريدة ، ولكنى تدخلت لوقف مقالاته ، فكيف جاز أن تشجعه فى غيبتى ؟ أنا يا صديقى أبغض هذا النوع من التشجيع .

إنّ هذا الشاب يريد أن يتشبه بأبيه ، ولكن فى أى باب ؟ إنه يريد أن ينشر مقالات وأقاصيص فى الصحف والمجلات كما يصنع أبوه .

فهل يعرف هذا الشاب المفتون أنّ أباه أحرز خمس شهادات عالية أصغرها شهادة الليسانس فى العلوم الفلسفية والأدبية ؟

وهل نسى هذا الشاب المفتون أنه رسب فى البكالوريا وهو يعيدها وقد يعيدها وقد يكون الجرى وراء الشهرة الكاذبة سببًا فى أن يرسب مرة ثانية ؟

قد يراجعنى هذا الشاب فيقول : وأنت أيضًا يا أبت رسبت فى امتحانات الليسانس مرتين !!

وهذا حق ، ولكن اللجنة التى أسقطتنى مرتين فى امتحانات الليسانس كانت مؤلفة من إسماعيل رأفت ومنصور فهمى وطه حسين .

فمتى يكون من حظك أيها الشاب المفتون أن تسقط فى امتحانات الليسانس أمام لجنة مؤلفة من أمثال هؤلاء الرجال ؟

ومتى يكون حظك أن تظفر بإجازة الليسانس كما ظفر أبوك وهى مذيلة بأسماء كهذه الأسماء ؟

إنّ هذا الشاب عمل بالمثل الذى يقول « غاب القط فالعب يا فار » فهو قد انتهز غيبتى بالعراق وأهمل دروسه وأمضى يركض بين المطابع لينشر كتابًا فى اللاسلكى ، ولو كان من أصحاب القلوب لعرف أنى أقوم مفزوعًا من نومى فى كل ليلة ، لأنى لا آوى إلى فراشى إلا وأنا مشغول البال عليه ، فمن أى الصخور صيغ قلب هذا الشاب المفتون ؟

صديقى .

ما كنت أحب أن ينشر مثل هذا فى جريدتك لولا يقينى بأنه يحارب نزعة خبيثة يعانيها الشبان فى هذه الأيام ، وقد يكون فى قرائك من يعانى من الألم بعض ما أعانى ، فالذين فى مثل حالى يتمنون أن يكون لهم أبناء نجباء ، وأنا أخشى أن يخوننى الحظ فيكون أبنائىُ غير نجباء .

كنت أتمنى أن يصنع أبنائىُ بعض ما صنعت مع أبى ، فما أذكر أنّ أبى بات

ليلة وهو مؤرق الجفن بسببى ، وقد هتف باسمى مئات المرات وهو على فراش الموت .

أما بعد فقد هذبت ألوفًا من التلاميذ ، وأدخلت النور على ملايين العقول فى المشرقين والمغربين ، وأنا مع ذلك أتشهى أن يكون لى من صلبى ولد نجيب .

فإن صح رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك نعمة من الله .

وإن خاب رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك أيضًا نعمة من الله .

ألم يجرب الله إيمانى فابتلانى بأخطر الأرزاء والخطوب ؟

لقد طوّفت بالشرق والغرب فى الدفاع عن لغة القرآن .

لقد ابتدعت مئات الأقاصيص لأحبب الناس فى لغة القرآن .

لقد تفرّدت بالزهد فى الوصولية لأقيم الشاهد على أنّ الواثق بربه لا يضيع .

لقد وفيت لكل من عرفت لأخلق لوطنى أصدقاء ، فقد كنت أسمع أن حب الوطن من الإيمان .

لقد أدخلت البهجة على جميع ما عرفت من القلوب ، فكيف يصل الحزن إلى قلبى عن طريق بعض الإخوان أو بعض الأبناء ؟

رباه !

أنت تعلم كيف خلقتنى ، وكيف سويتنى ، فاكتبنى عندك من الشهداء .

* * *

كيف نصادق أطفالنا(١)

سيداتى وسادتى :

لا تظنوا أن الظفر بصداقة الطفل أمر سهل ، لأن بيننا وبين الأطفال فوارق كثيرة جدًا، وهذه الفوارق تباعد ما بيننا وبينهم ، وتجعل عقد المودة معهم أمرًا عسير المنال .(*)

وأسعد الآباء هو من يستطيع الوصول إلى قلوب أبنائه فى ترفق وتلطف ، ليكونوا قرة عينه ، وليكون قرة أعينهم ، وليصبح البيت موئلا للانشراح والابتهاج .

وأسارع فأقرر أن الأب لا يستطيع الظفر بصداقة أبنائه إلا إن ضمن عطف زوجته عليه ، فالزوجة هى الرباط الأول بين الأب وبين قلوب أبنائه ، وهى تستطيع أن تغير قلوبهم على أبيهم حين تشاء ، لأنها تملك من أمورهم كل شىء ، ولها وسائل خفية تصل بها إلى قلوب الأطفال .

وبيان ذلك أن بعض الزوجات يستطبن إعلان التذمر من الأزواج ، وهذا التذمر قد يسمعه الأطفال فيرسخ فى أذهانهم أن أباهم رجل بغيض ، وعندئذ يصعب على الأب أن يظفر بصداقة بنيه .

والزوجة الصالحة هى التى تشعر أبناءها فى كل وقت بعظمة أبيهم وتروضهم على احترامه وحبه ، وتؤكد فى أنفسهم الشعور بما يملك من جميل

---

(١) محاضرة ألقيت فى محطة الإذاعة العراقية .

(*) سنة ١٩٣٨ ، وحى بغداد ص ٣٥٧ .

المناقب والخصال .

الزوجة الصالحة تقول للطفل : « تمسك بهذا الخلق فإنه يرضى أباك ، وتجنب ذلك الخلق فإنه يغضب أباك » .

وعندئذ يشعر الطفل بأن عند أبيه ذخائر من الفضائل فيتشوف إلى الاطلاع على ما فى قلب أبيه من كرائم الطيبات ، ويرى الطاعة من صالحات الأعمال .

فإن سمعتم أن طفلا يحب أباه فاعرفوا أن لذلك الطفل أمًا صالحة ، وإن سمعتم أن طفلا يبغض أباه فاعرفوا أن له أمًا ذميمة الخلال .

وإنما اهتممت بتأكيد هذا المعنى لأنبه الزوجات إلى حقيقة غفل عنها أكثر المربين ، وهى أن الأطفال وديعة ثمينة فى أيدى الأمهات ، ومن الأمهات من ينسين الواجب فيفسدن ما بين الآباء والأبناء ، ويحرمن الأطفال من نعمة عظيمة هى الثقة بالوالد المسكين الذى يضطرب فى دنياه ليقدم إلى زوجته وأطفاله أسباب الرخاء .

وما ابتكرت هذه الحقيقة ، وإنما هى درس تلقيته عن أهلى ، فقد كان أبى رحمه الله رجلا جافيا جدا ، وما أذكر أنه ابتسم فى وجهى غير مرات معدودات ، ولكن أمى رحمها الله كانت لا تذكره أمامى بغير الخير ولا تصوره بغير الجميل .

وكنت فى طفولتى أرى أبى لغزًا من الألغاز ، فهو فيما أرى رجل عنيف ، وهو فيما تصور أمى رجل لطيف ، ولم أعرف وجه الحق إلا يوم حرمتنى المقادير من أبى وأصبحت فى الدنيا بلا صديق .

* * *

ولكن ما الموجب للحرص على صداقة الأطفال ؟

لقد سمعت أننا من بنى آدم ، وسمعت أن آدم كان رجلا له قلب .

والأطفال يعيشون بيننا فى غربة موحشة فليسوا من جيلنا ولسنا من جيلهم ، فهموهم غير همومنا، وهمومنا غير همومهم ، ولن يمكن التوفيق بيننا وبينهم إلا إن صعدوا إلينا أو نزلنا إليهم ، فمن كان له قلب فليعرف هذه الحال وليفكر فى إيناس أولئك الغرباء الذين يتشوفون إلى العواطف والقلوب .

وأول ما يجب التنبه إليه هو اليقين بأن الأطفال يعيشون فى عالم المحسوس ويجهلون عالم المعقول .

وعالم المحسوس هو الأصل ، ولو شئت لقلت إن عالم المعقول ليس إلا تصويرًا لعالم المحسوس .

ومن واجب الأب أن يدرك أن الأطفال يرون الدنيا بعيونهم لا بعقولهم ، من واجب الأب أن يفهم أن مدركات الحواس هى كل شىء عند الأطفال .

فإن بدا لك أن تصادق الطفل فابحث عن مواقع هواه ، واعرف أن فمه أكثر يقظة من عقله ، وأن صندوق الحلوى أفضل عنده من الكتاب الجيد ، وأن الثوب المرقش أحب إليه من القول المزخرف .

والأب الذكى اللبيب هو الذى لا يلقى طفله إلا وفى يده هدية أو تحفة أو طرفة ، فإن فاته ذلك فليقدّم إلى طفله قطعة أو قطعتين من النقود ، وليذكر دائمًا أن هذا هو ما يدرك الأطفال من معانى الوجود .

وفى الدنيا أشياء هى عندنا أوهام ، وهى عند الأطفال حقائق .

ولن نظفر بصداقتهم إلا إن رأينا الدنيا بعيونهم ، ولعلهم أعرف

وأصدق ! كنت أدخل المنزل فيلقانى أطفالى باسمين متهللين لأن الراديو قدم إليهم هدايا نفيسة ، فيها من كل فاكهة زوجان ، فأفرح لفرحهم ، وأطلب نصيبى من هدايا الراديو ، فيقدّمون إلىّ ما بقى من هداياه متفضلين .

وكان هذا الراديو عجيبا ، ولعله أعجب راديو عرفه النـاس ، كان الأطفال يصبحون فيجدون حوله أطايب كثيرة من المأكولات والمشروبات فيصفقون ويهللون ، وتموج بهم الدنيا موج الفرح والاغتباط .

وكنت أنتفع بهذه الفرصة فأفرح لها كما يفرحون .

وكان فى المنزل طفل كبير يرتاب فى هدايا الراديو ، ويظن لسخفه أن تلك الهدايا قدمتها يد إنسان لا يد شيطان .

وكنت بفضل عقلى أفهم أن هدايا الراديو هدايا رديوية ، وأن الراديو هو الذى ينقل الهدايا كما ينقل الأصوات :

وكان أطفالى يحبون أباهم لأنه عاقل ، ويتهمون أخاهم الكبير بالجنون .

فليت شعرى ماذا صنع الراديو بعد رحيلى إلى العراق ؟

أكان يجرى على عادته السخية فيقدم الهدايا إلى أطفالى فى الصبـاح والمساء ؟

أم ترونه حزن لفراقى فحرم الأطفال من تلك الهدايا الطيبات ؟

إن الراديو الذى فى منزلى بمصر الجديدة هو أغرب المبتكرات . ومن الواجب أن يكون له أمثال فى كل أرض ، هو راديو كريم يقدم إلى الأطفال كل ما يشتهون ، وهو يعرف الفوارق بين هدايا المواسم وهدايا الأعياد ، ولم يكن فيه إلا عيب واحد : هو أنه يضن بالهدايا حين أغيب ، ولا أعرف السبب فى ذلك ! فمتى أرجع إلى أطفالى ليرجع الراديو إلى بره المألوف ؟

***

والطفل كثير الاعتداد بالنفس ، وهو لا يصادق من يعدّون عليه الذنوب . ونحن خليقون بالتغاضى عن هفوات أطفالنا . لأنها فى الأغلب هفوات طبيعية ، ولأن هؤلاء الأطفال سيدخلون دنيا الناس بعد حين ، وسيشربون الصاب والعلقم من أيدى الأصدقاء المزيفين ، سينتقل هؤلاء الأطفال إلى دنيا خسيسة لئيمة لا كرم فيها ولا رفق . سينتقلون إلى صحبة ناس لا يسترون عيوبهم ، ولا يغفرون ذنوبهم ، فلتكن صحبتهم إيانا هى الموسم الطيب الذى يرونه فى الحياة .

ولنتذكر أن الأطفال الصغار ليسوا أعقل من الأطفال الكبار ، فقد كان لى صديق أثق بعقله وكرمه ونبله ، ثم اتفق أن أداعبه فأذكر أنه دميم الوجه ، والدمامة لا تعيب الرجال ، فغضب وشتمنى أقبح الشتم فى إحدى الجرائد ، وعنه تلقيت درسا لن أنساه : وهو أن الأطفال الكبار أقل عقلا من الأطفال الصغار فى بعض الأحيان ، ومزاحهم ثقيل ممجوج !!

وأطفالنا سيلقون هذه المكاره بعد حين ، فلنعطف عليهم ، ولنذكر أننا نلقيهم إلى دنيا غادرة لا يحفظ فيها تاريخ إنسان إلا إن لطخ يده بدماء الأبرياء .

الطفل يجب أن تكون له أخلاق الرجال وشمائل الرجال .

ولن نظفر بمودته إلا إن منحناه الثقة بمواهبه العالية .

فما الذى يمنع من النزول عند إرادته عساه أن يستفحل ويستأسد ؟

الطفل يحب أن نثق بأنه أجمل الناس وأذكى الناس .

فما الذى يمنع من أن نقول له صدقت أيها الذكىّ الجميل ؟!

إننا ننخدع كارهين للأطفال الكبار وهم الرجال ! فما الذى يمنع من أن ننخدع طائعين للأطفال الصغار وهم الأبناء ؟

سيداتى وسادتى :

اسمحوا لى أن أعتب عليكم بعض العتب .

لقد مضت أجيال وأجيال ونحن نفرق بين الذكور والإناث ، وقد شهدت بذلك آثار العرب واليهود والهنود .

فهل آن أن نعرف كيف نحب أطفالنا من البنات ؟

إن البنت مخلوق نفيس وهى مصوغة من الروح والوجدان .

إن البنت هى سر الوجود ، ولكن أين من يفهم المعانى ؟

إن البنت هى مصدر الرفق والعطف والحنان .

إن البنت هى أصل ما نملك من الرزق لأنها ضعيفة ، والله يرزقنا بفضل ما فى بيوتنا من الضعفاء .

إن البنت هى التى تعرف كيف تواسى أباها أو أخاها أو زوجها وهو على فراش الموت ، فاحترموا البنت وأعزوها واجعلوها من كرام الأصدقاء .

هل قرأتم سيرة المسيح ؟

لقد شاء الله أن يكون ذلك النبى ابنا لامرأة تنكر لها أهلوها ليريكم أن الأمر بيد الله لا بيد الناس .

أراد الله أن يعلمكم أن تقاليدكم خداع فى خداع ، وأنكم لم تروا من بحار الحقائق غير أوشال .

وقد سمعت أن ناسا من الإنجليز يتطاولون على « العذراء » فى حديقة هايدبارك فليتطاولوا كيف شاءوا ، فستبقى العذراء عذراء وإن نطحوا بقرونهم رواسى الجبال .

سيداتى وسادتى :

صادقوا أطفالكم وأطفال من تعرفون بلا تحفظ ولا تهيب ، فالطفل هو الزهرة الكريمة التى تنبت فى الصحراء .

الطفل هو أطيب ما فى الوجود ، وهو الصديق الحق لو تعلمون .

الطفل هو الذى يقبل وجوهكم برفق وعطف ، وكل مودة غير مودة الطفل هى رياء فى رياء .

الطفل هو المؤمن بالوداد ومن سواه كفار جاحدون .

قبلة الطفل صدق فى صدق ، وصداقة الطفل إيمان فى إيمان .

فإن فاتتكم تلك القبلة وهذه الصداقة فستعيشون محرومين .

الطفل مخلوق لطيف لم يطلع على سفه الدنيا ولؤم الزمان .

الطفل يثق ويوقن ، فأفهموه أنكم أهل للثقة واليقين .

الطفل يشتهى أن يحب فأحبوه .

الطفل يطمئن إليكم ، فاطمئنوا إليه .

الطفل يتوكل عليكم ، فتوكلوا على الله واعطفوا عليه .

الطفل يتوهم أنكم ناس ، فأفهموه أنكم ناس .

الطفل هو نعمة الله فلا تجحدوا نعمة الله .

أما بعد فإن الظفر بصداقة الطفل أمر سهل عند من يفهم أسرار الغرائز والميول ، ولكنه صعب جدًا على من ينتظر من الأطفال أن يفكروا بعقول الرجال .

فارجعوا إلى طفولتكم حين ترون أطفالكم لتذوقوا معانى السعادة من جديد ، ولتنسوا فى صحبتهم متاعب الجد الرزين .

* * *

أطفال بوهيميون

البوهيمية كلمة أجنبية ألفها الناس منذ سنين ، وهى بالعربية « الصعلكة » ، والبوهيميون هم الصعاليك ، وحياة « البوهيمية » حياة تطيب لبعض المخلوقات ، ويألفها هواتها إلفا شديدا لأنها تريحهم من أثقال الشرف وأعباء التقاليد ، وحياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله إلا الأبطال(*) .

أكتب هذا وقد قرأت من أيام خبرا صغيرا ، ولكنه مزعج . ويتلخص فى أن طفلا غاب عن أهله أسابيع ثم عثر عليه البوليس بين الأطفال الذين يجمعون أعقاب السجاير من الطرقات ، ولما سئل أهله أجابوا بأنه كان يعيش عيشة الرغد ، ولكنه هام بالصعلكة حين اتصل بغلمان الشوارع .

وهذا أيضا خبر صغير يقرؤه المرء ثم ينساه بعد لحظة ، ولكن المشغوفين بالدراسات النفسية يقفون عنده وقفة طويلة لينظروا كيف يقبل الطفل أن يهجر حياة الرغد ليحيا حياة التشرد ، وليروا كيف يجب أن يساس الأطفال سياسة حازمة ، وكيف يتحتم حرمانهم من الاتصال بمن ألفوا البطالة والفراغ .

إن المدنية الحاضرة مدنية مصنوعة إذا قيست بأصل الفطرة الحيوانية ، والإنسان فى الأصل حيوان متشرد لا يفكر فى المأوى إلا إذا جن الليل ، فحياة النظام طارئة عليه ، ولكنها صارت على الزمن حياة طبيعية يهلك من

(*) البدائع جزء أول ص ١٨٣ .

ينحرف عنها قيد شعرة ، فكل إنسان يجد فى فطرته ميلا غريزيا إلى الحياة الخالية من التكاليف ، وهذا هو السر فى أن الداعرين والفاسقين يرون أنفسهم أسعد الناس ، ومثلهم فى ذلك مثل الطائر المحبوس حين يخرج من القفص ، والفرق بينهم وبين مصير الطائر الطليق أن الطائر يجد جوًّا حرًّا كل الحرية ، أما الفاسق فيتحرر من قيود التقاليد ليقع بعد لحظات فى مخالب القانون . والقانون بدعة إنسانية ، ولكن الخروج عليه صار من المستحيلات ، وأصبح الخلاص من أخطار الوحشية الأولى وقفا على طاعة ما ابتدع الإنسان من القوانين .

ومن هذا التعليل نفهم كيف يهرب الطفل من حياة الرغد فى بيت منظم ليتصعلك ويتشرد بين « السعداء » من المتشردين والصعاليك . غير أن هذا الطفل لا يفهم أنه يتعرض لغضب القوانين الوضعية التى وضعتها الحكومات وأقرها الناس من مختلف الأجناس ، وصار الخروج عليها خروجا على أسباب السعادة الإنسانية فى عهود المدنية . فهو ينعم أياما بحريته ليظل طول الحياة ذليلا مهينا لا يقام له وزن بين الأحياء .

والآباء مسئولون عن هذا المصير المحزن إن تهاونوا وتسامحوا فى رياضة أبنائهم على حياة المدنية ، حياة القيود والتقاليد ، فالإنسان حين اشترى طمأنينته الإنسانية قدم فى ثمنها حريته الحيوانية ، والمغبون هو من يثور على التقاليد فى كل وقت بحجة أنها قيود صناعية ما أنزلت بها الطبيعة من سلطان . ومن حق الإنسان أن يتفلسف ولكن على شريطة ألا يعرض نفسه وأهله للشقاء .

وهذه الصعلكة التى يهيم بها الأطفال هى أيضًا مما يغرم به الرجال ، وأكاد

أعتقد أن الآباء هم الذين يحببون إلى أبنائهم هذه « البوهيمية » الحمقاء ، فمن العسير فى هذه الأيام أن تجد رجلا فى بيته حين يجن الليل . ومن الذى يعمر دور الملاهى والملاعب والمفاسق والمعابث ، إن عرف الرجال أن للبيت حرمات ، وأن له واجبات ، وأن من العقل أن يفكر الرجل فى إيناس أهله قبل أن يفكر فى إيناس أخدان المشارب والقهوات ؟!

الق من شئت من أصدقائك وأظهر له شوقك فسيسألك دائما هذا السؤال :

« أين تسهر لنراك » ؟

ومن النادر أن يسأل صديق عن عنوان بيتك لأن أهل هذا الزمان لا يتزاورون فى البيوت ، وتكون النتيجة أن تخلى أطفالك فى البيت وتخرج ، فيتوهموا أنك وحدك السعيد وهم الأشقياء . وحينئذ يزهد الطفل فى ألعابه ، وينصرف التلميذ عن دروسه ، ويهمون جميعا بالخروج ، وإلى أين يخرجون ؟ إلى السينما ؟ إلى المسرح ؟ إلى المرقص ؟ إلى أين ؟ أجبنى ، فليس فى هذه الموارد كلها ما يوجه الطفل والتلميذ واليافع والمراهق إلى حياة الشرف والصيانة والعفاف .

أعرفت الآن أن الآباء هم الذين يوحون إلى أبنائهم حب « البوهيمية » ويزهدونهم فى حياة الطهر والصون ؟ أعرفت أن حياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله إلا الأبطال ؟

ولكن كيف نروض أبناءنا على بغض حياة الصعاليك ؟ السبيل إلى ذلك أن نخلق لهم نماذج من المثل العليا فى الحياة ، وأن نوجههم منذ الصغر إلى التشبه بكرام الرجال ، وأن نجعل لهم من الفضيلة مواطن للشغف واللهو ،

ففى الفضيلة مغريات لا تقاس إليها مغريات الرذيلة حين يحسن التوجيه وخلق أسباب التعلق بعزائم الأمور . وهل فى الدنيا لهو ألذ وأمتع من أن يقوم الطفل بمسابقة أقرانه والتفوق عليهم والظهور بمظهر النبل والرجولة والعظمة فى القول والفعل !

يسأل عن ذلك الأم أولا ، والأب ثانيا ، والمدرس ثالثا .

والحكومة ؟ أنا لا أسأل الحكومة شيئا . لأن أولى الأمر ناس أمثالنا وقد يسعدون فى الدواوين وهم فى بيوتهم أشقياء، والحكومات فى كل الأمم آخر من يسأل عن الإصلاح ، لأن الشعوب هى التى تسأل عن أصول الأخلاق ، والحاكم لا يرشدك ولكنه يربيك . فهو يغبطك حين تسعد ، ثم يمد يده إلى السوط حين تنحرف عن طريق الصواب .

وأعود فأقول مرة ثالثة : إن حياة الفضيلة عبء ثقيل لا يحتمله إلا الأبطال .

٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٣ .

* * *

بعض المدارس الأهلية

لا أذكر أني كتبت شيئا فى مهاجمة المدارس الأهلية ، لأنى أعتقد أنها أدت خدمات كثيرة كانت تعجز عنها وزارة المعارف العمومية ، والإعانات التى تمنحها الحكومة لتلك المدارس هى الشاهد على صدق ما أدت من الخدمات ، فإن وزارة المعارف لا تعين المدارس الأهلية على سبيل الصدقة والإحسان ، ولكنها تعينها على أساس أنها تؤدى خدمات علمية كان من واجب الوزارة أن تؤديها لو ساعفتها الظروف(*) .

وقد أكثر الناقدون من اتهام أصحاب المدارس الأهلية بحب المال ، و لم أشأ أن أشاركهم فى ذلك ، لأن التعليم من أبواب الرزق ومن حق المعلمين ونظار المدارس أن يطمعوا فى الرزق الحلال .

ولكن خبرا صغيرا تافها طرق أذنى عن بعض أصحاب المدارس الأهلية فاقشعر له بدنى وتمثلت فيه أشباح الخطر المخيف . والخبر صغير تافه كما قلت ، ولكنى أراه ينذر بسيء العواقب ، وهو يتلخص فى أن بعض نظار المدارس الأهلية لا يرى مانعا من أن يدخل التلميذ إلى مكتبه وفى يده سيجارة .

إنه لخبر صغير حقا ، ولكن ما رأى القارئ فى أنه ينذر بداهية شعواء . إن عادة التدخين عادة سيئة حين يعرفها الرجال ، فكيف يكون قبحها حين يتعودها الأطفال .

إن عادة التدخين عند الشبان هى السبب الأول فيما ينحدرون إليه من

(*) البدائع جـ٢ ص ٤٣ .

سفالة الأخلاق ، والقارئ قد يعجب من ذلك ، لأن السجارة قليلة الخطر ، ولكن عجبه يذهب حين يعلم أن التدخين يفتح للتلميذ نفقات إضافية لا تقل عن خمسة قروش فى كل يوم ، ومن أين يجد المسكين هذه القروش حين تضطره المحرجات إلى كتمان مرض التدخين عن أهله وذويه . لا تعجبوا إن قلنا لكم إن الأمراض الأخلاقية التى تهدد شبان اليوم مصدرها التدخين ، فالشاب حين يقترض ثمن السجائر من جار أو رفيق قد ينتهى إلى حقارة نفسية يضيع بها عليه الشرف أغلب الأحيان .

والناظر الذى يستقبل التلميذ فى مكتبه ويراه يدخن ولا ينهاه ، ما قيمة ذلك الناظر بين رجال التربية والتعليم !؟ إن قبول هذه الصغائر أو السكوت عنها لا يليق برجل يتصدر لتهذيب الناشئين ، وجبن الناظر عن طرد تلميذ يبث عادة التدخين بين إخوانه هو جبن أمام القناعة وضبط النفس عن حب المال ، فإن التلميذ فى بعض المدارس الأهلية لا قيمة له إلا ما يقدم من المصروفات المدرسية ، وتلك المصروفات تعود أحيانا من الحرام البحت الذى يتورع عنه كرام الناس .

إن حرم المدرسة يجب أن يصان من كل دنس ومن كل زيغ ومن كل انحراف ، ويجب أن يعلم النظار والمدرسون أنهم لا يستطيعون رياضة الطلبة إلا إن عرفوا بالحزم ومتانة الأخلاق .

والناظر المتهاون الذى يرى بعينه انزلاق الطلبة إلى مهاوى الترف السخيف ثم لا يطردهم أو لا ينهاهم هو رجل يخاطر بمدرسته مخاطرة حمقاء ، فإن التلميذ الفاسد يشعر فى أعماق نفسه باحترام الناظر الذى يفهم واجبه ، فلا يظن بعض النظار أنهم يتوددون إلى التلامذة ويقربونهم إليهم بالتسامح فى

الصغائر التى تجر الناشئين إلى مهاوى الضلال .

ورجال التربية مسئولون عن إصلاح الفاسدين ، وهم خليقون بالنقمة إن تسبب تهاونهم فى إفساد الصالحين ، ومهمة المربى أن يكون جيشا للفضيلة فى معهده بحيث ينساق التلميذ الفاسد إلى التخلق بأخلاق الفضلاء — وعندئذ تقوى الوحدة الروحية والخلقية فى المعهد ، ويرغم ضعيف الخلق على الاقتناع بأنه فى غربة موحشة لا ينجيه من أهوالها إلا الاقلاع عما درج عليه من سيئ الخلال .

إن بعض النظار والمدرسين يتظاهرون بالانطباع على شمائل الأغنياء ، والأغنياء كانوا ولا يزالون من أهل التسامح مع أبنائهم ، وهو تسامح له ذكر عاطر فى المحاكم ومعاقل البوليس !

فليلزم رجال التربية حدود الخشونة ، وليذكروا أن من الشرف أن يفهم الناس أنهم عمال يحملون الأحجار فى بناء النهضة العلمية والخلقية . وليفهموا جيدًا أن الأمة لا تريدهم سماسرة ترف ولين ففى الحانات والمراقص غنى عن ذلك ، وإنما تريدهم الأمة جنودًا مخلصين يحمون العرض والعقل من عادات النزق والطيش .

هى سجارة فقط ، نعم ولكن بعدها الكأس ، وإذا عرف التلميذ الكأس فقد انتهى إلى مصاير السفهاء ، ومن ذلك ترون أنه لا غرابة أن تتقزز النفس ويقشعر البدن حين نسمع أن من نظار المدارس الأهلية من يستقبل تلميذا فى مكتبه وفى يده سيجارة ، فقديما قيل « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

إن التسابق إلى الحزم والرجولة أولى بحميتكم وحماستكم يا نظار المدارس الأهلية ، فإن لم تفعلوا — وستفعلون — فإنكم تهدمون مدارسكم من حيث

لا تشعرون .

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٣ .

الحديث ذو شجون

لعلنا لا نكون قد بعدنا عن الواقع لو استعرنا هذا العنوان من الدكاتره زكى مبارك عنوانا لبعض مقالات المفكر الكبير زكى مبارك ؛ ذلك أننا نود أن نقدم للقارئ رؤوس مواضيع كتبها زكى مبارك لينبه القراء إلى الدرس ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ .

يقول زكى مبارك : « الشجون التى تردفى كلام العاشقين مفردها شجن بفتح الجيم وشجونى أنا مفردها شجْن بسكون الجيم، ومعناها فن، إذن يكون المعنى الحديث ذو فنون ... ولى خطة وهى أن يكون فى كل حديث ما يوحى إلى القارئ فكرة ولو صغيرة ، فالفكر كالنار قليلها ليس بالقليل[1] .

وقد رتبنا المقالات حسب الموضوع بصرف النظر عن تاريخ المقال ، وربما كان هذا فى معظم صفحات الكتاب ، لأن زكى مبارك لم يكن يدون مذكرات لما يصادفه فى حينه ولكنه كان يختزن ذلك فى قرارة نفسه حين تحين الفرصة فيدون ما رأى كما وقع بلا تغيير أو تبديل[2] .

كما أن هناك بعض التغييرات فى المسميات فوزارة المعارف الجليلة هى الآن وزارة التربية والتعليم ، وشهادة التوجيهية هى اليوم الثانوية العامة ،

---

(١) من كتاب « زكى مبارك بقلم زكى مبارك » توزيع مدبولى .

(٢) نفس المرجع السابق فى المقدمة .

وشهادة الثقافة لا يعرفها شباب اليوم ، وكانت على أيامنا شهادة تمنح قبل شهادة التوجيهية بسنة .

والآن مع بعض مقالات المفكر الكبير الدكتور زكى مبارك ؛ ففى كل مقال ما يوحى للقارئ بفكرة ... وللقارئ أن يفكر فيما يقرأ وأن يعلق عليها ، فربما كان لهذه التعليقات صدى أوسع بصدور الأفكار التى تناقش ما كتب زكى مبارك .

فنثرى المكتبة العربية بالمزيد من الفكر والثقافة .

المؤلفان

طبيعة الأرض المصرية

حين هبطت قيمة الفرنك الفرنسى فى سنة ١٩٢٥ لم تر الحكومة الفرنسية رفع أجور السكك الحديدية ، لأنها كانت ترى أن هبوط الفرنك هبوط مؤقت ، فلا يجوز أن تتغير معالم الحياة بهبوطه تغيرا يصيرها أضحوكة بين الأمم الأوربية .

عند ذلك قال أحد حكماء فرنسا ، « أيها الفرنسيون ، انتهزوا فرصة الرخص فى السكك الحديدية واعرفوا معالم بلادكم » .

ومعنى هذه الوصية أنه يجب على الفرنسى أن ينتفع بالفرصة فيزور البلاد التى منعه من زيارتها الغلاء الذى سبق هبوط الفرنك(*) .

(*) جريدة البلاغ فى ٣ / ١١ / ١٩٤٥ .

وقد شاءت المقادير أن تهب لى فرصة أعرف بها معالم البلاد المصرية ، وهى تفتيش المدارس الأجنبية ، وكانت الخطة عندى أن أزور المدارس التى تجهلها وزارة المعارف . ومع أنى من ملاك مصر الجديدة فقد تحيرت فى تحديد ما فيها من المدارس الأجنبية ، وشكوت إلى المسيو بايو هذه الحيرة فابتسم وقال : إننى شكوت ما شكوت أنت منه قبل سنتين ، ثم اهتديت إلى مخازن شملا وهى التى تورد الملابس إلى المدارس الأجنبية بمصر الجديدة ، وسأرسل إليك غدا بيانا مفصلا بأسماء تلك المدارس . ثم جاء البيان ، فماذا رأيت ؟

رأيت العجب العاجب والعجب العجاب ، واستغربت من جهل وزارة المعارف :

هل تعرفون أن فى مصر الجديدة تسعا وعشرين مدرسة أجنبية ؟

وما هو عدد مدارسنا فى مصر الجديدة ؟

لنا فى مصر الجديدة مدرسة أولية فى مكان مجهول ، ومع هذا تدفع الوزارة فيه ايجارا شهريا هو من الضخامة بمكان .

ولنا فى مصر الجديدة مدرسة ابتدائية كانت تقيم بمنزل أحد المفتشين ، يوم كان للمفتشين سلطان بوزارة المعارف !! ولم يكن لنا بمصر الجديدة مدرسة ثانوية ، فكان أبناؤنا يتوجهون إلى مدارس القاهرة من أمثال مدرسة فؤاد الأول والمدرسة التوفيقية ... ولم يكن لنا فى مصر الجديدة مدرسة ثانوية للبنات فكانت بناتنا يتوجهن إلى المدارس الثانوية للبنات .

وأنا لا أعيب على الراهبات تبشيرهن بدين المسيح ، فأنا أحترم العقائد ، وأرى أن من حق صاحب العقيدة ومن واجبه أن يدعو إليها فى حدود ما يطيق . ولكن المشكلة هى موقف شركة مصر الجديدة مع وزارة

المعارف ، هذه الشركة البلجيكية العرق تمنح المدارس الأجنبية مساحات واسعة من الأرض ، فقد منحت الليسيه فرانسيه ٤١ ألف متر بالمجان ، ومنحت المدرسة الإنجليزية ما يقرب من ذلك ، ومنحت مدرسة الراهبات مساحة واسعة جدا ، مساحة لا تروى حديقتها إلا بوابور يتكتك فى الضحى والأصيل . وصنعت مثل هذا الصنيع مع الكنائس ، ولم تصنع مثله مع المساجد ، إنها فى بداية تكوينها أنشأت مسجدا صغيرا لتشجيع العمال على الإقامة بالمدينة وتفضلت فأنشأت لهم حيا فقيرا مزريا سماه بعضهم «عزبة المسلمين » ، نعوذ بالله من فساد الذوق .

وفى سنة ١٩٣٢ كتبت فى جريدة البلاغ كلمة قاسية انتقدت بها تلك التسمية ، فأسرعت الشركة إلى تغيير الاسم وسمت تلك العزبة الحقيرة « عزبة البستان » أى بستان ؟ هل غرست الشركة فى تلك البقعة شجرة واحدة ؟ هل جادت على أبناء العمال بحديقة صغيرة يتنزهون فيها من وقت إلى وقت ؟

وأعود فأقول إن وزارة المعارف لم تبن فى مصر الجديدة مدرسة للبنات ، وإنما تقيم مدرسة البنات المصرية فى بيت مؤجر !!!

وأين ؟ وفى أى مكان ؟

فى مواجهة مدرسة الراهبات ، المدرسة الفخمة ذات الأفنية الرحيبة والحديقة الغناء .

تطاولت فتاة على رفيقتها فقالت : أنا تلميذة بمدرسة « السّكركير » وأنت تلميذة بمدرسة الحكومة .

ليت للحكومة أذنا تسمع ، وقلبا يعقل !

إن قلبى يتفصد من الحزن كلما تذكرت أن الفتاة المصرية تشعر بالذلة حين تدخل مدرسة مصرية ... ويجب أن تعرف أن للبنات إحساسا رقيقا بمعانى الكرامة الذاتية ، فالبنت حين تحلف تقول : « وحياة أبويا » وهذا القسم قديم فى مصر وله نظائر فى الأقاصيص الفرعونية .

ما هى ذنوب بناتنا حتى نذلهن بدخول المدرسة المصرية ، المدرسة التى تهينها وزارة المعارف بوضعها فى بيت مؤجر لا يتسامى إلى فخامة المدرسة الأجنبية ؟ اتقى الله والوطن يا وزارة المعارف !

إنهن أمهات المستقبل ، فمن الواجب أن يواجهن حياة الزوجية بنفوس عزيزات لا ذليلات ، ليورثن أبناءهن عزة النفوس والقلوب .

ثم أعود فأقول : إن وزارة المعارف فطنت قبل أعوام قلائل إلى أنه يجب أن يكون لها فى مصر الجديدة مدرسة مبنية باسم الحكومة المصرية . وكان ذلك لأن المدرسة الابتدائية كانت تقيم فى بيت له تاريخ ، فقد كان يوما منزلا استأجره أحد الأغنياء ، ثم غضبت أسرته على البيت لأنه دون ما تريد ... والبيت الذى ضاقت به أسرة هو نفسه البيت الذى استأجرته وزارة المعارف ليكون دارا للمدرسة الابتدائية ، ولكن وزارة المعارف وزارة مصرية والمصرى بفطرته نبيل الطبع ، وهو يكره الضيم ويثور عليه ، وإذن يجب أن تبنى الوزارة دارا للمدرسة الابتدائية ، وتجعل منها نواة للمدرسة الثانوية وكان ذلك فى سنة ١٩٣٦ .

وهنا تقع واقعة دموية ، وهى موقف الشركة من وزارة المعارف .

إن شركة مصر الجديدة تعرف أن وزارة المعارف عندها فلوس فمن الواجب أن تأخذ حظها من تلك الفلوس . وتنظر الوزارة فترى أن كل شىء

بثمن ، وأن الشركة محروسة بالمحكمة المختلطة ، وأن الذوق لا ينفع فى مخاطبة ناس لا يتخاطبون بغير رنين الدنانير . ثم تنظر الوزارة فى الميزانية فترى أنها لا تستطيع أن تشترى من الشركة غير اثنى عشر ألف متر ... تذكروا أنى حدثتكم منذ لحظات أن الشركة أعطت الليسيه فرانسيه أكثر من أربعين ألف متر بالمجان (أنشئت مدرستنا بمصر الجديدة مع مدرسة الليسيه فى عام واحد هو عام ١٩٣٦) .

قامت مدرستنا الغالية بمصر الجديدة وعرف أبناؤنا أنهم ليسوا غرباء فى ديارهم ، ولكن المدرسة يحيط بها ميدان من الجهة الغربية ، ميدان لا يزيد عن الأربعة آلاف من الأمتار ، وطمعت مدرستنا فى أن يضاف إليها الميدان لتجعل منه أمكنة للنشاط المدرسى . وتنبهت الشركة وقالت : هاتوا الفلوس ، هاتوا الفلوس ، هاتوا الفلوس !!!

أنا أعرف نفسية شركة مصر الجديدة ، ومن عيوب هذه الشركة أنها لا تسمع كلمة الناصح الأمين ، مع أنها تدعى العلم بالدقائق الاقتصادية . وقفت فى وجهها أكثر من خمسين مرة لأنهاها عما تتورط فيه من استغلال الميادين ، وجمعت إخوانى من ملاك مصر الجديدة لنواجه مدير الشركة بالخطر الذى تنحدر الشركة إليه .

كان فى مصر الجديدة ملعب ظريف اسمه « اللونا بارك » وكان صورة مصغرة من ملعب اللونا بارك فى باريس ، فهدمته الشركة لتبيع أرضه حين وجدت مشترين يدفعون فى ثمن المتر عشرة جنيهات . وغلبت هذه السياسة غلبة قوية على الشركة الغنية ، فأرادت أن تطمر حمامات مصر الجديدة لتبيع أرضها على نحو ما باعت الأرض التى كان يقوم فوقها اللونا بارك ...

ولن تستطيع !

وهى اليوم تتبغدد على وزارة المعارف ... مدرستنا الغالية تقول : أعطينى أيتها الشركة هذا الميدان ، فتقول الشركة : إنه ميدان ، والميادين لا تباع .

قولى الحق يا شركة مصر الجديدة ، قولى إنه ميدان يجاور مدرسة الحكومة ، وأن المتر فيه لا يقل ثمنه عن عشرين من الجنيهات ، وأن وزارة المعارف عندها فلوس .

أما بعد — وقد أتعبتنى أما بعد — فأين وزارة الأشغال ؟ وأين وزير المعارف ؟

أين الملفات الخاصة بالعقود التى ارتبطت بها شركة مصر الجديدة مع الحكومة المصرية ؟

* * *

الحديث ذو شجون

الأمم لا تموت[*] :

فى الدنيا أمم خلقت للحياة ، وهذه الأمم لا تموت ، وإن تبدلت من حال إلى أحوال .

ولنضرب المثل بالأمة المصرية فى عهدها القديم وعهدها الجديد ، ففى العهد القديم حملت مصر راية الحضارة فى النواحى العلمية والأدبية والفنية آلافا من السنين . ولما ضاع استقلالها السياسى فيما بعد لم تخمد تلك الجذوة ، وإنما ظلت مصر ترسل أشعة المدنية إلى آفاق الشرق والغرب وتعلم الوافدين عليها معانى الحياة فى العلوم والفنون والآداب . وحين فتح العرب مصر باسم الإسلام تفتحت مصر للحياة من جديد ، واستشعرت معانى العزة القومية ، والتاريخ يشهد بأن كل والى على مصر من قبل الخلافة الأموية أو الخلافة العباسية كان يرفع راية الاستقلال عن الخلفاء ، وكان ذلك لأن مصر بطبيعتها تغرس فى حكامها مبادئ العزة والكرامة والذاتية .

وهنالك ظاهرة عجيبة لم تنل حقها من الالتفات ، فقد كان الشعراء يتجهون إلى المشرق لينالوا جوائز الخلفاء فى دمشق أو بغداد أما رجال التشريع الإسلامى فكانوا يتجهون إلى مصر وطن الفكر المشرق والفهم العميق .

ولم تمض إلا سنون حتى كانت مساجد مصر معقلا للدراسات التشريعية

(*) جريدة البلاغ فى الخامس من مارس سنة ٤٦ .

بصورة باهرة لم يسبق لها مثيل . فكان النضال بين الشافعية والمالكية والحنفية أساسا لنهضات عقلية تشرح صدور المفكرين .

وهنالك أيضا ظاهرة أغرب وهى أن مصر تبنت كل من وفدوا عليها فصيرتهم مصريين فالفاطميون مصريون والمماليك مصريون ، ولكن كيف ؟

أشرح هذه الظاهرة فأقول : لم تعد قومية مصر فى العهد الإسلامى قومية عنصرية ، وإنما صارت قومية إسلامية . فالخلفاء من الفاطميين والسلاطين من المماليك كانوا يرون جميعا أن الجنسية المصرية جنسية إسلامية . ولهذا لم ير المصريون غضاضة فى أن يمنحوهم الطاعة والولاء .

وقد وقفت مصر فى أوجه الصليبيين وردتهم على أعقابهم خاسرين باسم القومية الإسلامية وإن كان قادتهم من المماليك أجانب فى نظر العنصرية المصرية وهى عنصرية لم يلتفت إليها المصريون فى تلك العهود .

وحين فتح الأتراك مصر لم ينسوا التودد إلى قومية مصر الإسلامية ، فكانوا يرسلون أبناءهم لتلقى العلم فى المساجد المصرية . فمساجد مصر كانت دائما معابد للصلاة ومدارس للتعليم والتثقيف ، كما نرى فى أبنية تلك المساجد وهى باقية على ما أنشئت عليه حتى هذه الأيام .

* * *

ملاحظة جديدة :

حين توليت تفتيش المدارس الأجنبية طلبت من وزارة المعارف بيانا عن تلك المدارس فكان عددها الذى تعرفه الوزارة ١٧ مدرسة ، فتعجبت من ذلك البيان وحفظته عندى .

ثم طلبت من مصلحة الإحصاء بيانا من المدارس الأجنبية فكان عددها بالضبط ٤٠١ .

وبالنظر فى تلك المدارس رأيت للفرنسيين نحو ٣٠٠ مدرسة .

ورأيت أن أعرف عدد المدارس الفرنسية فى قطر مثل العراق فرأيت أن العراق ليس فيه لأمثال هذه المدارس مكان .

هنا توجهت إلى صديق فرنسى أثق به ويثق بى وسألته عن تفسير هذه الظاهرة الغريبة فقال ما نصه بالحرف Tout doit partir d'ici .

ومعنى هذه العبارة أن كل شيء يجب أن يسافر من هنا ، ومعناها أيضا أن الذى يريد أن يغزو الشرق غزوة فكرية وعقلية فمن واجبه أن يجعل مصدر الغزوة من الديار المصرية .

وقد فطن الإنجليز إلى هذه الفكرة ، فأنشئوا ما سموه المعاهد البريطانية وهى تجتهد فى منافسة المعاهد الفرنسية .

ومعنى هذا كله أن مصر هى القاعدة الحربية لغزو الشرق ... ألم أقل لكم إن ثورة الهند سنة ١٩١٩ على الاستعمار هى أثر من ثورة مصر عليه فى ذلك الحين ، وأن ثورة الهند على الاستعمار فى سنة ١٩٤٦ هى أثر من ثورتنا عليه فى ذلك الحين ؟

ليت قومى يعلمون !

ليت ثم ليت !!

المدرسة الهولندية :

أين من يعرف أن لهولندا مدرسة ابتدائية فى القناطر الخيرية ؟

هى مدرسة صغيرة ولكنها مدرسة ترفع العلم الهولندى ، ولقد استطعت

بعد نضال أن أنقل فريقا من تلاميذها إلى مدرسة سنتريس .

وكان سبب النضال أن ناظر مدرستنا لم ير أنها مدرسة نظامية حتى يمكن قبول تلاميذها فى مدرسة أميرية ، ولكنى غلبته بالحجة حين أريته دفاتر التفتيش واسمها مدون فيه ، والوزارة لا تشير بتفتيش مدرسة إلا وهى معترف بأنها مدرسة نظامية ، وقد راعى الناظر خاطرى فقبل اقتراحى ، جزاه الله خير الجزاء .

ماذا أريد أن أقول ؟

أنا أقول بعبارة صريحة أن جميع الأمم المُسْتَعْمِرَة تريد أن تجعل مصر قاعدة لغزو الشرق والأمر كذلك بالفعل .

وقد حدثتكم من قبل أن فى مصر الجديدة سبعا وعشرين مدرسة أجنبية ، مع أن سكانها يقلون عن مائة ألف ، وحدثتكم أيضا أن فى شارع واحد من شوارع شبرا ستة مدارس أجنبية ، ولا تسألوا عن عدد المدارس الأجنبية فى غيره من الشوارع ، فالأجانب يعرفون أن سكان شبرا بلغوا ثلثمائة ألف ، ومن الواجب تحويلهم إلى جنود يبلغون رسالة الاستعمار إلى أمم الشرق .

أنا أحترم من يخدم وطنه بصدق وإخلاص ، ولهذا كنت أحترم رؤساء تلك المدارس ، وأزور مدارسهم بترفق لأنقل تلاميذهم إلى الحياة المصرية ، وقد استطعت أن أقنع رؤساء تلك المدارس بوجوب تدريس مبادىء الدين الإسلامى للتلاميذ المسلمين ، وأن أنشىء كثيرا من الأقسام المصرية بالمدارس الأجنبية ، ثم ! ثم ماذا ؟

ثم أتعجب من أن يعرف الأوربيون والأمريكيون أن مصر هى القاعدة

لغزو الشرق من النواحى الفكرية والعقلية ، ولا نعرف نحن ؟!

فمتى نعرف ؟ متى نعرف ؟

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فلنغير ما بأنفسنا من اليأس لنصير نارًا يثور بها الأمل فى صدور أهل الشرق .

مدرسة انجليزية

كان الأستاذ ... مراقبا بوزارة المعارف ، فبلغه عن المدرسة الإنجليزية بالروضة شىء ، وهى مدرسة تعد تلاميذها للامتحانات العمومية ، ومن واجب وزارة المعارف أن تعرف ما يدور حولها من أشياء .

مضى المراقب إلى المدرسة فدخل حجرة السكرتير وقال : أبلغ جناب المدير أن المراقب يريد مقابلته لشئون متصلة بالتعليم فى المدرسة(*) .

خرج إليه السكرتير وقال : إن جناب المدير يرحب بمقابلتك لو كانت زيارتك زيارة شخصية ، ولكنه بكل احترام يعتذر عن مقابلتك بصفتك الرسمية ، لأن المدرسة غير خاضعة لتفتيش وزارة المعارف المصرية .

* * *

رجع المراقب كاسف البال وسأل عنى بمكتب تفتيش اللغة العربية ليقول : كيف تفتش هذه المدارس يا دكتور ؟

وقص علىّ ما وقع فقلت له : لا عليك .

(*) البلاغ ٣ أكتوبر سنة ٤٥ .

فقال : ما معنى لا عليك ؟

فقلت : هى عبارة عربية معناها أنى سأشفى صدرك فى صباح الغد .

ــ وكيف ؟

ــ سيعتذر المدير إليك .

مضيت إلى حضرة السكرتير وقلت له : بلغ جناب المدير أن الدكتور زكى مبارك يريد مقابلته . وما هى إلا لحة حتى قال السكرتير : تفضل ، تفضل .

المدير إنجليزى يتكلم الفرنسية بسهولة ، ويتكلم العربية بصعوبة ، فكان الحديث بالفرنسية .

ابتسم وقال : أنت الدكتور زكى مبارك .

ــ نعم .

ــ لقد قرأت مقتطفات من مقالاتك ، مقتطفات مترجمة من العربية إلى الفرنسية والإنجليزية .

ــ إن لغتى يا جناب المدير أفصح مما تنقله المترجمات ، ولو أن المترجمين استشارونى لكانت الترجمة جديرة بالتعبير عما أريد من دقائق المعانى .

ــ تسمح بسؤال ؟

ــ أسمح بسؤالين .

ــ ما هو عملك ؟

ــ مفتش بوزارة المعارف .

ــ إذن جئت للتفتيش ؟

ــ جئت لأقنعك بوجوب التفتيش على مدرستك .

فابتسم المدير وقال : أقنعنى .

فقلت : إننا وثقنا بك ، فرضينا بأن يكون أبناؤنا تحت رعايتك ، ولولا الثقة بإخلاصك لنفرناهم منك وحرضناهم عليك .

فقال المدير وقد بدا الحزن على وجهه : أنا هنا لخدمة التلاميذ المصريين ، وأنا أخدم بريطانيا بالصدق ، وبريطانيا تأمرنى بأن أكون دائما من الشرفاء .

* * *

— نترك بريطانيا ومصر يا جناب المدير ونتخاطب بلغة التعليم ، وأنا أسألك ما هو الموجب لوظيفة المفتش ؟

فقال : إن التفتيش رقابة ضرورية وبها نعرف أحوال المدرسين .

فقلت : هل تعرف اللغة العربية ؟

فقال : لا .

فقلت : هل عندك مفتش للغة العربية ؟

فقال : لا .

فقلت : اسمح لى يا جناب المدير أن أقول بكل احترام إن وزارة المعارف المصرية منحتكم حقا هو من الخطورة بمكان .

— وما هو ذلك الحق ؟

— هو أن تكون امتحانات النقل فى داركم ، لا فى ديار المدارس الأميرية وهو حق لم تظفر به المدارس الأهلية .

— هذه مسألة تحتاج إلى توضيح فاشرحها بإطناب.

— سأشرحها بإيجاز فأقول : إننا منحناكم الحق فى امتحان تلاميذكم فى

داركم على شرط .

ـــ وما هو ذلك الشرط ؟

ـــ هو أن يشرف مفتش من وزارة المعارف على امتحانات النقل .

ـــ ونحن نسمح للمفتش المنتدب من الوزارة للإشراف على امتحانات النقل بدخول المدرسة ونرحب به كل الترحيب وهذا يكفى .

ـــ إنه لا يكفى .

ـــ كيف ؟

ـــ تفضل يا جناب المدير بسماع حجتى .

ـــ قلبى إليك قبل أذنى .

ـــ إن المفتش المشرف على امتحانات النقل تطلب منه الوزارة شيئين اثنين : الأول أن تكون الأسئلة مطابقة للمنهج ، والثانى أن تكون إجابات التلاميذ قريبة من إجابات رفاقهم فى المدارس الأميرية .

ـــ لقد فتحت أمامى بابا للتفكير يا حضرة المفتش ، ونحن الإنجليز نتكبر فى الميادين العسكرية ونتواضع فى الميادين العلمية .

ـــ هذا سر قوتكم يا جناب المدير . ولكن إذا اكتفى مدرس عندك بتدريس خمس مسائل من المقررات ليضع منها أربعة أسئلة فى الامتحان ، فماذا تصنع ؟

ـــ أنت رجل مزعج .

ـــ إن الذى يهمنى هو أن تعرف أن قوة مصر فى حياتها العلمية ، وليس الغرض من التفتيش أن نختبر المدرسين فى جميع أدوار التفتيش، وإنما هنالك غرض آخر ، هو اختبار التلاميذ فيما حصلوه لنطمئن إلى أنهم درسوا

المقررات دراسة وافية .

— والنتيجة ؟

— النتيجة أنك بين أمرين ، الأمر الأول أن تقبل التفتيش ، والأمر الثانى أن نسحب منك الامتياز الذى منحناه لك ، وهو إجراء امتحانات النقل فى دارك ولا خطر من سحب هذا الامتياز فعواقبه هينة ، وهى أن تلاميذك فى امتحان الثقافة العامة ، يسألون عن مقررات أربع سنين ، لا مقرر سنة واحدة ، وهى ما يطالب به التلاميذ النظاميون .

— أنا لا أتعب تلاميذى من أجل مسألة شكلية .

— ما تلك المسألة الشكلية ؟

— هى الحرص على أن نكون مستقلين عن وزارة المعارف المصرية ، مع أن أهدافنا متحدة ، وهى تعليم الشبان المصريين ... تفضل يا حضرة المفتش بزيارة المدرسة ، مع الرجاء بأن تعود إلينا من وقت إلى وقت ، ولا تبخل بتقديم مذكرة وجيزة أعرف بها سير التدريس .

— والمراقب الذى منعته من مقابلتك بالأمس ؟

— سأزوره بمكتبه وأعتذر إليه ، فنحن الإنجليز نعيش على الذوق .

***

المدارس اليونانية فى مصر

وجدت اليوم خطابا من المسيو سكالا ريدس يدعو فيه إلى كتابه مذكرة وافية عن حالة اللغة العربية فى المدارس اليونانية(*) . وأقول يجب أولا أن نعرف أن اليونانين فى مصر لهم مكانة ممتازة فى الحياة الاقتصادية ، وهم أيضا على جانب عظيم من الأخلاق . إن اليونانيين فى مصر يعيشون فى هدوء وسكون وهم يحبون الخير لمصر حبا شديدا ، ولهم فاعلية فى حياة مصر المعاشية ، فما أحوالهم فى البلاد المصرية ؟ لهم مدارس كبيرة فى القاهرة وطنطا والمنصورة والإسكندرية وبورسعيد ، وليس لهم مدارس فى الصعيد .

فى أحدى السنوات الماضية ذهب أحد مفتش اللغة العربية لزيارة المدرسة اليونانية الثانوية فى المنصورة فلم يسمح له الناظر بزيارة الفصول وكانت حجته أن الدكتور زكى مبارك يفتيش المدرسة بصفته الشخصية لا بصفته الرسمية ، ونحن لا نقبل أن يدخل المدرسة أحد غيره من المفتيشن .

وصلت الأخبار إلىّ بسرعة فمضت إلى المنصورة وقابلت الناظر لأقوال : إنى متشكر لفضلك ، ولكنى أخشى أن تكون جرحت مراقب منطقة الدلتا التعليمية الشمالية ، وهو يمثل وزارة المعارف فتعال نعتذر إليه ... خرج الناظر من مكتب المراقب وهو مسرور .

كان يجب أن أفتش المدرسة اليونانية الثانوية فى بورسعيد ، توجهت إلى

(*) نقلت من على صفحات جريدة البلاغ فى أول ابريل سنة ١٩٤٦ . بتصرف .

المدرسة فرأيت الناظر لا يعرف حرفا من اللغة العربية .

ـــ فى أى بلد نشأت يا حضرة الناظر ؟

ـــ نشأت فى مصر وهى وطنى .

ـــ اذن كيف يجوز أن أخاطبك بالفرنسية لا بالعربية ؟

ـــ لأن البورسعيديين يخاطبوننى بالعربية .

ـــ ماذا تقول ؟

ـــ أقول إنى أسأل بائع الخيار عن ثمن الرطل ، أسأله بالعربية فيرد علىّ باليونانية !

أما بعد ـــ وقد أتعبتنى أما بعد ـــ فأنا أرجو أن يتنبه أبناء الشواطئ إلى مراعاة القومية المصرية .

عيب عليكم يا ناس أن تخاطبوا اليونانيين بغير اللغة العربية ، وهم يشتهون التعرف إلى اللغة العربية .

ثم ماذا ؟ ثم يكون جوابى عن خطاب المسيو سكالا ريدس بعبارة صريحة تلخصها الأسطر الآتية :

أولا : يجب أن يتعرف تلاميذكم فى الإسكندرية إلى تلاميذ المدارس المصرية فى حفلات الألعاب الرياضية .

ثانيا : يجب فى فسحة الساعة العاشرة أن تذاع الأسطوانات العربية بجانب الأسطوانات اليونانية .

ثالثا : يجب أن تخرجوا من عزلتكم هناك لتعرفوا المصريين وهم جديرون بالمعرفة لأنهم مصريون .

رابعا : يجب أن يشهد تلاميذكم الأفلام المصرية ليروا كيف تكون لغة الحوار .

ما يجب أخذه عن الأجانب

فى الحياة التعليمية

تحت هذا العنوان وعلى صفحات جريدة البلاغ فى الثامن من أبريل سنة ١٩٤٦ قارن زكى مبارك بين خريج المدارس الأجنبية وخريج المدارس المصرية ، وطالب بإصلاح المدارس المصرية ومهد لكلامه بقوله :

العلم فى الأصل وسيلة لا غاية ، نتعلم الطب لنعرف كيف نتقى الأمراض ، ونتعلم الهندسة لنعرف كيف نقيم الجسور ونبنى البيوت ، وندرس القوانين لنعرف كيف نفصل فيما بيننا وبين الناس من المعاملات ، ونتعلم العلوم الدينية لنعرف كيف نلقى الله بقلب سليم .

العلم وسيلة لا غاية فى جميع الأحوال ، فإن قيل إن بعض فروع الفلسفة العالية غاية فى ذاته لأن الأحياء يعيشون بدونه ، فجوابى أنه فى هذه الحالة أيضا وسيلة ، ولكن كيف ؟

إنه وسيلة لغاية هى إعزاز النفس الإنسانية ، فالذى يدرس نظرية ليس لها نفع فى الحياة يقدم إلى روحه لذة وجدانية تعصم وجوده من الشعور بالفناء .

أبناء وأبناء :

بعد هذا التمهيد أذكر أن أبناء المدارس الأجنبية يسبقون أبناء المدارس المصرية فى خوض معترك الحياة ، وضميرى يحدثنى بأن من الواجب أن أشرح هذه المسألة بالتفصيل لتعرف وزارة المعارف كيف تصمد لهذا

التخلف ، إن الذين يتعلمون فى المدارس الأجنبية هم أبناؤنا والذين يتعلمون فى المدارس المصرية أبناؤنا ، فلنحاول التسوية بينهم فى غنائم الحياة .

مثال :

وظائف الترجمة فى دواوين الحكومة هى **بأيدى** المتخرجين فى المدارس الأجنبية وهى وظائف على جانب من الأهمية ولن تستغنى الحكومة عن المترجمين بسبب اشتباك المصالح بيننا وبين الأجانب .

وهناك مثال ثان : وهو تغلغل أبناء المدارس الأجنبية فى المخازن التجارية وفى الشركات والبنوك ، وتلك مراكز لا يقوى عليها أبناء المدارس المصرية .

وهناك مثال ثالث : وهو أن الموظفين بوزارة الخارجية وبالسفارات والمفوضيات المصرية فى البلاد الأوربية والأمريكية هم جميعا من أبناء المدارس الأجنبية . إنهم أبناؤنا كما قلت ونحن نفرح لنجاحهم فى الحياة ، ولكن ما سكوتنا عن إخفاق أبنائنا الآخرين ، ولهم فى قلوبنا أعز مكان ؟

ثم أسوق المثال الآتى وهو أعجب وياله من مثال :

دعا الدكتور هيكل باشا جميع المفتشين ليدرس معهم الطريقة التى تسترد بها المدرسة المصرية مكانها الأول ، فدارت بينى وبينه مناوشة خفيفة ، ولكنها انقلبت إلى عنف حين تدخل بينى وبينه أستاذى جاد المولى بك رحمه الله ، **قلت** : ابدأ بنفسك يا معالى الوزير فأنت تعلم أبناءك فى المدارس الأجنبية ومعنى هذا أنك تفهم الجمهور أنها أفضل من المدارس المصرية .

فقال جاد المولى : هذه مسألة شخصية .

فقلت وقد غلا دمى : إن مثل الدكتور هيكل باشا مثل الدكتور على إبراهيم باشا ، فالدكتور على إبراهيم حين احتاج إلى عملية جراحية نزل فى

المستشفى الإسرائيلى فجنى بذلك على سمعة مستشفى هو رئيسه ومديره وهو مستشفى قصر العينى .

فقال جاد المولى بك : وأنت أيضا يا دكتور زكى تعلم أبناءك فى المدارس الأجنبية .

فقلت وأنا أبتسم : سيظل الأمر كذلك إلى أن أصبح وزيرا للمعارف وأملك إصلاح المدارس المصرية .

فقال هيكل باشا : إن هذه المحاورة هى خير ما دار فى هذا الاجتماع ، وأنا أشعر فى قرارة نفسى بأن وزير المعارف المصرية يجب أن يكون أبناؤه تلاميذ المدارس المصرية لا الأجنبية ، لكن يا جماعة كيف نصل إلى هذا الغرض ؟

وزير جديد :

وبعد هيكل باشا جاء النقراشى باشا ودعا مفتشى التعليم الثانوى إلى اجتماع يرى به تحقيق عبارة مبتكرة هى : كيف تسترد المدرسة المصرية هيبتها ؟

استمرت المناقشة نحو ثلاث ساعات ولها محضر مدون بوزارة المعارف كالمحضر السابق فى عهد هيكل . .

ولكن المحضر الأول والمحضر الثانى لم يتحقق منهما شيء بسبب الشواغل التى دهمت الوزير الأول والوزير الثانى ، فلم يبق أمامى إلا أن أشرح هذه المشكلة بإيجاز على صفحات البلاغ ، والله عز شأنه هو الموفق .

* * *

الأدباء وأساتذة الآداب(*)

وصلتنى دعوة لحضور أربعاوات الأليانس فرانسيز . وهذه الأربعاوات لها برنامج خاص . فالأربعاء الذى يختاره مدير الأليانس لمحاضرة عمومية يراعى فيه أن يكون المحاضر من رجال الأدب . ورجال الأدب هؤلاء غير أساتذة الآداب فى المعاهد والكليات ، فإن كلمة : Homme de lettres (رجل الأدب) غير كلمة Professeur de littérature (أستاذ الآداب) .

والفرق بين الوصفين مرجعه أن رجال الأدب كسبوا معارفهم الأدبية والفنية والعلمية عن طريق الدراسات الشخصية . أما أساتذة الآداب فهم قوم وصلوا إلى مناصبهم عن طريق الألقاب التى تمنحها الجامعات لمن يظهرون التفوق فى العلوم والآداب عن طريق الدراسات الجامعية الدقيقة .

وكذلك يفرق الجمهور الفرنسى بين رجال الأدب وأساتذة الآداب ، وهو فرق رسمى ، ولكن له دلالته وله معناه : فإن رجال الأدب لا يصلون إلى المكاسب المادية إلا عن طريق الصحافة والتأليف وإلقاء المحاضرات .

أما أساتذة الآداب فلهم مناصبهم وكراسيهم فى وزارة المعارف وفى المعاهد والكليات . ومن الصعب أن تحكم بأفضلية أولئك أو هؤلاء ، فإن من الحق أن الدراسات الجامعية مُثْقَلة بأعباء الجهود والمشاق ، ولا يصل الرجل إلى لقب من ألقاب الجامعة إلا بعد عناء مُعجِز وشقاء موصول . ومن الحق كذلك أن الأديب الذى حرمته الظروف من الدرجات والألقاب

(*) ذكريات باريس المطبعة التجارية الكبرى بمصر ص ٧٨ .

لا يستطيع السيطرة على الجمهور المثقف إلا بعد دراسات شخصية طويلة لا يصبر عليها إلا الأقلون .

وهناك فرق ظاهر بين رجال الأدب وأساتذة الآداب من حيث الإنتاج : فرجال الأدب حين يشتغلون بالترجمة أو التأليف يوجهون جهودهم إلى المسائل التى تمس أذواق الجماهير ومشاعرهم وعواطفهم ، بنوع خاص ، فهم لذلك يهتمون بالقصص والروايات . وما إلى ذلك مما يستطيب الجمهور الإقبال عليه فى أوقات الفراغ . أما أساتذة الآداب فيحرصون على التأليف فى الموضوعات الصعبة المعقدة التى لا تجد من يُقبل عليها غير الطلبة والمدرسين ، ومن شاكلهم من عشاق البحث العميق .

ولهاتين الوجهتين مزايا وعيوب . فرجال الأدب يؤثرون فى الجماهير تأثيرًا بليغًا ، لأنهم يخاطبون الناس باللغة التى يفهمون ويسايرونهم فى درس مشاكلهم الروحية والعقلية بطريقة خلابة قد تصل بهم إلى الإسفاف وإلى ضياع الكرامة فى بعض الأحيان . وأساتذة الآداب يؤثرون فى جماهير قليلة العدد ، هى جماهير الطلاب . ولكنهم يبالغون فى التحفظ والتصوُّن إلى درجة مملة . ومنهم من يصل به الأمر إلى أن يصاب فى عقله بالزمانة والضيق . ومن هنا صح ما نجده فى بعض الأوساط الفرنسية من التحامل على رجال الجامعة ورميهم بالحمق وضيق العقل : والفرنسيون يصفون الرجل الضيق الذهن بأن عقله جامعى ، ويسمون رجال الجامعة « فيران المكاتب » !

ومن النادر أن تجد من رجال الجامعة من يستطيع التأثير المباشر فى الجماهير ، فقد كان إرنست رينان أكبر أساتذة الأدب فى عصره ، ثم تقدم للانتخابات فلم يكن له من عواطف الناخبين نصيب : ذلك بأن الرجل تعود

مخاطبة الجماهير المثقفة ، وتعود الاعتماد على ذكاء مَن يستمعون إليه ، فلما واجه سواد الشعب الْتبس عليه الأمر وغاب عنه وجه الصواب .

أما رجال الأدب فهم أقدر الناس على كسب المعارك الشعبية : لأن لديهم من الكياسة ومرونة الذهن والخُلُق ما يقربهم من أنفس الجماهير ، وحسب القارئ أن يعرف أن الذين يخوضون معارك الانتخاب فى فرنسا يجب على الأقل أن يكونوا أَلِفوا إدمان الشراب ، و لم ذلك ؟ لأنهم لا يلتقون بناخبهم إلا فى القهوات ، وهى ملتقى الأهالى فى الأقاليم . فمن واجب المرشّح أن يذهب إلى القهوة وأن يسأل كل قادم عليه : ماذا تطلب ؟ وإذ ذاك يشربان معا . وهذه هى الوسيلة لكسب الأصوات !

ولا يليق بالمرشح أن يكتفى بقهوة **أبى الفضل** لأن الذى لا يشرب **قهوة أبى نُوَاس** يبخل عليه الفرنسيون بلقب « مسيو » !

فماذا يصنع أساتذة الأدب فى هذه الحال وهم قوم تلفتْ أمعاؤهم من كثرة الجلوس ، و لم تُبق فيهم مراجعةُ المعاجم ، ونقد النصوص الأدبية والفنية والعلمية ، بقيةً من نضارة الجسم ، وصفاء الذهن ، ورقة الحس ، يستطيعون بها فهم ما اختلف وتنافر من أذواق الناس وميولهم ومذاهبهم فى الحياة ؟!

وهناك فروق بين حياة هذين الصنفين من المتأدبين ، فروق قلما يتنبه إليها الجمهور الذى ينتظر كل شىء ، ولا يطالب نفسه بشىء .

فأساتذة الآداب قد يُحسَدون على ما يظفرون به من مناصب الدولة : فهذا موظف فنى فى وزارة المعارف العمومية . وذاك مدرس فى مدرسة من كبريات المدارس الثانوية . وذلك أستاذ فى كلية الآداب . وهى مناصب قد تحمى أصحابها من التفكير فى هموم المعاش . ولكن هل يفكر أحد فى حقيقة

البلاء الذى يعانيه أساتذة الآداب ؟ أين المنصف الذى يقدر المصاعب التى يقاسيها الباحث حين يسجن نفسه طائعا أو كارها فى مكتبه لا يفارقه فى صباح أو فى مساء ؟ من الذى يفهم الآن كيف كان يقول الفَرّاء : « أموت وفى نفسى شىء من حتى ؟ » من الذى يعرف أن الباحث قد يقضى أعواما طويلة فى تحقيق كلمة أو تصحيح غلطة ، وهو يرى ذلك كل شىء فى حين أن الجمهور قد يراه نوعا من الوسواس ؟ أين النافذون إلى بواطن الأمور الذين يعرفون أن أساتذة الآداب قد يحتاجون إلى لحظة من لحظات المرح والطيش ليقوا أنفسهم عواقب الحبس بين المكاتب والجدران ، ثم لا يستطيعون : لأن الرأى العام قد يرميهم بالتبذل والإسفاف ؟

وكم من مرة يقول الناس : ماذا يصنع الأستاذ فلان ؟ لقد سكت منذ زمان !

وذلك الأستاذ لا يستطيع الجواب لأنه لا يضمن الاحترام إن أجاب : لقد شغلتنى « حتى » فى هذه السنوات !

ماذا يصنع أساتذة الآداب فى عصر الأحجام والمكاييل والأوزان ! إن القارئ لا يشترى الكتاب فى هذه الأيام قبل أن يعد الصفحات . وأساتذة الأدب مساكين قلما يحسنون الإسهاب : لأن عملهم عمل تهذيب وتجريد ، ومهنتهم تقضى عليهم بالنفرة من محاسن التزويق والتهويل . فياويح رجال المعانى فى دولة الألفاظ !

إنها لتضحية خطيرة أن يقبل الرجل أن يكون من أساتذة الآداب فى هذا الجيل ، تضحية تصغر بجانبها عظائم التضحيات . لأن الأستاذية مهنة قلما تُجازَى بحفظ الجميل ، ولا يخفف من همومها فى أنفس أصحابها إلا فكرة

واحدة : هي أن الأستاذ يقف حيث يقفه الواجب : فهو جندى فى الجيش لا يليق به غير الامتثال ، وعليه أن يصبر كلما بدت لعينيه بروق الشهرة وبعد الصِّيت ، لأن الأستاذية الحقة لا تكتمل قوتها إلا فى ظلال الخمول .

إن الأستاذ المخلص لواجبه قد يُنْسَى كل النسيان ، وقد تُجرح نفسه جرحا بليغًا حين يجد من يسأله : من أنت ؟ فإن المسكين لا يستطيع أن يجيب : (أنا الذى شرحت الرسالة العذراء) أو (أنا صاحب نظرية الصور الشعرية) فإن هذه فى نظر السَّواد توافه لا يحسب لها حساب !

وبعد هذا كله يبقى الله عز شأنه الذى لا يضيع أجر المحسنين فهو حسب الأساتذة ونعم الوكيل !

* * *

ورجال الأدب ، أو الأدباء ، كيف حالهم ؟

لقد أشرت إلى أنهم أبعد أثرًا فى الجمهور من أساتذة الآداب . ولكن تعال ننظر ما حظ هؤلاء المحسودين .

إن كثيرًا منهم يعملون فى الصحافة ، وبيد كثير منهم إسقاط وزارات وإقامة وزارات ، وفيهم من يؤلف أو يترجم روايات جذابة تنفذ إلى أعماق النفوس ، فهل نستطيع مع هذا أن نعدهم سعداء ؟

إن الأديب لا ينبغ إلا إذا ارتطم فى الغواية والبؤس ، وتلك سنة الطبيعة منذ خُلق الأدب إلى اليوم ، ويكاد يكون من المستحيل أن يكون لرجال الأدب روح إلا إن صَهرَتْهم الهموم والأحزان .

أضف إلى ذلك أنهم لا يؤثرون فى قرائهم إلا إن تأثروا هم بما فى الحياة من لين وبأساء . ولا يقع شيء من هذا إلا إن عاشروا الناس وشاركوهم فى

جدهم وهزلهم ، وحلمهم وجهلهم ، وعقلهم وجنونهم ، وعرفوا ما الهدى وما الضلال ، وما الشك وما اليقين . وهذا كله : أتحسبه بلا ثمن ؟ هيهات ! فمن ثمنه العِرض والعافية والمال !

إن الكاتب الذى تقرأ له فيشعرك الحكمة وفصل الخطاب ليس فى حقيقة الأمر إلا رجلا بائسا ضلَّ طريق الرشاد ، وهو فى أكثر الأحوال موزَّع القلب، بين الحب والكأس ، فإن سمعت عن ضلالات الكتاب والشعراء ، أو حدثك النقاد عن بؤس ميسيه أو بيرون أو بودلير فاعلم أنك أيها القارئ كنت بعض السبب فى شقاء هؤلاء ، فقد ارتبطتْ حياتهم بحياتك ، وكُتِب عليهم أن يكون نجاحهم أو إخفاقهم متصلا بإعجابك بهم ، أو انصرافك عنهم ، وأنك أيها القارئ قد لا تعرف نفسك : فإن لك شهوات ونزعات خفية يغيب أكثرها عنك ، ويفهم أولئك البؤساء حاجتك إلى من يطلعك عليها فى حديث شائق خلاب . والأدب فى صميمه لا يخرج عن ذلك : فهو حديث مسلسل عن الأهواء والشهوات والنوازع والميول : من حب وبغض ، وبسط وقبض ، وأثرة وإيثار ، وحقد وصفاء ، وإقبال وإعراض .

والكاتب لا يصل إلى مرضاتك حتى يضيع نفسه ، لأنه لا يمد يده إلى مكتبه فيخرج الرسائل محبّرة موشّاة بلا تعب ولا عناء ، وإنما يتنقل من حى إلى حى ، ومن ملعب إلى ملعب ، ومن ناد إلى ناد ، ويرى الحلو والمر ، والطيب والخبيث ، وما يزال كذلك حتى تتفتّح أسرار قلبه ، وسرائر نفسه ، ثم يعود فينقل روحه ، ويسكبها على بياض القرطاس .

أتفهم ذلك ؟

نعم ؟

إنك لا تدركه تمام الإدراك ! وأنت نفسك مطمئن إلى أن رجال الأدب لا خُلُق لهم ولا دين . ومن أجل هذا تتحدث عنهم بما تعرف وما لا تعرف ، وتضيف إليهم كل ما يمر ببالك من المنكرات !

ومن حسن الحظ أن الدين والخلق من الشئون النسبية : فقد يكون لهؤلاء الذين تُجرِّحهم ضمائر أطهر من الماء ، وأصفى من سماء مصر ، وقد يكونون فى عربدتهم أقرب إلى الله من بعض المتجملين المتوقرين الذين يلقون الناس وهم بيض الوجوه سُود القلوب !

إن ألفريد دى ميسيه الذى بكى لبؤسه وشقائه ألوف الألوف من القراء ، هذا الرجل كان يتشهى البؤس ، وكان يحسد رفاقه على ما « ينعمون » به من الضجر والاكتئاب ، وما زال يتباكى حتى بكى وأبكى . أفتدرى لم كان يتلهف على هذا الحظ المشئوم ؟ لأن الجمهور كان ينتظر أدباء أدمتْ قلوبهم الأشجان وأصمتْهم الخطوب .

فماذا أعددت أيها القارئ لرحمة أولئك المساكين ؟ لا شيء ! اللهم إلا أن تبسط فيهم لسانك الحديد ، كأنهم لم يشقوا فى سبيلك ولم يفتحوا لك ميادين العواطف والأحاسيس ، وكأنك لم تتخذ شعرهم ونثرهم ذخيرة للحظات اللذة وأيام الشقاء : فقد كانوا ولا يزالون أوتارًا لوثبات الفرح ونبرات الأنين .

فأى الصنفين أشقى : رجال الأدب أم أساتذة الآداب ؟

لقد عرضت عليك حظوظ هاتين الطائفتين فى نزاهة وإخلاص ، فاحكم بما تشاء .

***

كيف يساس الطلبة

فى المدارس الفرنسية ؟

حقائق تنفع الأساتذة والطلاب(*)

قبل أن أواجه موضوع هذه الرسالة أتوجه بكلمة عتب صغيرة إلى حضرة مصحح البلاغ مع اعترافى بفضله وكفايته وتفرده بالحرص والتدقيق بين مصححى الجرائد بالقاهرة ، وهذا العتب لا يرجع إلى بعض الأغلاط المطبعية القليلة التى تفوته ؛ ولكنه يرجع إلى الكلمات التى يصححها عامدا فى رسائلى وينقلها من وضع إلى وضع ، فقد جاء فى رسالتى عن شهداء السين كلمة « أعزاب » جمع عزب بالفتح والتحريك وهو من لا زوجة له ، فغيرها إلى « عزاب » ليساير اللغة الجارية . والحق فى جانبى لأن « أعزاب » هو الجمع المقبول سماعا وقياسا ، وجاء فى رسالتى عن ليلة المانش عبارة « والمرء يعجز لا المحالة » بالألف واللام فصيرها هو « والمرء يعجز لا محالة » ليساير ما درج عليه الناس . وهذا خطأ لأن المحالة بالألف واللام معناها الحيلة وبذلك يجرى المثل ، فى حين أن التغيير الذى انتقل إليه يحرف المثل عن موضعه ويجلب إلى الكاتب سخرية بعض القراء وفى هذه الرسالة أقول « العزب من لا زوجة له »

(*) البدائع جـ ١ ص ٢٠٤ .

وأرجو أن لا يغيرها إلى « من لا زوج له » ليساير تعبير الأقدمين فإنى أستحب أن أغلب القياس وأفضل أن يقول الناس مثلا « خادم » للمذكر و « خادمة » للمؤنث وأن يقولوا « امرأة سافرة » بدلا من « امرأة سافر » التى نص عليها المصباح . ولست بهذا أعفيه من تصحيح رسائلى بنفس العناية التى عهدتها فيه منذ عرفته يوم كان يقوم أغلاطى فى سنة ١٩١٤ ولكننى أرجوه أن يلاحظ أننى قد أضع عامدا بعض الألفاظ والتعابير لغرض أرمى إليه إحياء لبعض الألفاظ القديمة أو إيثارا لبعض الألفاظ الحديثة ، واللغة لا تتهذب ولا تتطور إلا بأقلام الكتاب .

ولأعد إلى موضوع هذه الرسالة فأقول :

إن الذين اشتغلوا بالتدريس كما اشتغلت به ، وذاقوا حلوه ومره فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، وعرفوا ما يجرى فى المدارس الأميرية والأهلية ، يذكرون أن هناك فسحة من الوقت بين الحصص تتراوح بين خمس أو عشر دقائق — وأحيانا تصل إلى خمس عشرة دقيقة — وهذه المدة القليلة يقضيها المدرسون فى التشاكى ولكن مماذا ؟ من الطلبة !

وأنا شخصيا أذكر هذه اللحظات بارتياح ؛ فقد كانت همومى أخف من هموم الزملاء ، ولا أذكر أن الطلبة اضطربوا مرة بشكل يزعجنى ، ولكننى أعترف أن مهنة التدريس مهنة شاقة لا يستغرب فيها أن يتشاكى المدرسون وأن ينظموا قصائد الأنين !

غير أنى كما يعرف القارئ حديث العهد نسبيا بهذه المهنة لأنى لم أعالج همومها إلا بعد الحرب ، من أجل ذلك كنت أسأل زملائى عن ماضيهم ؟ فكانوا يجيبون بأن الطلبة لم يتمردوا إلا منذ شبت الثورة المصرية ، وأنهم قبل

ذلك كانوا فى وداعة الحملان .

وكان هذا الجواب يقع من نفسى موقعا سيئا ، لأنه ما كان فى وسع الأمة المصرية أن تؤجل ثورتها على الظلم والهوان ليظل الطلبة وادعين ، وليظل الأساتذة فى راحة وسلام !

وكان بعض زملائى يتشاءمون حين يرون طالبا يراسل صحيفة يومية أو أسبوعية ، وكنت بخلاف ذلك أحض الطلبة على مراسلة الصحف وأسوقهم إلى الميدان ، وكنت أقول فى نفسى : إذا لم يكن بد من تضحية ، فلتتقدم الأمة وليتخلف المدرسون !

فهل من الحق أن الطلبة المصريين يمتازون من بين الطلبة فى العالم بحب المشاغبة ، وأن سلوكهم المدرسى لم يسؤ فى هذا الجيل إلا باشتراكهم فى النهضة المصرية ؟

الجواب بالسلب ، وإلى القارئ البيان :

مهنة التدريس فى العصر الحاضر شاقة فى العالم كله ، وثورة الطلبة على النظام المدرسى وخروجهم على أساتذتهم من الأمور التى شاعت فى أواخر القرن التاسع عشر . والطلبة المصريون جاءوا أخيرا بعد أن تمرد سواهم بعشرات السنين ، وإذا كان المدرسون المصريون لم يشكوا من الطلبة قبل سنة ١٩١٩ فذلك يرجع إلى أنه لم يكن بمصر مدارس ولا تدريس ولا تلامذة ولا أساتذة بالمعنى المعروف اليوم ؛ وإنما كان هناك مدارس متواضعة محدودة الفصول وكان هناك تلامذة قلائل يوصيهم آباؤهم فى الصباح والمساء ويغرونهم بالجد والتحصيل ، وكان هناك مدرسون معدودون لو تلفت أحدهم إلى زميل يَشاكيه لما وجد ، فكان من الحق أن

تظل الحياة المدرسية هادئة لا قلق فيها ولا اضطراب . ولو أننا عدنا إلى إحصاء طلبة المدارس العالية فى أيام الحرب لهالنا ذلك الاجداب فلم تكن هناك مدارس عامرة غير الطب والحقوق ، وكان فى هاتين المدرستين تباشير للقلق الذى عم بعد ذلك فى المدارس المصرية ، ولم يكن فى مدرسة المعلمين العليا غير آحاد فى كل فصل والفصل هنا معناه السنة الدراسية برمتها ، ولم يكن للتعليم الثانوى حظ يذكر فى الأقاليم وكان طلبة الثانوى فى القاهرة والإسكندرية أضعف من أن يقاسوا إلى طلبة اليوم الذين لا يفتؤون يشغلون أولى الأمر فى وزارة المعارف فضلا عن حضرات المدرسين .

والحال اليوم فى المدارس المصرية غيرها بالأمس ؛ فهناك مدارس وطلبة وأساتذة ، ومن أجل ذلك أخذت مشكلة التعليم لونا جديدا يتناسب مع خطورة الحياة المدرسية ، فعلى الأساتذة أن يستعدوا للكفاح ، وعلى مدارس المعلمين أن تفهم أن إعداد الأساتذة أصبح فى غاية من التعقيد . فمن الواجب أن يختار طلبة المعلمين اختيارا خاصا يراعى فيه تكوينهم الجثمانى والعقلى والأدبى ، فكل تشويه فى الجسم أو فى الذوق له أثره الخطر فى البيئات المدرسية ، وليست آراء المربين القدماء بكافية فى إعداد المعلمين ، فقد كان أكثر رجال التربية فلاسفة نظريين لم يعانوا مشاكل التعليم ، ولم يقدروا ما سيكون عليه الطلبة فى القرن العشرين ، وعلى وزارة المعارف المصرية أن تفهم أن كل اضطراب مدرسى له أسباب أخرى غير اشتراك الطلبة فى الحياة العمومية ، وأقرب هذه الأسباب هو بعد ما بين الأساتذة والطلبة فى فهم الحياة وتقدير مشاكل الجيل الجديد ، وبقدر مرونة الأساتذة وبعد نظرهم وفهمهم لروح العصر يكون نجاحهم فى الحياة المدرسية ، وليس بمستطاع فى عصر مشرب بروح الثورة فى جميع الأقطار أن تقهر الطلبة بالشدة العنيفة

أو أن تسوسهم بمبادئ من التربية كانت لا تكفى فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وقد رأيت بنفسى كيف يكون نجاح المدرس المثقف ثقافة حديثة ، وكيف يكون سلطان الأستاذ الذى يخالط الطلبة ، ويدرك ميولهم وأذواقهم ، ويعرف منهم مواطن الضعف ومواضع القوة ، ورأيت كيف يخفق المدرس المتخلف الذى يعيش فى القرن العشرين بروح القرن العاشر ، فإن لكل طالب عينين وأذنين ، وهو ثاقب البصر فى اختيار أستاذه ، ومعرفة ما يفهم من شؤون العصر الحديث . وليست الدروس كلها بمقصورة على موضوعات المناهج ؛ فهناك لحظات يفرغ الطلبة فيها لأساتذتهم ويختبرونهم وجها لوجه ، ويكاد طلبة اليوم ينتظرون من أساتذتهم أن يرشدوهم إلى أهم الروايات المسرحية والأشرطة السينمائية ، ويكادون ينتظرون منهم أن يعاونوهم على حل ما يواجههم من المشاكل الأخلاقية والاجتماعية والوجدانية . وليس هذا حال الطلبة فى مصر فقط ؛ بل هذا حالهم فى جميع الأقطار فى هذا الجيل والحياة حركة فويل للجامدين !

ونعود فنذكر أن المدارس الفرنسية كانت إلى سنة ١٨٨٠ تدار إدارة عسكرية ، وكان الطلبة محاطين بطائفة كبيرة من القيود والأغلال ، وكانت المدارس أشبه شىء بالسجون ؛ وكان الأساتذة والضباط والنظار مسلحين بالشدة والعنف فى كل وقت . والذى يعرف أن أكثر الطلبة كانوا ولا يزالون يقيمون فى المدارس ليلا ونهارا ، يعرف كيف يكون تبرمهم وضجرهم من حياة ضيقة مغلقة الأبواب ، وهذه الحياة الثقيلة لم تكن شرا مطلقا ، ولم تكن خيرا مطلقا ، فقد كان من شرها أن أخمدت روح الجد والنشاط ، وحولت الطلبة إلى آلات ناطقة ولكنها لا تفكر ولا تبين ، وكان من خيرها أن أجلت

تعرف الطلبة ببعض الخصال الرديئة التى تبثها حياة الحرية فى بــاريس وحبستهم فى نطاق من التعقل والاعتدال .

ولكن القرن التاسع عشر ما كاد ينصرم حتى شبت فى أوربا كلها روح الثورة العقلية والخروج على ما ألفت الجماهير من التروى والتعقل والنظر فى عواقب الأمور ، وكان الطلبة أكثر الناس قبولا لما أوحى القرن العشرون من التوثب والتهالك على فرص الحياة وما ظنك بفئات لا تعرف ما تكاليف العيش ، ولا تدرى ما عاقبة الطيش ، ولا تفكر فيما يلاقى الآباء والأمهات من أوزار الحياة اليومية فى عصر لا يمهل القاعدين ، ولا ينظر الوادعين . والطلبة مهما كانوا أطفال : ينفقون كما ينفق الرجال ، ويفكرون كما يفكر الأطفال ، ومن الصعب أن تروضهم على الاطمئنان إلى أن الحياة ليست كلها لهوا ولا لعبا . فقد كان الإنسان حيوانا لا يعقل إلا إن لدغته أفاعى الصروف والخطوب . أضف إلى ذلك ما استقرت عليه الحياة الفرنسية من حب العبث الجامح فى ليالى الآحاد ، فتلك ليال ماحقه تقتلع ما ثبت ورسخ من أصول الأخلاق ، وليس من السهل أن تدعوهم إلى التريث والتمهـل ، وهــم يركضون فى ميدان الشباب ، فإنك تدعو من لا يسمع ، وتهيب بمن لا يجيب .

وكذلك تغيرت الحياة المدرسية تغيرا يوشك أن يكون تاما وتقطع ما كان بين الطلبة والأساتذة من أواصر البر والاحترام ، وعاد المدرسون غرباء أو كالغرباء ، وأصبح الطلبة لا يعرفون سلطانا لغير جمعيات الألعــاب الرياضية ، وانطلقوا لا يلوون على شىء ، ولا يكترثون للدروس ، وصاروا يجهلون أكثر الواجبات المدرسية والقومية بسبب ما اندفعوا فيه من التهاون

والثورة على مختلف التقاليد ، وحسبك أن تعرف أن جمهور الطلبة فى فرنسا قد يجهل تمام الجهل من أعضاء الحكومة الحاضرة ، ومن رؤساء الأحزاب ، والبارزون بين النواب والشيوخ ؛ ولكنه يعرف أبطال الألعاب الرياضية فى جميع بقاع العالم ، ويستقصى أخبار السابحين والملاكمين ورافعى الأثقال . واختراع الطيارات قد أذكى حماسة الشبان وأغراهم بالبحث عن مجهول الآفاق ، وقدمت لهم السينما غذاء قويا حيا من مناظر المخاطرات البرية والبحرية والجوية ، بحيث يمكن أن تقدر أنهم لم يعودوا طلبة ولكنهم صاروا شياطين ، ولهذا التمرد أثر جميل فيما أفترض ، فسيكون الجيل المقبل جيل فتح وغزوات واستكشافات ، وسيتحول الإنسان إلى قوة خطيرة يتبدل بها شىء كثير من الأوضاع العلمية والفنية ، والأدبية ، والاجتماعية .

والأساتذة ما حالهم ؟

إنهم فى غاية من الارتباك والاضطراب ، فلا تزال المناهج الدراسية على حالها ، ولا يزال هناك شبح اللاتينى واليونانى ، وما أشبه ذلك من اللغات الميتة ، ولا يزال هناك الكلاسيك والرومانتيك . ولا تزال حوادث القرون الوسطى بما فيها من علوم وفنون وآداب ، والأساتذة مسئولون عن وضع ذلك كله فى أذهان الطلبة طوعا أو كرها ، فما هو الحل ؟ وكيف السبيل إلى الخلاص ؟

الواقع أن الأساتذة يعترفون بأن الحل الوحيد هو التساهل فى الامتحانات ، وهم لذلك يعطون شهادة البكالوريا بسخاء أى سخاء وذلك لا يمر بالطبع من غير ضوضاء ، فهم يحثون الجمهور على مشاهدة جلسات الامتحانات فى السوربون ليحكم بينهم وبين أولئك الطلبة المتمردين .

وإذا سألت الأساتذة كيف ساغ لكم هذا التسامح؟ أجابوا بأن التعليم الثانوى عليل لا يرجى شفاؤه لأنه يمر فى طور الشباب المجنون ، وعلى أساتذة الجامعات وحدهم أن يداووا ذلك الجنون . فإن الطلبة لا يصلون إليهم إلا بعد أن تنضجهم السن وتروضهم الأيام بعد الجموح .

وهناك علاجات مؤقتة لا تغنى فتيلا : تلك هى نتائج الامتحانات الشهرية حيث ترسل المدارس لآباء الطلبة ، أو أمهاتهم ، أو أولياء أمورهم بيانا بدرجات الطالب فى جميع المواد ، ولكن ما رأيك وأكثر آباء الطلبة لا يدركون شيئا من ذلك ، والطالب يستطيع بكل سهولة أن يـؤول النتيجة ، وأن يلبسها اللبوس الذى يريد ، وقد يحدث أن يتفق مع بواب المنزل على تبديد الخطابات المدرسية بحيث يظل القائمون بأمره فى عماية تامة لا يعرفون كيف يبدأ وكيف ينتهى ، ولا يدركون أذكى هو أم بليد .

وقد حرص فريق من الأساتذة على الاتصال بآباء الطلبة ليتم التعاون بين الفريقين على مداواة ذلك المرض العضال ، ولكن ظهر أن الأساتذة لا يتسع وقتهم لتلك الصلات الودية ، كما ظهر أن الآباء لا يستريحون إلى الأساتذة الذين يؤثرون فى أبنائهم لأن الآباء لا يزال عندهم بقية من الأثرة وحب الذات ، وهم يريدون أن يظل أبناؤهم فى حيازتهم وفى بعد عن المؤثرات الخارجية ، والآباء يفهمون جيدا أن الأساتذة مهما تقدمت بهم السن ، أقرب منهم إلى الحياة والشباب ، لأن الأساتذة بطبيعة مهنتهم قريبون من فهم الشبان الحاضرين ، وما يعتلج فيهم من أمانى وآمال .

ومن رجال التربية من عنى بدرس هذه الأزمة الحاضرة ، ومن رأيه أنها ترجع إلى أنه لم يعد فى المدارس الفرنسية أثر لذلك الروح الفكرى الذى كان

ينتظم وحدات الطلاب ، فقد كانت المدارس الفرنسية لأول عهدها ترمى إلى إيقاظ العواطف الدينية ثم اتجهت بعد ذلك إلى تربية فكرة الجمهورية ، ثم انصرف الناس عن ذلك كله إلى فكرة واحدة هى نتائج الامتحانات ، وقد نفع ذلك وقتا ما ثم تداعت الروابط واندفع الطلبة يفعلون ما يشاءون بلا وازع من أنفسهم ولا رقيب .

ولكن رأيى أنا أن هذا الاضطراب يرجع فى جوهره إلى أن الطلبة والأساتذة يمثلون جيلين مختلفين أشد الاختلاف ، فقد طفر الجيل الجديد ، وأصبح الأساتذة من المتخلفين . ولا علاج لهذا إلا أن يقبل الأساتذة على أنفسهم فيروضوها على فهم الواقع ثم يستعدوا للنضال بأسلحة العلم الحديث ، ومن سفه الرأى أن يظل فريق من الأساتذة غارقا فى تأملاته القديمة وأفكاره العتيدة كأنهم نصوص مقدسة . وإذا كانت التقاليد الدينية على حرمتها ووقارها لم تعد تستطيع البقاء فى البيئات الفرنسية فإن هناك تقاليد مدنية كتب عليها أن تزول . والعاقل هو الذى يفهم ذلك ويعرف أن للتقاليد أعمارا كأعمار الثياب ، وليس فى مقدورنا أن نقف حيارى مترددين ننظر إلى الماضى نظرة العطف ، وإلى الحاضر نظرة الخوف ، ولكن من واجبنا أن نفهم بسرعة كيف نتقدم إلى الميدان وكيف نتخير أسلحة النضال .

وهذه الأزمة لا يقتصر شرها على فرنسا ومصر ، ولكنه موزع على أقطار العالم القديم والعالم الجديد ، والإنجليز والأمريكيون فهموا ذلك أول الناس ، وانحدروا مع الطلبة يشاطرونهم الجد ، واللعب ، والعمل ، والفراغ ، وقد تلفت الطلبة الإنجليز والأمريكيون فرأوا أساتذتهم قد عادوا زملاء وادعين يلاعبونهم التنس ، ويماشونهم فى الطرقات ، ويساهرونهم فى المراقص وبذلك

انطفأت الثورة وعرف الأساتذة كيف يعيشون فى سلام !

ولكن ما نتيجة ذلك ؟ إنها لنتيجة سيئة ! ولا يمكن أن يقال إنه هكذا يكون العلم ، وهكذا يكون التعليم . وحظ الأساتذة الفرنسيين على شقائهم وبلائهم أحسن وأفضل ، فللأستاذ أن يجاهد طلبته وأن يحارب جنونهم وشططهم ليردهم إلى الجد ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولأن يجاهد فيخفق خير له من أن يلين فيضيع .

فالمشكلة فى جوهرها ترجع إلى تكوين الطلبة ، وذلك التكوين لا يتم ولا يؤتى ثمره إلا إن اهتم الأساتذة بإيجاد مثل أعلى يكون غرض الجميع ، وهذا المثل الأعلى كيف نتخيره ؟ ومن أى طبيعة يجب أن يكون ؟

لقد خمدت التيارات الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، فما عسى أن نفعل فى تسيير الجيل الجديد ؟

الرأى عندى أن توجه العزائم إلى تتويج « العلم » وأن يتخذ منه مثل أعلى تخشع لهيبته القلوب ، ولكن يجب أن يفهم القراء أن هذا « العلم » الذى أدعو إليه ليس هو العلم الذى عرفوه والذى لم يرتفع بهم عن الأرض ، بالرغم مما أضاعوا فيه من طوال السنين ، ولكن العلم الذى أدعو إليه هو العلم الذى سما به أصحابه إلى امتلاك ناصية السماء ، وصيرهم سادة فى العالمين .

باريس ١٢ نوفمبر سن ١٩٣٠

السياسة التعليمية واللغة العربية

يرى المفكر التربوى الدكتور زكى مبارك أن أصول التربية توجب أن نخاطب كل تلميذ بأسلوب خاص بعد أن ندرس نفسه حق الدرس ، لأن الناس يختلفون فى العقول كما يختلفون فى الوجوه ، وهذا لا يمنع من أن تكون هناك سياسة عامة نعامل بها جميع التلاميذ .

ويقول أمير البيان زكى مبارك : سيجىء يوم يعرف الناس فيه أن أسلافنا كانوا أبصر منا بالمذاهب التعليمية ، لأنهم كانوا يعرضون على الطالب علوما قليلة ثم يفرضون عليه أن يتعمق .

ويرى زكى مبارك ضرورة التعمق فى اللغة العربية وفهمها فهما فصيحا صحيحا كى نستطيع أن نشرح الدرس بلغة بسيطة مفهومة ، فالذى يحارب لا يحارب بسيف مفلول ، واللغة كذلك يجب أن تكون قوية مفهومة كى ننجح فيما نرمى إليه .

ويرى الأستاذ الدكتور زكى مبارك أن مدرس اللغة العربية يستطيع إذا كان من أصحاب المواهب أن يضع فى صدور تلاميذه بذور الشوق إلى المشاركة الجدية فى الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية ، وفى مقدوره إن أخلص لواجبه أن يدفع تلاميذه دفعا إلى رحاب الواجب فى خدمة الوطن الغالى ، وهو يستطيع أن يخلق منهم رجالا يفرقون بين المعانى الوطنية والمعانى الإنسانية ، بحيث يصبحون فيما بعد من دعائم الحياة القومية .

يقول زكى مبارك : « إن الغاية التى تبذلونها فى إلقاء الدروس تعدى

تلاميذكم بالجد والنشاط ، وتروضهم على النظام ، وتغريهم بحب التفهم لما يسمعون ويقرأون ، وأنتم القدوة الصحيحة للتلاميذ ، فاحذروا أن تعدوهم بالضجر واليأس ، وتذكروا دائما أن المدرس المنشرح الصدر المبتهج النفس هو وحده الذى يقدر على جعل المدرسة أحب إلى التلميذ من كل مكان ، ففى الدنيا متاعب كثيرة تنتظر رجال الغد من تلاميذكم ، فأعطوهم من ذخائر الأمل والبهجة ما يدفعون به متاعب الحياة فى الأيام المقبلات ، والله بالتوفيق كفيل » .

ويدعو زكى مبارك إلى ترويض التلاميذ على حب العلوم والآداب رياضة قوية ، رياضة تحقق عندهم الشوق إلى أن يصيروا من أكابر العلماء والأدباء ، وهذا لا يتيسر إلا إذا غيرنا الطريقة المتبعة للتدريس فى مدارسنا المصرية ، وهى طريقة التحفيظ ، لأنها طريقة عقيمة .

ويطالبنا زكى مبارك باتباع الطريقة المثلى فى التربية وهى طريقة التفهيم .

وفى كتابه « ليلى المريضة فى العراق »(*) تعرض زكى مبارك لقضايا متعددة منها القومية العربية والوحدة العربية ، وأهمية الأخذ فى الاعتبار عند التدريس للفروق الموجوده بين الصبيان والبنات وبين التلميذ السوى والتلميذ المعوق . بل زاد وطالب الأجانب بضرورة خدمة اللغة العربية . والكتاب طبع طبعة ثالثة ممتازة فى مطبعة الأديب الشاعر الأستاذ سعيد جوده السحار ، فهو فى متناول يد الجميع بعكس بعض كتب زكى مبارك التى لم يُعَد طبعها كالبدائع وملامح المجتمع العراقى ووحى بغداد ، ولذا نرى أن من يجب أن يعرف آراء زكى مبارك التربوية على صفحات كتابه « ليلى المريضة

(*) كتاب « ليلى المريضة فى العراق » الطبعة الثالثة مكتبة مصر بالفجالة .

فى العراق » أن يعود مباشرة للكتاب .

وإذا تحدثنا عن الفكر التربوى عند زكى مبارك لا نستطيع أن ننسى مقترحاته للحفاظ على اللغة العربية ، وهو يرى أن اللغة العربية لا يعرفها أهلها لأن المؤلفات الحديثة خالية من الجاذبية فى أكثر الأحوال(*) .

أيضا هناك كتاب « اللغة والدين والتقاليد »(* *) ويكفى أن نقول إن الشاعر والأديب الأستاذ كمال النجمى قال فى مقدمة الكتاب : « بحث كتبه الأديب المرحوم الدكتور زكى مبارك منذ أكثر من خمسين سنة وما زال يحتفظ بطابع الحداثة ومسايرة العصر رغم مرور نصف قرن على تأليفه » . ونحن ندعو القارئ لمعايشة الكتاب ليقف بنفسه على آراء زكى مبارك فى الفكر التربوى .

المؤلفان

(*) كتاب « ملامح دينية بقلم زكى مبارك » إعداد وتقديم : كريمة زكى مبارك ، توزيع دار الشعب بالقاهرة صفحة ١٠٣ وما بعدها .

(* *) كتاب « اللغة والدين والتقاليد » صدرت الطبعة الثانية فى كتاب الهلال فى أغسطس سنة ١٩٩٠ .

إصلاح الخط العربى

لقد ناقش الدكتور زكى مبارك على صفحات كتابه « اللغة والدين والتقاليد » ناقش إصلاح الخط العربى ، ثم عاد مرة أخرى ونشر مقالة فى مجلة « التربية الحديثة » عن إصلاح الخط العربى ورد عليه الدكتور أمير بقطر صاحب مجلة التربية الحديثة على صفحات المجلة ، فرد عليه زكى مبارك .

قال زكى مبارك تحت عنوان : « إصلاح الخط العربى » .

إلى الصديقين الكريمين محررى مجلة التربية الحديثة(*) .

أقدم إليكما أصدق التحيات . ثم أتشرف بتقديم ما سألتمونى من الرأى فى إصلاح الخط العربى ، ولكن على شرط أن تحتملوا الإطناب . لأن لى فى هذه المسألة آراء عرضتها فى مواقف رسمية ، أحدها فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس يوم حاججت الأساتذة العظام مرسيه وكولان وديمومبين ، وثانيها يوم قدمت رسالة « اللغة والدين والتقاليد » إلى لجنة رسمية مؤلفة من حضرات أصحاب المعالى والعزة أحمد لطفى السيد باشا وجعفر ولى باشا وبهى الدين بركات باشا وطه حسين بك ومصطفى عبد الرازق بك . وهناك موقف أخطر وهو الذى دعوت فيه صراحة إلى كتابة المصحف بالرسم الحديث ، وتصريحى بأن سيدنا عثمان كان مبتدئا فى الخط وأنه لو عاش فى هذا العصر لكان من المستحيل أن نكل إليه تعليم الخط فى مدرسة أولية ، ثم تصريحى بأن مشايخ الأزهر يصدّون عن كتاب الله حين يوجبون

(*) وحى بغداد ص ٣٣٨ .

أن يرسم بخط تصعب قراءته على أكثر الناس .

أما موقفى فى مدافعة المستشرقين فيتلخص فى أن الخط العربى هو أصلح الخطوط للغة العربية ، وأن الحروف اللاتينية لا تنفعنا أبدًا ، لأنها تعجز عن تأدية النطق العربى صحيحة .

قالوا: ومع ذلك يعجز الخط العربى عن تأدية النطق العربى تأدية صحيحة !

قلت : لأننا نهمل الشكل وهو عنصر أساسّى فى الخط العربى .

وهنا أذكر أن أهل بغداد كانوا السبب فى حرمان الخط العربى من أهم عناصره وهو الشكل : لأنهم كانوا يرون الشكل إهانة للمخاطب واتهامًا له بالجهل .

وهذا الذوق البغدادى كان يقبل فى القرن الثالث يوم كانت الثقافة الأدبية مقصورة على الخواص الذين يؤذيهم أن ترشدهم إلى صواب النطق بشكل الكلمات .

وقد تغير الحال فى هذا الزمان وصرنا مضطرين إلى مخاطبة الجمهور كله وفيه أطفال ونساء وجاهلون ، فما كان يعتبر إهانة عند أهل بغداد فى القرن الثالث أصبح فى زماننا من الواجبات .

وخلاصة هذه الفكرة أن التشبث بالخط العربى ليس نزعة قومية ، كما يتوهم أكثر الناس ، وإنما التشبث بالخط العربى أمر يوجبه العقل والمنطق لأنه أصلح الخطوط لتأدية النطق الصحيح فى اللغة العربية .

وكلمة « كتب » معناها فى الأصل « قيد » وكذلك « الشكل » معناه « القيد » لأنه مأخوذ من الشكال ، أى القيد . فالذى يشكل الكلمة

يقيدها : أعنى أنه يحصرها فى وضع واحد ، وكانت قبل الشكل تنطق بأوضاع مختلفات .

وأقول ثم أقول ، وأقرر ثم أقرر ، أن الخط العربى لا يعوزه غير الشكل ، فإذا شكلناه أصبح قادرًا كل القدرة على تأدية النطق وتحديد المعانى على نحو ما تصنع الحروف اللاتينية فى اللغات الأوربية .

ولو ظهرت الجرائد والمجلات مشكولة عامين اثنين لرأيتم كيف يصلح النطق وكيف يشيع الإفصاح .

* * *

وهنا ندخل فى شعاب المعضلة الحقيقية فنقول :

إن لحرف القاف مثلا أربع صور هى : ق ، قـ ، ـقـ ، ـق .

ولو وضعنا لكل صورة ثلاث حركات لا حتجنا إلى اثنتى عشرة صورة لكل حرف ، وبذلك تتعدد الصناديق ، وتحتاج كل مطبعة إلى مضاعفة عدد الصفافين ، كما يعبر أهل مصر ، أو المرتبين ، كما يعبر أهل العراق .

وأنا بكل صراحةٍ أدعو إلى توحيد الحروف ، أدعو إلى الاكتفاء بصورة واحدة لكل حرف ، فيكون له رسم واحد فى أول الكلمة وفى الوسط وفى الطرف ، ثم يصبّ من كل حرف ثلاثة أشكال فيها الكسر والضم والفتح ، مع الاستغناء مؤقتًا عن حركات الإعراب .

وهذا الاقتراح يذهب بشىء من جمال الخط العربى ، ولكن جمال الخط لا يساوى ما نظفر به من الدقة والتحديد فى الخط المقترح .

الشكل هو الإصلاح الوحيد للخط العربى ، ولكن شكل الحروف بوضعها الحاضر يوجب تعقيد الصناديق ، وتوحيد أشكال الحروف يمنع

هذا التعقيد .

فى الصندوق العتيد أربع صور لحرف الفاء هى ف ، فـ ، ـفـ ، ـف .

وفى الصندوق الذى أقترحه أربع صور هى : فَـ ، فِـ ، فُـ ، فـ .

والصورة الأخيرة عارية عن الشكل فلتكن صورة السكون أو الوقف .

* * *

وما أقترحه خاص بحروف الطباعة ، أما الكتابة العادية فخط الرقعة يكفى فيها كل الكفاية ، ويحسن أن يكون عندنا خطان اثنان فقط : خط للطباعة وخط للتحرير .

وأنا — بعد الذى أسلفت — أقرر بصراحة أن صعوبة النطق التى أوجبها سوء الخط كانت السبب فى اهتمام العرب بالتمكن من لغتهم ، كما أن صعوبة النحو العربى كانت السبب فى نبوغ أكثر الأدباء .

والتعليم فى الأزهر كان نافعًا جدًّا يوم كان يجرى على نظام غير مرتب . فلما وصلت إليه طرائق التربية الحديثة أصبح ضعيفًا .

أقول هذا وأنا أعرف أنه سيغضب الدكتور بقطر والدكتور جولت .

ولكنى قضيت عشرين سنة فى درس علم النفس ، وأصبح من المقرر عندى أن الاهتمام هو أصل كل تفوق ، وصعوبة الخط والنحو والصرف توجب الاهتمام ، وهذا الاهتمام هو الذى جعل الأزهريين القدماء من أعرف الناس باللغة العربية .

ولكن لا مفر من إصلاح الخط العربى لنصل به إلى الجمهور الأعظم الذى يعدّ بالملايين ، ولنقضى على الدسيسة الخطرة التى تزيّن الحروف اللاتينية ، ولنسهل الوصول إلى فهم لغتنا لمن يهمهم ذلك من كرام الأجانب ، فقد

اشتغلت بالتدريس فى الليسيه فرانسيه نحو عشر سنين وكان يؤذينى أن يعتقد الأجانب من التلاميذ أن لغتنا أصعب اللغات .

وحين يتضح الخط العربى ويتكلم لغتنا ألوف من الأوربيين والأمريكيين تدخل فى لغتنا حيويات جديدة قد تعود على أدبنا بأعظم النفع .

إن إصلاح الخط العربى أمل جميل ، ولكن على شرط أن يكون تطورًا فى الخط ، ولا يكون تبديلا للخط ، فإنى أخشى أن نبالغ فى الحذلقة فلا تسايرنا الأقطار العربية ، والسلام .

بغداد زكى مبارك

إلى الدكتور أمير بقطر

أخى وصديقى :(*)

لعلك قرأت كلمتى الماضية ، وهى عتب عليك ، عتب قاس عنيف ندمت عليه أشد الندم لأنه اتصل بأيامى فى الجامعة الأمريكية ، المعهد الذى صحبتك فيه وصحبت الأستاذ حبيب اسكندر وهو من أكرم من صحبت ، فقد وصفت الأمريكان بأنهم قوم سطحيون ، وكان الأدب يوجب ألا أقول ذلك بعد أن صحبتهم سنتين : وبعد أن عرفت المستر جولت وزوجته الغالية .

وكان للمستر جولت قصة نبيلة ، فقد كتب إلىّ خطابا بالفرنسية يقول فيه :

(*) وحى بغداد ص ٣٥٢ .

« لقد قهرتنا الأزمة على الاستغناء عن بعض المدرسين ، فكان الدكتور زكى مبارك أول من فكرنا فى الاستغناء عنه ، لأنه رجل صالح للحياة ، ومواهبه كفيلة بأن تمكنه من طيبات الأرزاق » .

وأنا أعتقد أن هذة الشهادة هى أعظم ما ظفرت به من الألقاب .

وقد اقترحت فى ذلك العهد أن أدرس فى الجامعة الأمريكية مجانا ، ثم صرفتنى الشواغل عما أريد ، وليتنى استطعت لأقيم الدليل على أننى من أصحاب المعانى ، فالجامعة الأمريكية تقوم فى نفس البناء الذى كانت تقوم فيه الجامعة المصرية ، وفى ذلك المكان نفسه استطاع أستاذنا الشيخ محمد المهدى بك أن يقوم بتدريس الأدب العربى مجانا حين نقصت موارد الجامعة المصرية بسبب الحرب العالمية .

ولكن ندمى على ما آذيت به الأمريكان بدأ يخف ، لأننى أخذت أفهم أننى لا أحارب الطريقة الأمريكانية لأسباب شخصية ، وإنما أحاربها فى سبيل المبدأ ، وأنا يا صديقى رجل يتوهم أنه من أصحاب المبادىء ، وقد تجد فيمن صحبناهم من الأمريكان من يشهد بصدق ما أقول .

وأنا أعتقد حقا أنكم قوم سطحيون(*) ، وأعتقد أن نبوغ أمريكا فى الفن السينمائى له دخل فى ذلك ، فهم قوم تبهرهم الألوان قبل أن تبهرهم الحقائق ، فالدنيا عندهم صور وزخارف وتهاويل ، والبيت لا يكون عندهم بيتا إلا إن ناطح السحاب ، مع أن أرض الله أوسع مما تظن ويظنون .

وليس عند الأمريكان غير فضيلة واحدة هى الابتسام ، وقد ورثت عنهم شيئا من هذه الفضيلة العالية ، وأشهد صادقا أنى ابتسمت حين قرأت

(*) رد زكى مبارك هذا كان ردا على الدكتور أمير بقطر صاحب مجلة التربية الحديثة .

كلمتك فى الرد على أخيك .

فهل آمل أن تبتسم أيضا حين أقول إنكم قوم سطحيون ؟

اسمع يا صديقى :

أنت قلت إن علم النفس منذ عشرين سنة لا يقاس إلى علم النفس فى هذه الأيام إلا كما يقاس التنجيم إلى علم الفلك .

ذلك كلامك الذى سطرته بقلمك فى مجلة التربية الحديثة .

فهل تعنى ما تقول ؟ وهل يصدقك رجل مثل سعادة الدكتور منصور فهمى أو رجل مثل معالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق ؟

وهل يوافقك على ذلك فريق من الذين تلقيت أنا عنهم الفلسفة فى السوربون ؟

من سوء حظى أيها الأخ أنى دكتور فى الفلسفة ، ومن سوء حظى أن وجدت رجلا يعتذر عن نقد كتاب النثر الفنى بحجة أنه قام على أصول فلسفية توجب النظر الدقيق . وهذا الرجل هو الأستاذ إسماعيل مظهر وهو فيما سمعت وسمعتم من المطلعين على المذاهب الفلسفية .

ومن سوء حظى أيضا أنى اطلعت اطلاعا لا يخطر ببالك على الفلسفة اليونانية والعربية ، وصح عندى بعد البحث أن الفلسفة الحديثة لها أصول عند القدماء .

هل تصدق أننى اكتشفت أن مذهب فرويد له أصل فى كتب الشعرانى ؟ وهل تصدق أنى وجدت لذلك المذهب أصولا صحيحة عند علماء الفقه الإسلامى ؟

ليتنى أفرغ لك ولأمريكا لأفهمكم أن لا جديد تحت الشمس مع استثناء

اللاسلكى والبخار والكهرباء .

إن قوتكم فى الإعلان تفوق كل قوة ، وقد أزغتم الأبصار والعقول ، وأصبح من واجب كل مخلص أن يقفكم عند حدكم ، فقد ملأتم الدنيا بالأوهام والأضاليل .

أفى الحق أن علم النفس كان منذ عشرين سنة خرافة من الخرافات ؟

فما رأيكم فيمن يحدثكم أن علم النفس كان علما صحيحا منذ ألوف السنين ؟

ما رأيكم فيمن يحدثكم أن الحقائق النفسية عرفها قدماء العرب والفرس واليونان والمصريين والهنود ؟

ما رأيكم فيمن يحدثكم أن الاستهانة بميراث الإنسانية هى الشاهد على أنكم تمزحون فيما تقولون وما تكتبون ؟

لقد اتفق لك يا دكتور بقطر أن توهم قراءك مرات ومرات بأن مناهج التعليم فى مصر وفى فرنسا وفى إنجلترا وفى ألمانيا وفى الدنيا كلها مناهج تقوم على غير أساس لأنها غير أمريكانية ، فاتق الله والأدب والذوق فى عقلك ، وتذكر أن الأمريكان ناس كسائر الناس وليسوا من الملائكة ولا الشياطين .

أما بعد فما أوجه الكلام إلى شخصك بالذات لأنك صديق عزيز ؛ وإنما أنقد مذهبا ضعيفا من مذاهب الفهم هو المذهب الأمريكانى .

وقد آن الأوان للتفكير فى نقلك إلى وطنك حتى لا تضيع .

آن الأوان للتفكير فى رياضتك على النظر إلى الحقائق .

آن الأوان لنفهمك أن الفلاسفة كان لهم قبل عشرين سنة مذاهب صحيحة فى علم النفس .

آن الأوان لنفهمك — وأنت صالح للفهم — أن علم النفس له ماض وتاريخ .

أيها الصديق .

لا تحسبنى أسأت إليك ، فستذكرنى بالخير بعد حين ، والسلام .

* * *

تكوين الشبان تكوينا تتم به الرجولة

يرى زكى مبارك أهمية ترويض التلاميذ على الخشونة والفتوة ، والتسوية بين التلاميذ فى أشكال الملابس حتى لا يستطيل غنى على فقير ، ويرى أن هناك تشابها بين مصر والعراق فى التيارات الاجتماعية .

ويطالب العراق بإنشاء جامعة لأنه يرى أن من الأهمية بمكان وجود جامعة فى كل بلد حتى يصبح الشبان من أقطاب العلم والبيان ، لأن الأمم ترقى حين توجد فيها صفوة ممتازة تتفوق فى العلوم والفنون والآداب . وعلى صفحات كتاب « ملامح المجتمع العراقى » الطبعة الأولى صفحة ١١٩ يقول زكى مبارك :

* * *

هناك مسألة مهمة جدًّا تؤكد التشابه بين مصر والعراق فى التيارات الاجتماعية ، وهى الحرص عندنا وعندهم على تكوين الشبان تكوينًا تتمّ به الرجولة والفتوّة .

وأنتم تذكرون ما صنعتْ مصر فى هذه الناحية : فقد ابتدأت بدايةً شعبيَّة

بالقمصان الخُضر ، ثم القمصان الزُّرق ، وكانت بدايةً حسنة لم يعكرها غير الاشتراك فى الشئون الحزبية ، ثم كان ما تعرفون من تحويل هذه الحركة إلى اتجاهٍ آخر هو التدريب العسكرى برعاية وزارة المعارف . فلتعلموا أن هذه الحركة لها فى العراق رنين ، فهناك نظامٌ فرضه معالى الدكتور سامى شوكت يسمى نظام الفتوَّة ، وهو يوجب على جميع التلاميذ أن يلبسوا أثوابًا فى خشونة الملابس العسكرية .

وقد شهدت هذا النظام يومِ زرت بغداد للاشتراك فى تأبين الملك غازى — رحمه الله — ثم علمت أنه سيفرَض على المعلمين أيضًا فى أوقات الدروس ، وفى ذلك إسراف ، وقد يُحمَد الإسراف فى بعض الأحيان .

ومزية هذا النظام أنه يروض التلاميذ على الخشونة والفتوة ، وله عندى مزيةٌ أهمّ وأعظم : وهى التسوية بين التلاميذ فى أشكال الملابس ، فلا يستطيل غنىٌّ على فقير بجمال الهندام ، ولا تحسّ حُجُرات المدارس بحركات الصراع بين الفقراء والأغنياء .

وقد نعرف — حين نتأمل — أن التأنق فى الملبس هو مفتاح كل بلية ، وإليه يرجع السبب فى تدهور الشخصيات عند كثير من التلاميذ .

ويتفرع من هذا خوف المصريين والعراقيين من حرية الشبان فى ارتياد الملاهى ، فأهل مصر يؤذيهم أن يسمعوا أن تلميذًا دخل حانة ، أو شهد مرقصًا أو تردد على مواطن الشُّبُهات .

وكذلك يكره العراقيون أن تكون لأبنائهم معرفة بالملاهى ، وربما كرهوا أن يروهم فى المقاهى ، ومن المنتظر أن توضع هناك حدودٌ صوارم لحرية التلاميذ فى الحفلات والسهرات .

* * *

الشباب بين التردد والإقدام(*)

فى ختام بعض الآراء التربوية للمفكر الكبير الدكتور زكى مبارك رأينا أن نثبت مقالين ؛ أولهما يتحدث عن قلق الشباب وتردده ورغبته فى معالى الأمور ، ونفرة بعض الرؤساء من الشخصيات القوية ، وكلمة عمن يتمرغون فى وحل الميرى وترابه ، وغفلة الشبان عن تقدير الحرية .

ويرى زكى مبارك أن اعتماد الشبان على الحكومة هو السبب فى قتل عزائمهم ، وهذا المقال نشر فى كتاب « البدائع » تحت عنوان « الشباب المصرى بين التردد والإقدام » ونحن نرى أن مشاكل الشباب فى العالم الإسلامى والعالم العربى واحدة تقريبا .

أما المقال الثانى فكان على صفحات مجلة الرسالة وفيه يدعو زكى مبارك إلى تحرر العقل من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل ، والنظر فى جميع الأشياء وجميع المعانى نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لمن سبقونا .

فتحت عنوان « الشباب المصرى بين التردد والإقدام » يقول زكى مبارك :

كتب إلى موظف شاب لم يشأ ذكر اسمه رسالة جاءت فيها الكلمة الآتية :

« كتبت إليك رسالتى هذه راجيا منك أن تطرق موضوعا ما أحوجنا نحن شبان مصر إليه ، ألا وهو مرض التردد وخور العزيمة . فكثيرا ما يحاول

(*) البدائع الجزء الأول ص ٢١ .

الإنسان تنفيذ خطة يرسمها فإذا به — بعد أن كان متحمسًا نحو هذه الخطة وما يعود عليه من نتائجها — خامل يؤثر الكسل والاسترسال فى الأمانى والأحلام ، وأصارحك يا سيدى بأنى من هؤلاء وأن مثلى كثيرون . فإنى اقتطعت دراستى والتحقت بوظيفة وأصبحت أندب حظى لعدم استكمال تعليمى ، وكل همى أن أواصل الاستذكار والتهام العلوم حتى أحصل على شهادة أقنع بها نفسى . ولكنى رغم هذه الرغبة أجد عزيمتى الخائرة تخوننى فى تنفيذ ذلك رغم محاولتى مقاومتها ... وتنقضى الأيام والشهور بل والسنين فأراجع نفسى فأجد أنى لم أتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ، وهذا ما أفزعنى من نفسى وجعلنى أقصدك كى تعالج هذا المرض . وقد اخترتك من بين الأدباء والمصلحين لعلمى أنك الرجل العصامى الذى طلب العلم وما زال يطلبه دون أن يقف فى وجهه ما يعوقه — وما أكثر تلك العوائق — فأرجو أن تقبل رجاء شاب كل ما فى استطاعته أن يدعو لك الله من قلبه ليحفظك ، والله ولى جزائكم بما تخدمون به الوطن والإنسانية » .

ويستخلص من هذه الرسالة ما يأتى :

أولا — عندنا شبان لا يرضون بالدون من حظوظ الحياة وتسمو بهم أنفسهم إلى احتلال الصفوف الأولى فى ميادين العلوم والآداب .

ثانيا — يقاسى أولئك الشبان مرارة الخيبة والإخفاق أحيانا ويودون أن لا تقف بهم جهودهم عند الأمانى والأحلام .

ثالثا — بين أولئك الشبان من يدرس نفسه ويحاسبها حسابا عسيرا يصل به إلى الخوف والفزع والإشفاق .

رابعا — من أولئك الشبان من يطلب الغوث ويستعين من يرجو أن

تكون لديهم كلمة طيبة تنتشلهم من وهاد التردد والخور والخمود .

أما أنا فلست أخشى خطرا على صاحب هذه الرسالة ؛ فإنها تدل على أنه يستوحش من الكسل ويتطلع إلى حياة الجد والإقدام . والشعور بالنقص هو الخطوة الأولى نحو الكمال . وسأحتفظ برسالته ليظل اسمه عندى أعرفه به يوم يقدمه جده وسعيه ، وترفعه نفسه إلى بعض ما يريد ، لأنه لا يصل إلى « كل » ما يريد إلا القانعون بالقليل ، والإنسان أسمى من أن تقف نفسه عند مطمع مهما ابتسمت له الحظوظ . وقديما حدثنا ابن المقفع أن الرجل الكامل المروءة لا يرى إلا فى مكانين ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرما ، أو مع النساك متبتلا ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين : إما فى البرية وحشيا ، أو مركبا للملوك .

على أنه من الخير أن نبحث الأسباب التى تقتل رجولة الشباب فى العصر الحاضر وتحبب إليهم الكسل والخمول ، وأهم تلك الأسباب :

أولا — شعور جمهور الشباب بأن المناصب الرفيعة لا يصل إليها الرجل بالعلم الواسع والخلق المتين ؛ وإنما يصل إليها عن طريق السفالة والنذالة والانحطاط . وبرهانهم على ذلك أن هناك ناسا ارتفعوا بلا مؤهلات ، وأنهم يتطلعون فيرون المرونة والليونة والوصولية هى المؤهلات النافعة فى هذا العصر ، وأن الاستعداد لبيع الضمير والخلق كاف لأن يصل بالمرء إلى ما يريد من المنازل العالية ، وأنهم يرون فى المعاهد العلمية وفى الدواوين شواهد كثيرة لهذه الحال . فكم من رجل تبوأ منصبا وهو لا يدرك خطره ولا يعرف قيمته ، وإنما وصل إليه عن طريق التزلف والتسفل والإسفاف ، ومن البلية أن يكون فيمن يشغلون مناصب التعليم نفسه أشخاص لم يصلوا إلى

مراكزهم إلا لأن رؤساءهم رأوا فيهم صلاحية للتجسس ونقل الأخبار ، وهذه ظاهرة شنيعة ملموسة الأثر فى كل مكان .

وتلك الفئات الوضيعة تنشر الشر ذات اليمين وذات الشمال ، وأهون ما ترمى به الشبان من المآثم هو ما يقررونه فى أذهان من يلاقون من زملائهم وأصدقائهم من أن الفضيلة خيال فى خيال ، وأن الحزم فى اقتناص الفرص قبل أن تشرد ، وأن الشخصية الكريمة وبال على صاحبها لأنها تحول بينه وبين طيبات الأرزاق .

ولعل الدنيا لم تفسد يومًا كما فسدت فى هذه الأيام ، فقد استطال الأوغاد ، وأصبح الأحرار يعيشون فى أوطانهم كأنهم غرباء . وكثيرًا ما نجد الوصولى السافل يقول عن رفيق له نأت به كرامته عن مواطن الضيم والهوان :

« حضرته عامل راجل » !

والمسئول عن هذا التدهور هو الفريق الجبان من الرؤساء الذين لا يأنسون بغير الضعفاء ؛ ولا يسلمون الأعمال إلا لكل شاب رخو لا ينتظر منه إلا كلمة « بيك أفندم » كما كان يقول الأتراك .

وأين أين الرئيس الذى يحب فى مرءوسيه إباء النفس ، وقوة الشكيمة ، وصلابة العود ؟

أين أين الرئيس الذى يعد مرءوسيه ليكونوا ذخر الوطن ورجاء البلاد ؛ فيوصيهم بالترفع عن الصغار والذل ، ويغريهم بحب البأس والاستطالة والكبرياء ، لأنه لا يسقط المصرى إلا حيث تخذله نفسه ولا يجد من مضاء العزيمة وعزة النفس ما يدفع به عادية الطامعين .

ونتيجة هذا أن أصبح الشبان يرون أن سلاح العلم والفضل والنبل والشهامة سلاح مفلول ، وأن الزاد الأنفع هو التملق والمداهنة والرياء .

وقد أذكر أني لقيت مرة شابا أعرفه فسألته عن عمله وقد قضى عهد الدراسة العالية فأجاب :

« أتمرغ فى تراب الميرى » .

فابتسمت وقلت : لا بأس !

ثم علمت بعد حين أنه يتولى عملا يلحقه بمن يتمرغون فى وحل الميرى لا فى ترابه !

هذا مع أن الشبان أولى الناس بالكرامة وأجدرهم بالحرص عليها ، لأن الشباب فى ذاته قوة يجب أن تعصم صاحبها من التسفل وهو وحده حصن يجب أن يمنع صاحبه من الابتذال ، والمرء إن لم يقف على قدميه فى شبابه فمتى يرجى أن يستقيم له رأى ، أو تصلح له حال ! وإذا كان أصحاب السواعد الفتية لا يستطيعون النهوض بأنفسهم فكيف يلام الكهول على تخاذلهم وهم مهيضو الجناح . ورحم الله من قال :

إذا المرء أعيتـه المروءة يافعـا فمطلبها كهلا عليه شديـد

ثانيا — غفلة الشبان عن تقدير الحرية ، فإن الزاهدين فى الرقى ليسوا إلا قوما ألفوا الاستعباد ، ولو عشق الشبان الحرية وعرفوا فضلها لما سكتوا عن تكميل أنفسهم وتزويدها بالعلوم والآداب .

والفتيان الذين نراهم يدأبون على الدرس بعد التوظف ويطمعون فى حال أحسن من حالهم يمثلون الرغبة فى الحرية أشرف تمثيل ، فأكثرهم يعز عليه أن يظل طول حياته تابعًا ذليلا يزجر فيزدجر ويؤمر فيطيع .

والعلم هو الذى يصيرنا سادة أنفسنا ويمكننا من نواصى المراتب الرفيعة . ولا يطمع فى السيادة إلا من يعد نفسه لها إعدادا صحيحا ، أما الخامل الراضى عن حاله فلا حظ له من الرفعة ، ولا نصيب له من الاستقلال . وفى خلق الله ناس فطروا على العبودية وهؤلاء خلقوا لحكمة يعلمها الله ، فليكن فى ضمير الرجل الحر أنه خلق خلقا آخر ، وأن له أن يبحث عن مكانة عالية تليق بمن خلق ليسود .

ثالثا — اعتماد الشبان على الحكومة هو من أخطر الأسباب فى قتل عزائمهم ، فهم ينتظرون أن يكونوا دائما « مسنودين » بقوة الدولة لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا فى ظلال من يملكون الأمور . ولكل شاب عذر من حكومته : فهو يعلل تأخره بتأخر الحكم فى زمانه ، ويأسى على أن لم يولد فى عهد من كانوا يمنحون الحظوظ بغير حساب ! وقديما قال المتنبى :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

فتلك إذن علالة قديمة يستريح إلى ترديدها المتخلفون . ونحن لا نريد لشباننا أن يعتمدوا على الدولة فى إنهاضهم من كبواتهم فإنه لا خير فيمن يعتمد على سواه ، إنما نريد لهم أن يكونوا أقوياء بأنفسهم ، وأن يكون الفتى قوة كاملة هى فى ذاتها دولة ذات حول وطول وسلطان . ٢١ / ١٠ / ٣١ .

* * *

منهاج الذاتية الأدبية

صديقى ...

كتبت إلىّ تسأل عن المراد من « الذاتية الأدبية » وهى كلمة يكثر ورودها على سنان قلمى ، ثم تدعونى إلى رسم المنهاج ، إن كان لها منهاج .

وأجيب بأن الذاتية الأدبية هى أن تكون أنت أنت فيما تكتب وفيما تقول ، بحيث يشعر من يقرأ لك ، أو يستمع إليك ، أنك تنقل عن قلبك وضميرك ، وأن لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها سواك ، وأنك لو نشرت مقالاً بدون إمضاء لنمَّ عليك الروح قبل أن ينم عليك الأسلوب ، فإن الأساليب قد تتشابه فى كثير من الأحايين تشابهًا يسمح بإضافة آثار كاتب إلى كاتب ، أو شاعر إلى شاعر ، أو مؤلف إلى مؤلف ، عند طىّ الأسماء(*) .

أما التشابه فى الأرواح فهو نادر الوجود ، ولعله لا يقع إلا عند ضعف الأرواح ، كما تتشابه الغرائز أو تتماثل عند صغار الطير والحيوان .

ولتوضيح هذه النظرية أذكّرك بمعلقة امرئ القيس ومعلقة لبيد ، فمعلقة امرئ القيس يمكن أن تضاف إلى غيره من الشعراء ، ويمكن لأىّ شاعر أن ينظم مثلها بلا عناء ، أما معلقة لبيد فهى شعر لبيد ، ولن يحاكيه فيها شاعر ، ولو قضى العمر فى رياضة النفس على الاقتداء .

وبفهم هذه النظرية تتضح مشكلةٌ عجز عن حلها من تحدثوا عن المنحول من الشعر الجاهلى ، لأنهم يبنون أحكامهم على الأساليب لا على الأرواح ؛

(*) على صفحات مجلة الرسالة العدد ٤٧٩ فى ٧ / ٩ / ٤٢ .

فرقّة الأسلوب هى عندهم خَصيصة حضرية ، وجزالة الأسلوب خَصيصة بدوية ، وعلى هذا يقاس ، كما صنع سعادة الدكتور طه بك حسين .

الروح هو الأصل فى تقدير القِيم الأدبية ، وعن الروح يتفرع الأسلوب . ولو شئت لقلت إن لكل كاتب أساليب تختلف باختلاف مقامات الإنشاء ، كما تختلف نظرات العيون باختلاف مقامات الحديث ، وكما تختلف نبرات الأصوات لمثل تلك الأسباب ، ثم يبقى الروح الذى يدل على صاحبه فى جميع الحالات بلا استثناء .

فانظر أين أنت من هذه الحدود : أينمّ عليك روحك ؟ أينمّ عليك أسلوبك ؟ أتنمّ عليك التبعّية الذليلة فى الروح والأسلوب لأحد الكتّاب أو أحد الشعراء .

انظر أين أنت ، فأنا أحب أن أعرفك بالروح قبل أن أعرفك بالأسلوب ، وافهمْ جيدًا أنه لا قيمة لأديب بلا روح ، روح أصيل تعرفه بسيماه ، ولو أقبل عليك ملثَّمًا مع ألوف من الأرواح .

هل قرأت سورة يوسف ؟

فى تلك السورة الكريمة آيةٌ صريحة فى أن يعقوب وجد ريح يوسف قبل أن يصل القميص ، وأنه شُفِى من عماه عند وصول القميص .

فهل تفهم المراد من هذا الرمز الطريف ؟

هل تفهم كيف يدرك الأعمى أشياء بطريق لا سمع فيه ولا لمس ؟

هذا هو الروح الذى أحب أن تلتفت إليه فى حياتك الأدبية ؛ الروح الذى يدل عليك من أول سطر ، أو من أول حرف ، قبل أن يرى القارئ اسمك فى خاتمة مقالك ، فإن وصلت إلى هذا فأنت من أصحاب الذاتية .

ولكن كيف تصل ؟

هنا يبدأ الحديث عن المنهاج :

يجب أولاً أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضاليل . ومعنى هذه الوصية أنه يجب أن تنظر فى جميع الأشياء وجميع المعانى نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعاظم الرجال ، لأن الغرض هو أن تصبح روحك جارحة من الجوارح ، وهى لا تصير كذلك إلا إن عودتها الفهم والإدراك بلا وسيط . وهل تكون الروح أقل قيمةً من الرِّجل ، يا بنى آدم ، والرِّجل لا تمشى إلا إن عودناها المشى ؟

وإذا كان علم السباحة لا يُعْرف بالوصف ، وإنما يُعْرَف بالتدريب على مغالبة الماء فى أيام أو أسابيع ، فَعِلْمُ الروح لا يُدْرَك بالوصف ، وإنما يدرَك بتدريب الروح على التذوُّق والتفهم فى أعوام أو أزمان .

أراد سابحٌ عبور النيل فغرق ، وأراد سابحٌ عبور المانش فنجح ، مع أن السابحين توأمان . فكيف نجح هذا وغرق ذاك ؟

يرجع الفرق إلى اختلاف التمرين والتدريب . وما يقال فى القوة الجسمية يقال فى القوة الروحية . فعاوِدْ روحك بالتمرين والتدريب فى كل وقت ، واحفظها من الغفلة عن إدراك دقائق الفروق بين الأشياء والمعانى ، وعوِّدها التفكير فى جميع ما ترى عيناك ، وما تسمع أذناك ، وما يهجس به الخاطر فى اليقظة أو فى المنام ، فالنوم كلمة سوقية وليس له مع حياة الروح وجود .

إن عملت بهذه الوصية عامًا أو عامين ظفرت حتمًا بالحاسة الذوقية ،

وهى مفتاح الظفر بالذاتية الأدبية ، فتوكلْ على الله وابدأ من هذا اليوم .

ويجب ثانيًا أن توطّن النفس على الغُربة الأبدية ، ولو كنت فى دارك وبين أهلك ، فالمفكرون فى جميع العصور غرباء .

لن يكون لك ظهير غير قلمك ، ولن يكون لك نصير غير روحك ، فاعرف أين تضع قدمك قبل أن تخاطر بنفسك فتصحب رجال القلم البليغ .

إن صُحبتنا متعبة ومضنية ومؤذية ، لأن طريقنا أشواك من تحتها أشواك ، وقد رحَّبنا بالظمأ والجوع ، وبما هو أفتك من الظمأ والجوع ، فى سبيل الذاتية الأدبية ، فانظر كيف تصنع إذا ضَعُفتَ عن السير فى بداية الطريق ، أو فى منتصف الطريق ، طريق الموت أو الخلود .

أنا أرحمك فأنهاك عن الاحتراق بنار الأدب ، وليتنى وجدت من ينهانى قبل أن أحترق !

إن صريع الأمواج يجد من يمدّ له يد الإنقاذ والإغاثة ، أما صريع النيران فلا منقذ له ولا مغيث ، ونحن صرعى النيران لا الأمواج .

إن اللصوص يتعاطفون فلا يشهد بعضهم على بعض ، ولا يكيد أحدهم لأخيه ، ولسنا لصوصًا حتى نعِدك ونمنّيك ، وإنما نحن أدباء يكتب أحدنا لزميله صحيفة الاتهام ، بلا تورع ولا استحياء .

ارجع قبل أن تحترق ، أيها الخاطب لما يسمّونه الأدب الرفيع .

ولو أننى أملك الرجوع لرجعت ، فارجع أنت قبل أن يصعب عليك الرجوع ، وقبل أن تصير الاستغاثة فوق ما تطيق .

كان شيخنا العظيم « عبد الحميد بن يحيى الكاتب » زوّدنا بنصائح تحفظ

كرامة رجال الأقلام ، فهل سمعنا وأطعنا ؟ هيهات ثم هيهات !

لا يخدعْك السراب الخدَّاع فتتوهم أن احتراف الأدب أنفع من الاتجار بالتراب ، ولا تُطِع المضللين من أدعياء الأدب إلا إن ارتضيت إطاعة الشياطين .

لقد نصحتُكَ ونصحتك ثم نصحتك ، فإن رأيت أن هذا النصح لم يؤثِّر فى نفسك ، ولم يصدّك عن عزمك ، فأقبلْ ثم أقبلْ على الاحتراق باللهب المقدس ، لهب الأدب ، فنحن وحدّنا الأحياء ، ونحن وحدّنا الخالدون ، ولأعدائنا الموت والفناء !

إنَّ كلمةً تُضَمُّ إلى كلمة فى ذكاء ولوذعية أشرف وأعظم وأنفع من كنوز تضاف إلى كنوز ؛ وإن جود الله بالفكر والروح على من يصطفيهم من عباده ، لهو أطيب الهبات ، وأكرم الأرزاق .

أقسمَ الله بالقلم ، ولم يُقسم بالمال ، ونحن بالله مؤمنون !

هل رأيت الله تخلَّى عن أديب سليم القلب قويّ الروح ؟

لقد خرج المتنبى هاربًا من مصر فى ليلة عيد ، فكم ألوفًا من الدنانير أنفقت مصر فى تعليم أبنائها حكمة المتنبى ؟

وقد مات محمد عبده بعلة أورثه إياها عقوق معاصريه ، فكم ألوفًا من النفوس حاولت التشرف بأنها رأته قبل أن يموت ؟

وعانى مصطفى كامل الكاتب والخطيب أشتات التهم الأواثم ، ثم كان من خصومه وحاسديه ومبغضيه من اشترك فى صنع التمثال .

ومرَّتْ آلاف السنين ، والناس جميعًا يستوحشون من الليل ، فكان غناء

المصريين : يا ليل ... يا ليل !!

صديقى :

أترانى شرحت المراد من الذاتية الأدبية ، ثم رسمت لك المنهاج ؟

هذه ومضة من ومضات ، وسأرجع إلى إرشادك بالتفصيل ، حين أطمئن إلى أنك أحد الأوفياء بالعهود .

زكى مبارك

مع تحيات

زهير محمد جميل كتبى **كريمة زكى مبارك**

كتب للمؤلف

□ **زهير محمد جميل كتبي :**

١ ــ همسات التعريف ، الجزء الأول ، عام ١٣٩٩ هـ .

٢ ــ همسات التعريف ، الجزء الثانى ، عام ١٤٠٠ هـ .

٣ ــ الأمراض الاجتماعية ، ١٤٠١ هـ .

٤ ــ مكة المكرمة .. العاصمة المقدسة ، عام ١٤٠٥ هـ مشترك مع :

(أ) الأستاذ الدكتور عبد العزيز الغامدى .

(ب) الأستاذ الدكتور محمد محمود السريانى .

(جـ) الأستاذ معراج مرزا .

٥ ــ تصريف مياه الأمطار بالعاصمة المقدسة عام ١٤٠٨ هـ ، ترجم إلى اللغة الإنجليزية .

٦ ــ المرحلة والمجتمع ، عام ١٤٠٩ هـ .

٧ ــ مكة المكرمة .. الوضع الفريد عام ١٤٠٩ هـ ترجم إلى اللغة الإنجليزية .

٨ ــ رجال من مكة المكرمة ١٤١٠ هـ . الجزء الأول .

٩ ــ عجرفة سياسية ، ١٤١٠ هـ .

١٠ ــ حرب الخليج .. من المعتدى ؟ ، ١٤١٠ هـ .

١١ ــ سيرة الرجل ، ١٤١٠ هـ .

١٢ ــ انفجار البركان ١٤١٠ هـ ، ترجم إلى اللغة الإنجليزية .

١٣ ــ العطار .. عميد الأدب ، ١٤١١ هـ .

١٤ ــ أوزان سياسية ، ١٤١١ هـ .

١٥ ــ المناخ فى التراث الإسلامى ، ١٤١١ هـ .
١٦ ــ رجال من مكة المكرمة ، الجزء الثانى ١٤١١ هـ .
١٧ ــ الخليج بين خوف السيطرة وفناء الموت ، ١٤١١ هـ .
١٨ ــ الفقى .. فيلسوف الحجاز ، ١٤١٢ هـ .
١٩ ــ لا .. تقرأوا هذا الحوار ، ١٤١٢ هـ .
٢٠ ــ لا تقرأوا هذا الكتاب ١٤١٢ هـ .
٢١ ــ المعادن فى التراث الإسلامى ، مخطوط .
٢٢ ــ من وراء حرب الخليج ؟ ، ١٤١٢ هـ .
٢٣ ــ الفوده رائد الحكمة . مخطوط .
٢٤ ــ رجال من مكة المكرمة ، الجزء الثالث ، مخطوط ، ١٤١٢ هـ .
٢٥ ــ حُفَرٌ بِلاَ قَعر ، ١٤١٢ هـ .
٢٦ ــ الفكر يخلق الأزمة .
٢٧ ــ الفكر التربوى عند زكى مبارك ، مشترك مع :
الأستاذة / كريمة زكى مبارك .

المؤلف فى سطور

□ **زهير محمد جميل كتبى :**

* ولد بمكة المكرمة عام ١٣٧٥ هـ .
* وبها نشأ وتعلم .
* تلقى تعليمه العام بمراحله المختلفة بمكة وحصل على المركز (الرابع) فى المرحلة الثانوية العامة (قسم أدبى) .
* التحق بالكلية المتوسطة لإعداد المعلمين ، وتخرجُ منها وحصل على المركز

(الثانى) على الدفعة المتخرجة مع مرتبة الشرف .

* حصل على المركز (الأول) بكالوريوس فى الجغرافيا والتربية من جامعة أم القرى كلية العلوم الاجتماعية مع مرتبة الشرف ودرعها .

* يحضر الآن درجة الماجستير فى الجغرافيا بجامعة أم القرى قسم الجغرافيا .

* عضو الجمعية الجغرافية الأمريكية .

* عضو الجمعية الجغرافية المصرية .

* عضو الجمعية الجغرافية الكويتية .

* عضو الجمعية الجغرافية السعودية .

* عضو الجمعية الجغرافية العراقية .

* عضو جمعية علوم العمران السعودية .

* عضو جمعية زكى مبارك الأدبية

* عضو جمعية أبوللوا الجديدة الأدبية المصرية .

* عضو جمعية رابطة الأدب الحديث المصرية .

* له نشاطات ثقافية واجتماعية ، وعضو بعدد من الأندية الثقافية الأدبية والرياضية .

* حضر العديد والكثير من المؤتمرات والندوات المحلية والدولية .

* له مؤلفات والعديد من الأبحاث العلمية والمقالات الصحافية .

* تقلب فى عدد من الوظائف الأهلية والحكومية . آخرها مدير إدارة المتابعة العامة وضابط اتصال المنظمات الدولية بأمانة العاصمة المقدسة .

* متزوج ، وله أبناء (هوازن ، جميل ، إيلاف ، تماضر) .

عزيزى القارئ :

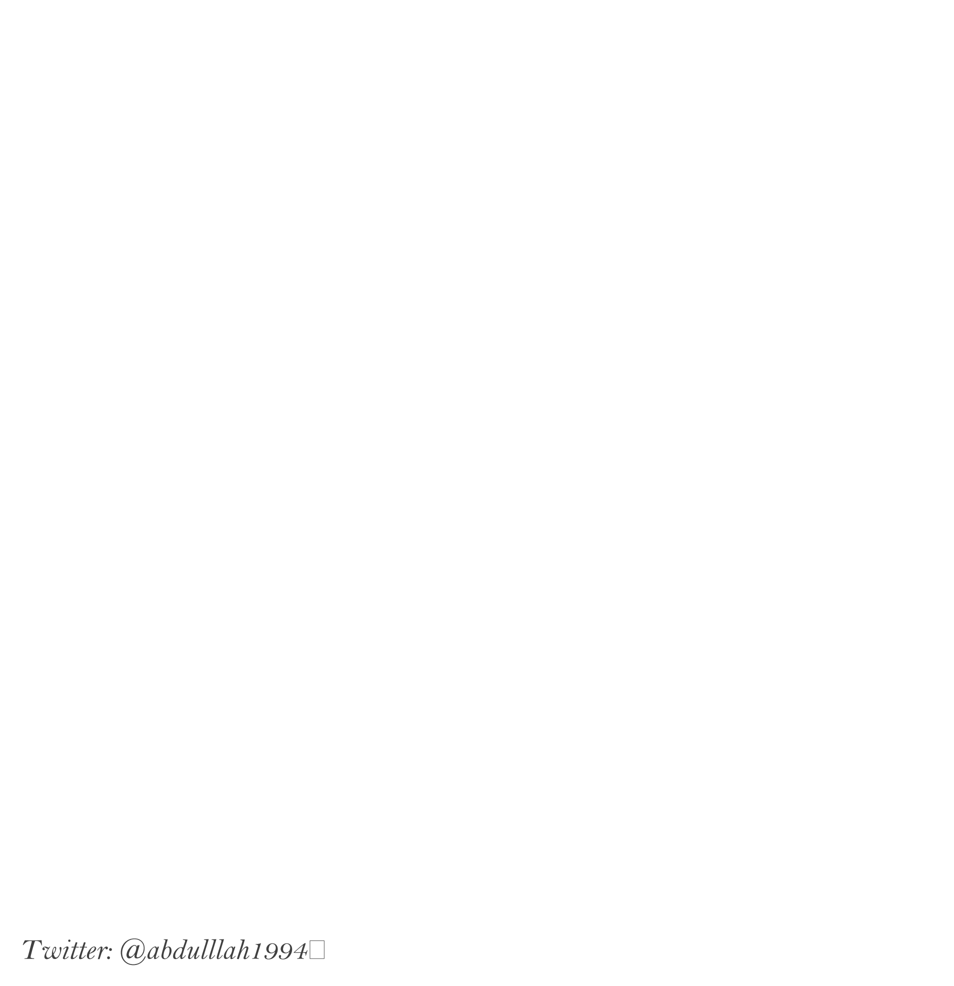
لعلك تعلق على ما قرأت ، فربما يكون لهذه التعليقات الصدى الواسع فنناقش من جديد ما كتب الدكتور زكى مبارك ، فلقد دعا الطلبة إلى مراسلة الصحف ، وإلى كتابة الخطب .

وكان زكى مبارك يرى مهنة التعليم أشرف مهنة ، والتدريس عملا قوميا ، وأن سقوط التلميذ شهادة على ضعف الأستاذ ، يقول الدكتور زكى مبارك :

الصفحة

زكي مبارك

رقم الإيداع : ١٩٩١/٧٦٣٥
الترقيم الدولى : 8 – 0698 – 11 – 977



هذا الكتاب

● يطالب بتغيير الطريقة المتبعة للتدريس فى مدارسنا المصرية وهى طريقة التحفيظ ، واتباع الطريقة المثلى فى التربية وهى طريقة التفهيم .

● وزير التربية يجب أن يكون الوزير الأول فى الدولة لأنه المسئول عن تكوين العقول والقلوب .

● المدرسون هم دعاة الحرية الفكرية ، لأن واجبهم الأول هو خلق اليقظة العقلية .

● التلاميذ خَلقٌ جديد ، وقلبى يحدثنى بأنهم يعرفون من حقائق الحياة أكثر مما نعرف .

● هذا الكتاب يضم أسماء وأسماء وآراء العديد من معاصرى زكى مبارك ومن بين هؤلاء السادة الأساتذة :

إبراهيم عبد القادر المازنى ، أحمد حسن الزيات ، أحمد زكى ، أحمد ضيف ، أحمد لطفى السيد ، جاد المولى ، حفنى ناصف ، سلامة موسى ، سيد المرصفى ، طه حسين ، عباس محمود العقاد ، عبد العزيز جاويش ، عبد الوهاب عزام ، عبد الوهاب النجار ، محمد الأسمر ، محمد حسين هيكل ، محمد عبد المطلب ، محمد المهدى ، محمود عزمى ، مصطفى عبد الرازق ، مى زياده ، يوسف الدجوى .

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

